

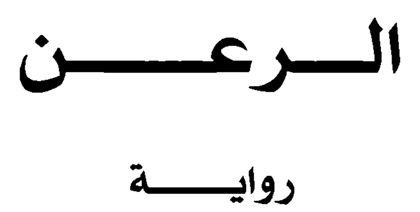
رواية





منشورات ANEP

رشيد بوجدرة



روايـــــة

ترجمة:

ANEP

الـــرعـــن

الكتاب: الرعن

المؤلف: رشيد بوجدرة

الغلاف: بديعة ميدات

الناشر: **المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار (ANEP)**

28 طريق أحمد واكد، دالي ابراهيم، الجزائر

الهاتف: 53/ 52 38 37 21 213

الفاكس: 53/ 20 72 36 21 213

e-mail: dcpa@anep.com.dz

الطبعة الأولى 1984

الطبعة الثانية 2002

ISBN: 9961-756-01-0

Dépôt - légal: 817-2002

منشورات ANEP

إقامة النجاح ـ 11، شارع الأخوة بوعدو

بئرمراد رائس ـ الجزائر

الهاتف: 58 95 44 21 213

الفاكس: 65 95 44 21 213

وما كنت أكاد ألمح إلى الشاطىء تلميحاً حتى كانت تكلب وتجن جنونها مما كان يحملني على إعادة الكرة بعد الكرة نكاية بها، ملاحقاً مناوشاً مطارداً إياها، وذلك سحابة أيام وليالٍ بكاملها حتى انتهى بها الأمر إلى إهمال شؤون سائر المرضى. على أنها وإن اغتاظت فلم يكن الغيظ ليجعل منها امرأة شرسة، بل كانت تبدو كمن حكمه مسّ من الجنون فيمضي تائهاً هائماً على وجهه في زيه الأبيض الفاقع. وكنت أتساءل آنذاك ـ فلا أتجرأ على مصارحتها فأصرخ في وجهها ـ قائلاً في نفسي: ولماذا لم يخطر في بال أحد قط أن يفاجئها من الوراء غدراً فيلبسها قميص المجانين قهراً فنتنفس في النهاية الصعداء ونعيش في السكينة مطمئني البال مرتاحين وتهدأ إذاك عقولنا المسكينة التي اعتادت أن تتطاوس في أجسامنا طلقة مرحة فرحة حرة؟ ويقيني، على ما كنت عليه من عجز عن الحكم في الأمر حكماً مبرماً لما كان ينقصني من عوامل إنسانية تعينني في التحري في الأمر، أنها كانت مجنونة حقاً. فقد كان

مجرد التلميح إلى الشاطىء اللعين تلميحاً يفقدها صوابها ويهزها هزاً؛ فبدلاً من أن تخرج إلى الحديقة أو تنصرف إلى قاعات أخرى مجاورة، كانت تؤثر البقاء إلى جواري فتجلس إلى سريري وتحدق فيّ النظر مرسلة إليّ شرارات مستعرة ملؤها الكراهية الملحة النكراء فيما كنت متلهياً بلف خيوط أحاديثي في تلافيف ذهني على كبة هذياني الداخلي الصاخب. حتى إذا ما أخذت تضرب في المغالاة أشواطاً رحت أفاجئها بغتة متوغلاً في حساسيتها المرهفة مراشقاً إياها بوابل من الشتائم مرثياً على حالها المخزي مما يجعلها تسترجع شيئاً من سريرتها الساكنة متشحة بشيء من شحيح الحنان والمودة. وكان هذا التغيير في تصرفها العادي يؤلمني كل الألم فأحسّ بوجع مضن يؤذيني فيدخل البلبلة إلى ذلك الأرب الذي كان يغشى حصافة عقلي تلك التي لا يعرفها إلا من عانى من المرض العقلي أمثالي. وما كان مني إلا أن أغرقت في التظاهر بنوبة من السعال المتواصل إلى ما لا نهاية له متظاهراً بداء السل محاولاً أن أحمل المشرفين على المستشفى أن يظنوا على أثره أني قد أصبت بمرض السل هذا حقاً فيحدو بهم الأمر إلى نقلي إلى جناح آخر غير جناحي. أن أنفلت من براثن هذه الأنثى الرهيبة، تلك كانت أمنيتي القصوى وقد كنت أبحث بكل شغف وتهافت عن قليل من السلوى والترفيه، على أنها كانت هي متيقظة ساهرة علي متعنتة مصرة على الاهتمام بي بغية إبقائي نهائياً في قبضة حمايتها المقذعة المضنية.

ولما كانت الحالة على ما هي عليه فما بقي إلا العمل على تعكير صفو قيلولاتها الزنخة المحرقة والتهكم بها مترفعاً كلما سولها عقلها أن تزجرني فتأمرني بالسكوت. على أن حكاية الشاطىء لم تكن هي وحدها التي كانت تستثير غيظها. فما كانت لتصدقني عندما كنت آخذ في سردي عليها بعض التفاصيل عن ذاك اليوم الذي ختنت فيه ولم أكن أناهز بعد الست سنوات وسط صخب التخت الموسيقي وضوضاء الخادمات السوداوات ووسط بربرة تلامذة الكتاب أيضاً وهم يرضخون لأوامر مرشدهم سي الأخضر. ولما لم تصدقني قط رحت أقص عليها خرافات لا أساس لها البتة وروايات ملفقة تلفيقاً أو وقائع وأحداثاً حقيقية كنت أتعمد تحريفها وتزييفها. فما كانت لتصدق أي شيء منها لشدة تحذرها مني ومن أقاويلي. وإذا برنين الجرس كان يقاطعنا من حين لآخر فنبقى هكذا حيارى مترددين دقائق معدودة كانت ترتسم خلالها على محياها ملامح السذاجة والبراءة فأشعر وكأنها على وشك انتزاع ما يحفظها مني وسرعان ما كان يعاود الجرس دقاته المترجرجة وتأخذ العلامة الحمراء المنبهة باللمعان مشتعلة منطفئة ناشرة علائم الذعر والهلع في أجواء الغرفة فما كان من الممرضة الشمطاء إلا أن انصرفت تركض مهرولة مما كان يدخلني في حالة من الانتظار والإعياء المؤلم، علماً بأن تغيبها عني كثيراً ما كان يستغرق يوماً أو يومين من الزمن الطويل الطويل؟ وإن أنا تجرأت على طرح السؤال

فما كانت لتنبس في الأمر ببنت شفة بل كانت تطلي وجهها بمسحة من وجوم الأيام الحالكة ثم تأخذ في معاتبتي بعنف وشراسة، وعندها ـ تحت وصمة الذل والعار ـ كنت أعض وسادتي متسائلاً عما جعل الأمر ينتهي بي إلى هذا الحد من الإذلال المخزي. فأدرك إذاك أنني وقعت أسيراً في حبال هذه الممرضة التي كانت تكبرني بما ينيف على العشرين عاماً فأحار في أمري لا أعرف للانفلات من مخالبها سبيلاً. أما هي فقد كانت ترفل بأعلام ملابسها المزخرفة وقد كانت تراني مجهشاً في البكاء غارقاً في الدموع فتستغل فرصة ضعفي واندهاشي وإذا بصدرها ينتفخ بنهديه العامرين اللذين يكادان ينفرطان تحت بياض بذلتها المنشاة وعلى كونها كانت تناهز عمر أمي سناً فقد كانت تبدو دون سنها صغراً.

على أنني كنت واثقاً كل الثقة بما وقع على شاطىء البحر في يوم من الأيام بل كنت ملماً بالتفاصيل إلماماً. ولما كانت تأبى الاستماع من فمي إلى ما وقع إذاك (ناهيك عن الطبيب بيديه كأيادي الجزارين ونظاراته كنظارات الوجوه المتخنثة) الذي كان يتمالك نفسه فلا يتحرك له ساكن ولا يزعجه مزعج، وهي تركض مهرولة مما كان يدخلني في حالة من الانتظار والإعياء المؤلم علماً بأن تغيبها عني كثيراً ما كان يستغرق يوماً أو يومين طويلين كاملين. أما ماذا كانت تفعل يا تراها طيلة تغيبها هذا، فلست أدري فكنت أحاول ـ بكل هدوء ـ أن أقص على

نفسي تلك الواقعة مسترسلاً مغرقاً مترفاً مروحاً عن بالي ممتعاً جسمي بتلك العملية التقييمية. فكثيراً ما كانت تنتابني نوبة من الضحك وأنا أفكر فيما حدث على الشاطىء مقهقهاً لوحدي دون أن ينتبه إلي منتبه. إنها حادثة حقيقية قد وقعت لا محالة. فإني أنا لم أخترعها. إنها هنا تسرح في تلافيف ذاكرتي، أحتفظ بها وبالآلاف الآلاف من التفاصيل الدقيقة، وبإمكاني التحدث عنها بألف صفحة وصفحة. وكان يحدث من حين إلى آخر أنه كان ينتابني شيء من العجز عن التفوه بأي شيء عن الأمر إذ كان يتملكني التذبذب والإرباك تملكاً. بيد أنني كنت مدركاً كل الإدراك أنني كنت ضحية ما قد مورس علي من عنف: فلماذا أنا هنا؟ وبأي حق حشرت في هذه الغرفة البائسة الحقيرة؟ ولماذا سلمت هكذا أصطلي بنيران تلك المرأة الطاغية واستهزاءات سائر المرضى الجارحة المقذعة؟ أولئك الطفيليين المتمارضين؟ وأي ذنب هو ذنبي؟ وأي اتهامات نسبت إلي؟ في نهاية المطاف بعد مد وجزر طويلين؟ وما أن أصارح نادية بالموضوع حتى راحت تتلعثم وتتعثر ولا تجيب. فما كنت أكاد أطرح عليها مثل هذه الأسئلة حتى راحت تحاول إثارتي فتأخذ بفك أزرار أعلى زيها بمهارة وخفة فائقة، وما تلبث أن تتخذ مواقف خلاعية مستعرة فتشعل نار الشهية فيَّ اشتعالاً وتهز جسدي المرهق المعيي اهتزازاً. أقاوم ولكنني أعود القهقهرى فأنسى كل مطالبي وأهرع في عدوها، مسرعاً وراءها فأجد نفسي داخل

مقصورة ضيقة عفنة تنضح بروائح العقاقير الفاترة وتزدحم بالمكانس وشتى آلات التنظيف المكدسة ـ وهيهات أن يتسع المكان لجسمينا. ولا غرو فقد كانت حاذقة في الأمر ـ وقد حنكتها التجربة ـ تعرف كيف تفتح فخذيها بما فيه الكفاية جاثية على بلاط الأرض، متحذرة من الارتطام بجدران هذا المكان القذر المتقلص. ولا فائدة في الكلام عن غيظها وقد أصابتها نوبة من الابتهال فتعكف على تمزيق ثيابي، فأحس قبل أن ألجها بذلك السائل الرهيْب أخذ يتقاطر على فخذيها فيدبق أطرافي وما يحيط بنا من أشياء مما يميت فيّ الشهوة ويطفىء استعاري. فإذا هي تقبض على عصا من عصي المكانس وتزمهر ملء شدقيها مؤنبة تلوم قصوري وضعف فحولتي فتواصل تريلها ويكشكش ريقها فيما تمضيْ هي لاعنة شاتمة قاذفة. فأعمل أنا على الانتقام من هذه المرأة الشرسة الشاذة الغريبة تلك التي ما فتئت تصر أسنانها وتؤرجح ساقيها شبه الملتويتين فأنطلق في دهاليز استيهاماتي متصوراً إناثاً أخريات ممن سبق لي مضاجعتهن وصور فتيات عاريات في وضعهن الأباحي الخلاعي المثير مما يعيد لي قدرتي العضوية فألجها متوغلاً في أعماق فرجها الحميم.

كانت رائحة المني الحامزة تغريها كل الإغراء فيخيل إليها أنها تسبح في بحر من المتعة الجنونية (على أنها كانت في الحقيقة على حالها هي هي لا تتغير واهنة باردة لا تعرف للشبق ولا المتعة معنى) فتغالي وتبالغ وتتفاعل

وتطالب بالمزيد من الولوج والتوغل في قعر رحمها، متوسلة هامسة متضرعة: هل من مزيد؟ مزيد من النكاح مزيد من النكاح، في الأمام، في الخلف في الخلف وفي الأمام.. كانت تتمتم مشتعلة لا تتوقف عن الحراك والعراك في جو عابق خانق معتم وكنت أنا أحاول إقناع نفسي بأنها شبقة ومغرية رغم ما اعتراني من خوف تجاه هذا السائل الثخن المتهاطل من جرحها الأنثوي. أما عن نهديها فحدث ولا جرم، فما داما مخفيين تحت ملابسها فلم يكن هناك أي حرج قط أو خوف أو مضايقة بل كانا يظهران لي كتفاحتين فخمتين رائعتين فاخرتين وما أن تعريهما حتى أسقط في شبكة من الكوابيس والمخاوف. لقد كان هذا النهد أصغر من ذاك وكلما شاهدت هذا المشهد حرت في أمري لا أدري ما أفعل: أأستسلم إلى القلق؟ أم أسرح في الهذيان؟ أم أغرق في الضحك؟ فما أكاد أشاهد هذه الدمامة حتى أخالها سكرى تتهادى متمايلة في أزقة وشوارع إحدى المدن المكتظة ليس بالسيارات والمنازل والواجهات والمارة فحسب، بل وبالمكانس والخرق والعلب والعقاقير الصاقلة. فما العمل؟ وأي خرافة أخترع أمام هذه الكارثة وما انتابني من ذعر وقد كنت أخشى عليها أن تسقط إلى جانب النهد الأضخم على ما بذلت من محاولات لنجدتها والمسك بها من الجانب الآخر، وقد رحت أدلك النهد الأصغر تدليكاً، فبدا لي رخواً مزروقاً على دائرة الحلمة الناتئة. فكانت هي تسخر مني مؤكدة أني مبالغ في ما

تعانيه من تشويه، فلم يعد من مجال إذاك للتفوه قط وكدت إزاء هذا التفاؤل المتأصل الأعمى أقع في الإغشاء والغثيان؛ وإني لفي هذه الحال رحت أكتشف الأمور على ضوء النهار الفاتر المتسرب من طاقة المحرز حيث كانت هي الأخرى لا تنفك تتبرم على الأرض يمنة ويسرى وقد بت أحدق فيها النظر وهي في حالة مقززة (كفى! كف عن الكلام في الختان هذا. بل من الأفضل لك لو قطعوا لك كل جهازك بما فيه الخصيتين. ولِمَ يصلح زبك هذا المترهل؟ لا لشيء قط إلا لإزعاجك في مشيتك إذا أسرعت...). مسكينة هي تلك التي كانت تحلم بمعاودة تربيتي الجنسية.. فلا أبالي بل بقيت على حالي أطيل التحديق فيها بأعين ضائعة كاشفاً ما كان يشكل صدرها من تناقض هندسي في عتمة هذا الجو الضبابي القاتم.

وفي الحقيقة فما كنت أبالي بإزدرائها وتهكماتها خاصة وقد كنت على يقين من أنها كانت تشارك الآخرين في تآمرهم عليَّ وأنها تتجاهل مدى انهيار حالتي التناسلية. وما أن ارتدت ثيابها بعد هذه العملية التي دارت رحاها في الغرفة الضيقة فوضعت على رأسها تصفيفة الشعر المشيرة إلى كونها ممرضة أولى حتى راحت تتجاهل توسلاتي مبدية تنفرها مني. إنها طريقتها تلك التي اعتمدتها للانتقام من نوبات الضحك التي كانت تنتابني كلما رأيت هذا النهد أو ذاك يبرز من صدريتها فيما كانت تعمل على إظهار الواحد تلو الآخر بغية إخفاء تلك العاهة التي خصها الله بها حظاً

لها لاهوتية خالدة، حتى إذا ما أغرقت في الضحك لم تبدي أي توتر في الأعصاب من جراء ذلك بل باغتتني بإخراج نهديها الاثنين في حركة وميضية مما سبب اختناق الضحك في حلقي فيما أخذ الفزع يأخذ مني مأخذه فأبقى مسمراً في مكاني حائراً مذهولاً لا أعرف ما أفعل وفي أحضان أي هذيان أرتمي. ورغبة مني في إخفاء آلامي وأشجاني كنت أعمد من حين إلى آخر إلى تدحرجها على أرضية القاعة مهدداً إياها بخنقها أو ببتر أحد نهديها ـ الأصغر منهما ـ ذاك الذي أصبح يضنك حياتي ويساور أحلامي وخواطري فسرعان ما كانت تهاجرني تلك الرغبة، وتلك الرخوة الجوهرية المتأصلة في جسمي تخونني.

كان المستشفى في أسفل المدينة المتلألئة ليلاً والساطعة نهاراً وقد راحت آلاف الأضواء والمنارات الكهربائية ومصابيح السيارات تثقب فضاء قاعتنا الواجم المعتم حتى إذا ما أسدل الليل سدوله أشعل ذاك السراج الدائم الاشتعال ساكباً مسحته الزرقاء على وجوه النائمين وعلى أسرة المستلقين عليها على غرار المتوهين وكأنهم باتوا حول أحلامهم متكورين وفي وضعية الجنين الذي لم يغادر بعد بطن أمه عاكفين. كانت نادية مسؤولة عن حراستنا أثناء الليل تجوب الممرات ذهاباً وإياباً وهي دوماً على أهبة الاستعداد لمواجهة أي طارىء يطرأ وقد بالغت مغالية في القيام بدورها وقد كان خيراً لها لو استراحت قليلاً وكفت عن التجوال الخافت فلا نعود نسمع وطأ

أقدامها تطأ الأرض مطأطئة أو تقرعها مقرقعة. إنها عادة التهادي ليس إلا. وما يلبث القوم أن يناموا أو يتناوموا حتى تتسابق صور الشاطىء اللعين إلى أذهاني متدفقة تدفقاً ينتهي برأسي إلى حد الاكتظاظ. إذن لن تستمع نادية إلي حتى انتهائي من الحديث ولا الطبيب يستمع. صاحب النظارات الزرقاء بزجاجها الجذاب المجتذب أشعة الشمس بطريقة تكاد تكون مغناطيسية ساحرة سحرية وهي أعجز من أن تفسرها قواي المضنية المعيبة، الطبيب هذا هو أيضاً لن يستمع إلي. ولما أبيت إلا الكتابة فكنت إذا حل المساء كنت أنقلب إلى ناسخ شرس وكتباني شكس فما كان على الآخرين إلا أن يتقوا شر مزاجي فيتجنبوني... وكنت أملأ الأوراق تباعاً مستضيئاً بسراج القاعة الشحيح مستعيناً بعقب قلم عتيق كان أحد أصدقائي العصاميين قد أودعني إياه أحتفظ به له. كنت أحرر ليلياتي ليلاً الفينة بعد الفينة خلال دوريات الممرضات المتجولات متيقظاً وقد كنت قد جعلت من الحذر مبدأ من مبادىء الحياة المقدسة، لا يمس...

كان الشاطىء خالياً خاوياً صيفاً شتاءً يتوسطه ضريح أحد الأولياء الصالحين المطلية جدرانه بالجير الأبيض وعلى كون المرابط قد توفي منذ زمن طويل فإن روحه ما فتئت تحوم في هذا المكان تراوده. أما المنطقة فقد كانت تستند إلى غابة كثيفة من شجر الفلين والصنوبر فما كان أحد يتجرأ على التوغل في أعماقها لسبب واحد بسيط إذ

كان هناك شيخ أعرج وكأنه يمسحها مائة متر ولا يكف في جوله وتجواله من التشاجر مع ضيون كان قد شاخ هو الآخر مثله وكان الشيخ قد طعن في السن وأفسد مزاجه فاتخذ له من التذمر عادة وصار عليه مدمناً أبداً قاضياً وقته في ازدراد السافورات بنهم وشغب ولهفة يفتحها الواحدة تلو الأخرى مقدماً إحداها من حين إلى آخر إلى قطه المترقب المتربص مستعملاً في حلها مطواة صغيرة فيتذوقها بشهية تاركاً شاربه الأبيض الكثيف يتدلى على الأرض وقد ربط له صاحبه حول عنقه شريطاً أحمر قرمزياً. أما الرجل الأعرج هذا فقد كان يصب فيه نهر يفيض في الشتاء ويقحط في الصيف. وقد كنت أنا على يقين من أن مثل هذا المكان لا يلائم فتاة تنحدر من عائلة شريفة وهي تلميذة تنتسب إلى إحدى الثانويات الطيبة السمعة. إلا أن سامية أصرت على زيارة هذا المكان فما كان مني إلا أن نزلت عند رغبتها ظناً مني أنها سوف تجد الطبيعة كئيبة والزنجي صاحب القط الذي لا يفارقه مخيفاً. لقد كنت على علم دقيق بالشاطىء وبما فيه من قنافذ بحرية تطفو على المياه مع صخوره الناتئة ناطحة هندسة الفضاء وغاباته الكثيفة التي تغطي بكثافتها الأرجاء فيما لا تفتأ الجبال من خلفها تسبح بين طبقات الماء وشرائح الضباب. وكنت قد نبهت سامية إلى ما قد يحدق بنا من أخطار وخوارق وأنه لمكان لعين وأخطاره كثيرة لا تحصى متعدية كل ما يمكن

الإنسان تصوره وأنه من شأن كل هذا أن يؤول بها الأمر إلى الفتك بها وإيذائها. فلا أحد يجرؤ على الاستحمام هناك ما عدا بعض الصعاليك ذوي اللحى الكثة والمشبوه بهم وقد حولوه إلى عرين محصن لهم حين لا يتورعون من تعاطي الكحول فيها خفيةً وسراً وحيث تتيه زمرة من القطط البيضاء ذات اللون الشاحب الفاتح لفرط ما تتعفر بالوسخ تقضي أوقاتها واقفة بالمرصاد لتنقض على أدنى سفورة شريطة أن يكون هناك امرؤ من ذوي الصبر الطويل يقبل بفتح تلك القشيرات الشائكة.. وإلا بقيت الضواين على جوعها سيما وهي لا تنفك تتبختر على رمال الشاطئ شاهرة أشرطتها الحمراء من قماش الأطلس الصقيل وقد زاد في ذهول الدرن لونها.

وكنت أنت قد أجبت أن عهد سجنك قد طال ذاك الذي قضيته بين جدران منزل أبيك وجدران الثانوية حيث تعرفت إلى أستاذاً لك في الفلسفة وقد كان هذا الأستاذ يلقنك بلغة أجنبية عليه وعليك على السواء نظريات بعض الفلاسفة الشاذين مركزاً بنوع خاص على أحدهم ذاك الذي تجرع الشوكران وقد كان موضع كراهيتي وحقدي... فقد أفصحت عن أنه عيل صبرك ما بين سجن النهار وحبس الليل وأنك ما عدت تطيقين مواكبة تلك المرأة البدينة التي كانت تسهر عليك حارسة إياك لما اتسمت به من قبح وشراسة وسوء نية لا هم لها سوى إفشال ما كان يبذل

مئات المتغزلين المصطفين من هنا وهناك على حافة الطريق التي تسلكينها من مساعٍ للاقتراب منك وقد تآكلتهم الرغبة الشبقية أي تآكل. فكنت تكررين: «وما قيمة شبق أولئك العشاق إزاء شوقي وشهوتي؟» لقد كانوا يتمظهرون بفحولتهم ليس إلا. وكنت أثناء الدرس تعبي من كلماتي عباً بكل هدوء وتؤدة فيما كنت تعبثين بشعرك الأسود المسدل على أكتافك جارحاً شفرة شفتيك تارة أو تحاولين طوراً فرز ضفائره بمشقة شاقة. ومن فرط غنجك ولمعان عينيك الخضراوين كنت أتقزز كل التقزز وقد كنت مجبوراً على متابعة الدرس على ما كنت تزرعين في دربي من حواجز مغناطيسية. وقد كنت بشعرك الفحمي هذا الذي ما فتئت تداعبينه وبعينيك الكحلاوين المكحلتين بالكحل (وذلك في الخفية عن أبويك إذ شاهدتك وأنت تحاولين إزالة آثار الجريمة الشنعاء من على وجهك فتغسلينه في المنهل في وسط ساحة المدرسة وقد كانت الشمس في كبد السماء تسطع سطوعاً وقد كانت الأيام أيام رمضان فكنت قد توقفت فيه عن الصيام بعد ما استمعت إلى دروس الفلسفة التي دارت حول وجود الله أو عدم وجوده فأثرت فيك تلميحاتي كل التأثير) وبنهديك اللذين كثيراً ما كنت تبرزينهما متمطية تمطية خفيفة بدون ما حرج أو شفقة لعيني المسكينتين أنا الأستاذ البسيط الذي أصبح موضوع تهديد من قبل كبار التجار الشرسين الساطين على المدينة وقد أرغموا قهراً على إيداع تربية بناتهم في ذمتي قسراً.

وكنت قد أجبت آنذاك أنك في حاجة ماسة إلى كل الخوارق حتى تصبري في معاناة تلك الحياة الضيقة بين سجن الليل وحبس النهار. أما رغبتي أنا فقد كانت شديدة في الإقامة على ذلك الشاطىء الصغير برفقتك أنت، حيث تمكنت آخر الأمر من إرضاخ القط إلى إرادتي بحيلة مني فأصل فيما بعد إلى مداهنة الشيخ الزنجي الذي تضاعفت علته فصار يعرج أكثر فأكثر خاصة وقد كنت على علم بفعالية صمته وصعوبة تحطيمه. ولعلني كنت في واقع الأمر أرغب في قرارة نفسي في أن تكتشفي الشاطىء لا لشيء إلا لتكوني وسيلة ناجعة في حمل صياد القنافيذ البحرية على الكف عن صمته الرائع. ولولا شعرك الذي كنت تحاولين دوماً إزاحته من على فمك وعينيك، ولولا عيناك بلونهما العجيب (أخضراوين كانتا؟ أسنجابيتين؟) لولا نهداك الصاخبان وقد حلمت في إحدى الليالي أنهما رخوان، لولا هذا كله لكنت قد أقسمت ـ بدون اقتناع على كل حال ـ أنني لن آخذ بك إلى شاطىء البحر وفي مناي هدف فريد من نوعه غريب: بعث الإعجاب والتقدير في نفس الزنجي المسن عند رؤيته إياك فيبهره جمالك الفتان بحيث يكف فوراً عن مقاطعتي ويأخذ في التكلم إلي عوضاً عن أن يصر على مخاطبة قطه المدلل مستعيناً في ذلك بلغة لا أفهمها وصوت خافت لا أتوضحه، وقد لاحظت أن القط راح يقلد صاحبه وراح لشدة ما يدور ويصمت يعرج هو أيضاً على غرار صاحبه ما لم يكن خبث الحيوان

ودهاؤه هما اللذان يحملانه على الإزدراء بصاحبه بغية إخراجه عن صوابه.. وأنا أيضاً: لولا ذلك الشبق العرمرم الذي كنت أعانيه وأكنه لك حاملاً إياه حيثما أمضي وكيفما أتجه، أحمله إذا غادرت المدينة الرهيبة الخارقة المحترقة تحت سعير الشمس البرتقالية الصلبة، أحمله إذا هبطت فجأة إلى الشاطىء اللعين حيث تتراءى هناك في الوراء غابة أشجار الفلين ووراء الغابة ذاك الجبل الراضح المختفي اختفاءً أبدياً والملتحف بجلباب الضباب الكثيف المتكاثر ـ في القر أو في الحر على السواء ـ وهنا في الأمام هنا البحر (ذاك الفجر العارم الفاتن) البحر الأخضر ـ الأصفر ـ اللازردي فالسافورات المتشوكة فالزنجي الهرم فالقط المتملق المتظاهر بين الفينة والفينة بمسحة من الخجل والحياء حاملاً في عنقه ذلك الشريط الأحمر القذر يتوسطه زر نحاسي بشكل قلب؛ لعله كان من حظ زوجة ذاك الرجل الأسود، وقد كانت امرأة مخبولة ما كانت تغادر ما دامت حية هذا الضريح الذي ما كان زوجها يلجأ إليه للنوم قط إلا في الليالي العاصفة، لا لخوفه من الزوابع، بل ليهدىء من روع الضيون وهلعه وقد كان لا يطيق الرعد قط، بل يخشاه خشية؛ فما أن تلوح بوادر الشتاء والأيام الرديئة حتى راح يشهر مخالبه الغليظة.. أي نعم لولا شبقي هذا لفكرت ولما ترددت في ذلك لحظة مستعيناً بك بوسيلة حقيرة لأغراض هي أحقر من أن تكون مخجلة بل كانت صبيانية ليس إلا..

كان الشاطىء يحمل في وسطه ضريح الوالي الأبيض ذاك الذي ما عاد يقصده أحد قط، إذ كان من الأيسر زيارة مئات الأولياء الآخرين، أولئك الذين لاقوا حتفهم في تلك المدينة الكبيرة التي أصبحت الآن فريسة الضجيج وضوضاء سيارات الموظفين الكبار الفخمة. وكان العجوز يقضي أيامه في صيد قنافيذ البحر صيفاً شتاءً وقد كانت تتراكم أكواماً على سطح البحر تغلي كالدود غلياناً في تناسلها وازدحامها مئات الأمتار. وكان العرق يكسو وجه الزنجي سحابة الصيف فيما كان الرذاذ يبلله طوال الشتاء. وما كان لينبس ببنت شفة، ولم يكف عن صمته قط بل استمر فيه حتى بعد مجيئي برفقة سامية وكأنه أصر على ذلك نكاية وتعنتاً. ولم يتنازل الرجل والقط كلاهما عن موقفهما بل رفضا حتى التلميح إلى ما اعتراهما من دهشة ومضايقة. مما أثار استيائي، علماً بأن الحيلة التي لجأت إليها (اعتبار سامية طعماً جذاباً) لم تكن لتجدي نفعاً. فلم أجد إذاك سبيلاً فتركت نفسي وشأنها، تلاطمها الخرافات وتتقاذفها الأسراب مستسلماً إلى تلألؤ الشمس ولمعان المياه عساهما يقضيان على عقل عشيقتي الفتية فتتيه على وجهها وتهذي هذياناً بعد أن ظفرت بقلبها في يوم من الأيام الممطرة حيث راح المطر ينفح زجاج نوافذ الصف وقد كنت آنذاك عاكفاً على شرح موضوع الانتحار وأنا أدرى الناس بسخافة مثل هذه المواضيع في بلد ما زال فيه الفلاحون يعانون من قلة التغذية.. على أنها كانت تقول: «إن من كان مثلي

راضٍ إلى ما قدر له من حظ فمثله مثل من يمتص الحصي تخفيفاً من وطأة الجوع.. فماذا أفعل أنا خارج اختلافي من سجن أبي إلى حبس زوجي؟.. أليس هذا هو الاستسلام والرضى بعينه؟ إنه حل لا يحل شيئاً. لقد أصبحت المواجهة والمجابهة أمراً حتمياً يا أستاذ.. إلى متى أقبل بهذا الوضع الذي فرض علي فرضاً ولا ذنب لي سوى أنني امرأة وولدت أنثى؟..». كانت سامية تشعر بأن أباها إنما يحتقرها ويعمل كل ما بوسعه لإذلالها والحط من قيمتها، فراحت تتعاطف مع الفلاحين الفقراء متضامنة وإياهم وذلك منذ ذلك الوقت الذي أدركت فيه أن أباها يستغلهم استغلالاً مستخدماً إياهم في قطف البرتقال من الفجر إلى النجر. وهي على ذلك لا تستبعد من ذهنها فكرة الانتحار المثالي. لقد سقطت سامية في شراك حبي وقد كنت أحدثها ذات مساء مكفهر مهطل بصوت ملؤه العنف والحيوية عن الصقع ومصيره إلا أنها أبت إلا التمسك بفكرة الانتحار متعنتة. كنت أنظر بحذر إلى هذا الإقبال على الموت من قبل فتاة على هذا الجانب من الروعة لا تزال في ريعان العمر وعنفوان الشباب تطفح عافية وحناناً، وقد كانت النظريات والمفاهيم الفلسفية فيما يخصني قد أنهكتني فشخت قبل الأوان فبقيت هكذا في حال من الوجوم والسبات والبهتان لا يجد الإقبال على العمل والمبادرة إلي سبيلاً. كنت أخاف كل الخوف من العصبة وردود فعلها تلك التي كانت تنتمي إليها عن طريق أبيها،

فما كان منها إلا أن أغرقت في الضحك مقهقهة ساخرة من جبني. أسمعها تقول: «على فكرة.. الانتحار؟ ماذا تفعل بالانتحار؟» وكنت أراني في الحقيقة أمام تهجماتها هذه واجماً حائراً مرتبكاً. لكنني اعترفت لها بأنني كنت مسؤولاً عن هذا النزوع الطبيعي إلى الانتحار والموت وقد عثت فيها أنا هذا السم الفتاك ذاك الذي حدث أن مجده أمامي بعضهم أثناء قصوف دام أياماً وليالي رحنا خلالها نتعاطى المسكرات والمخدرات على اختلاف أنواعها من خمر وحشيش وكيف ورعراع.. فلم أتجرأ في بادىء الأمر على اصطحابي سامية إلى الشاطىء فأقبل على خلع ثيابها فتغطية نهديها وعانتها بالسافورات.. قالت لي يوماً: «أنت مجنون».. ولكنني ما كنت واثقاً من ذلك. ومن يدري؟ كان علي أن أسترق النظر المنافق المتنافق إلى الزغب المنتشر بين فخذيها.. ويلي ذلك افتراع البكارة وإزالتها؛ فيكون ذلك هنا، داخل الضريح المهجور، على ضوء شمعة ضئيلة ناعسة يرتعش ألقها الشاحب في ليل الساحل اللازردي، فيتراءى أثناء تلك العملية النكراء وجه الزنجي القاتم الملتصق على زجاج الطاقة الفريدة الوحيدة اليتيمة، ورأس القط الخنوع يتراءى أيضاً ملتوياً مطوقاً بجسمه اللين عنق سيده ومولاه، أراهما واجمين يتفرجان علي وأنا منهمك في شؤوني غارق بين فخذي سامية.. ها هو الزنجي يرقبني وقد بانت على سحنته سمات السأم والملل، ويرقبني القط وقد ارتسمت عليه علائم الاحترام والوقار

إزاء أمور غريبة لا عهد لهما بها. وإذا بالوجهين يختلطان بإزريراق الفضاء وقد فصل بأنماط وخيوط هندسية تتدحرج في قبة السماء المرقشة بآلاف النجوم وقد تراءت لي من هنا، من فوهة هذا المنور حيث تجلى فيه وجه الزجي وطلعة القط وهما يرمقان إلى تلك التمثيلية الشنعاء التي أسمتها سامية فيما بعد: «عملية تنفيذ الحكم بالإعدام».

لكنك كنت قد ألحيت كل الإلحاح. وكانت حكاية الشاطىء هذه قد تحولت إلى وسواس عارم. كنت قد ظننت آنذاك أنك ما كنت لتكوني بالمغامرة أو بالشجاعة بل كنت تغارين من النساء الأخريات. تغارين وكنت تحبينني وتحسبينني قادراً على اصطحاب امرأة أجنبية معي في سيارتي، امرأة من تلك اللائي فقدن بكارتهن من زمان ولم يعدن يخشين أي شيء إذا أصبح لهن الآن أزواج وأطفال؛ وحتى أحد القساوسة المتواضع الخجول يعترفن له عن أسرارهن ويقررن بذنوبهن التي اقترفت مع أمثالي من الصعاليك، وقد كن على علم بأنهم من فصيلة الملحدين لا دين لهم يدينون به ولا ملة ينتسبون إليها. كنت متيقنة أنت كل اليقين على أنني كنت قادراً على إقامة مثل هذه العلاقات إذ رأيتني ذات يوم برفقة سيدة جميلة ملمة بالفلسفة إلماماً وقد كانت تدرسها بصورة ديماغوجية لا لشغفها بها بل للتمكن من شراء عمارة في نواحي مدينة نيس من شأنها أن تدفق عليها أرباحاً باهظة تؤمن لها شيخوختها. كانت الغيرة تفتك بك لأن زوج هذه الزميلة لم

يفرض عليها حراسة مشددة يضطلع بمسؤوليتها شرطي سري من النمط المحلي (يحاول تعلم الطريقة الأمريكية في التكلم وفي يده مرآة صغيرة لا تفارقه قط ويتدرب على مضغ علكة مستوردة من الولايات المتحدة على غرار ما يفعل المخبرون الخاصون في ذلك البلد الأمين..) فيما كنت أنت ترددين النغمة نفسها وتشتكين من حراسة العجوز الشمطاء التي كانت تصطحبك كالخيال أينما ذهبت وحيثما قصدت وقد كانت لك بمثابة أم ترأف عليك أو بالأحرى كانت أمك بالرضاعة ذلك أنها أرضعتك فترة من الزمن يوم مرضت أمك فيبس ثديها وشح لبنها. وما كنت أطيق تلك الطريقة التي كنت تسلكينها في سرد الأحداث وحكاية الخرافات المعقدة، ورغبة مني في بعث الشكوك والتذبذب فيك رحت أخوض بدوري غياهب المبالغة والتناقضات فأصرح لك أن حكاية الشاطىء إنما هي ملفقة لا أساس لها البتة، وأنه لا أثر هناك لا للزنجي المسن والقط الأبيض المرن والقنافذ البحرية والقراءات والدراسات الماركسية وقد سبق أن زعمت أنني كنت أقرأ لك من كتاب الله ما تيسر ومن كتاب رأس المال ما توافر فيما كنت جالساً على صخرة مصقولة وقد راحت الشمس تلتهم بشرتي وتبرنزها فأتمتع بصفاء الجو وقد شقت السكينة والرضى إلي سبيلاً فتوغلا فيّ ظناً مني أن الثورة لما يحن أوانها بعد وأنه ما بقي عليّ إلا أن أتربص اندلاعها مترقباً إياها.

ما كنت لأرحم سامية أو أشفق عليها يوم أخذت أقص

عليها تفاصيل حفل الختانة إلى أن انتهى بها الأمر إلى أنها راحت تراسلني في الخفية وتضع مكاتيبها بين صفحات الوظائف تلك التي كانت تحررها في شتى مواضيع الفلسفة، تمزج بين الأشياء والأشياء وتخلط الأشخاص فيما بينهم فتحسب الحلاق الجالس على الصوفة البنفسجية ليس هو إلا ذاك الزنجي المسن، وأن هذا الآخر هو سي الأخضر مدرس القرآن والمشرف على جحافل التلامذة المتمردين ذوي الأخلاق السيئة، أولئك الذين خولتهم أنفسهم أن يبثوا الفوضى ويتقاذفوا الفحشاء وذلك في حفلات التختين المباركة. لقد كنت قد مثلت أمامها تمثيلية حفل الختان وقمت بدوري كما يجب، وحدث أن سامية على عكس نادية تلك الممرضة الهاجنة قد صدقتني للوهلة الأولى فراحت تقول: «إننا لمحظوظات نحن نساء هذا البلد السعيد الذي ما عتم أن خرج منذ فترة قصيرة من حرب السبع سنوات، لقد وقينا من عادة بتر البظر الرائجة في بعض البلدان المجاورة... يا للحظ الكبير...» فما أجبت عليها يومذاك بل اخترت تجنب الحديث عن رواج تلك العادة في بعض القبائل من البدو الرحل، أولئك الذين يعيشون في الجهات الرملية من الصقع العزيز. كانت سامية تعيش بعيداً عن تلك المنطقة النائية البعيدة كل البعد عن مسقط رأسها ولما يكن لها ما تقوم به هناك... وعندها كانت تزيد من عندياتها وتزيد وتغالي قائلة لمن يريد الاستماع إليها: «نحن معشر النساء يكفينا فض البكارة».

لماذا شفقت علي عندما رويت عليها ـ بصورة متقطعة ـ وكان النوم قد بدأ يضغط على جفنيها فتحاول السيطرة على عينيها لتبقيا مفتوحتين، رويت عليها تلك الحادثة التي اختبرتها ولما كنت أتجاوز سن الطفولة... صدقتني سامية في حين لم تشاطرها نادية ذلك التصديق وقد أبت إلا أن ترفض جملة وتفصيلاً كل ما يمت بصلة إلى طفولتي كما أنها أبت أن تصدقني فيما يتعلق بوجود سامية تلك التلميذة التي أغريتها رغم مخاوفي من عصبة ملاكي أشجار البرتقال الأثرياء. هل كانت نادية تنفي أيضاً للزنجي المسن صاحب القط الأبيض كل وجود؟ طبعاً... كانت ترفض كل ما أقوله بطريقة عشوائية لا تبدي أي شفقة على ذاكرتي المسكينة التي كنت من حين إلى آخر أفقدها فلا أسترجعها إلا في مشقة شاقة. ولما كانت ناديو ترفض قصة حياتي وترفض حتى الاستماع إلي فما كان مني إلا أن رحت أقص عليها تلك الحوادث على نفسي أستمع إليها لوحدي. وما ألبث أن أسند ظهري إلى الوسادة متربعاً على فراشي متظاهراً بالتحديق في الجدار الأبيض حتى أطلق العنان لشريط الذكريات المتلاحقة على بكرة الحياة. هل كان لي القابلية لتجميل الأشياء وجعل نفسي محوراً أساسياً لتلاحق الأحداث والاهتمام بكل ما يشبه المفارقات من قريب أو من بعيد؟ أي نعم. وما حيلتي وفي مخيلتي مثل هذه الأبهة الجامحة؟ تمر الصور كالإسفنجة في طيات مخي فتمسح كل رواسب الجنون فيه وما أن يتصاعد هذياني حتى كانت

القاعة تهتز في تموج وارتجاج صاخبين، فأكون إذاك فرجة يتفرج عليَّ زملائي فيتسلون... ومما لا شك فيه أن قصة علاقتي مع سامية كانت صحيحة واقعية لا يشوبها شائب قط.

كنت قد أتيت بها إلى الشاطىء وقدمتها لصياد السافورات فبدا وكأنه يهتف مزدرياً. هادئاً. أما القطة فكانت تتهادى الهوينا في ذهاب وإياب متواصلين في مؤخر الجون وهي بالمرصاد لأية خشاشة يلفظها البحر. وكنت قد تمكنت من الإتيان بسامية إلى هذا المكان النائي بعد ألف حيلة وحيلة. أما المرضعة فقد كانت على جهل تام بالأمر. وقد عرفت سامية كيف تقنعها بتوسلاتها الملحة فاستحصلت على موافقة حارستها العجوز التي راحت تغض الطرف عما تقوم به سامية متساهلة متجاهلة. وما عادت عينا الفتاة تلمعان مثلما كانتا تفعلان ونحن في طريقنا إلى الشاطىء المنفرد المنعزل، وما أن وصلنا حتى رحت أعريها إرباً إرباً، قطعة قطعة فما ألبث أن أتسلق إلى أعلى درجات العشق والغرام حتى تسربت إلى خيوط السراب الذي كان قد استولى على مخيلة الزنجي العجوز إلى أن انتهى بي الأمر إلى أن وضعت سفورة بنفسجية على فرج الفتاة بيد أنني سرعان ما اكتشفت أن العلاقة أو المقارنة بينهما لم تكن فقط سخيفة بل كانت تافهة تافهة للغاية... أما هي (سامية) المقشعرة برداً... كانت تلقي الأنظار نحوي وهي واعية كل الوعي إلى موقفها المخجل هذا وما لبثت أن

فهمت أن الأمر لا يتعدى ربح الوقت قبل أن يصار إلى فض بكارتها (أو تنفيذ الحكم بالإعدام فيها) سمعتها تتمتم تمتمات غامضة. . . ما تقول؟ أما الكلمات فهي أصعب من أن أحتفظ بها داخل الضبابية المسيطرة على ذاكرتي المرهقة. وها هو ذا قد آن الأوان. فالتلاعب بالسفورة أصبح مملاً للغاية وكان البرد قد تأصل في جسم سامية فجرت على بشرتها الرمطاء قشعريرة زاحفة، فقررت نقلها إلى داخل الضريح. هناك، سال الدم. شيء تافه، عادي جداً. بين رائحة الشمع المحترق وسهوكة بول القط الماكر، قطعت الخيط الذي كان يربطها بعصبة أسلافها. قاطعاً في الوقت نفسه وفي آن واحد ما كان يربطها بعصبة أسلافها. قاطعاً في الوقت نفسه وفي آن واحد ما كان يربطها بالشرف والشرفية. فاتسمت سحنتها بسمة اللون الأدكن. وما كان من الزنجي إلا أن مكث هناك محدقاً وقد ألصق وجهه على زجاج الطاقة فيما بقي القط قابعاً على عنق سيده في التواءة مطاطية غريبة حاملاً في عينيه نوعاً من الازدراء والتعالي وكأنه يتفرس في الوقت نفسه في وجه الزنجي ذي الشفاه الهدلاء. أما سامية فما كان يهمها أي شيء من ذلك قط بل راحت تطلق قامتها، مفتوحة، فاغرة، فيما راح نهداها يملآن الضريح وقد بديا سمكتين سابحتين في فضاء الحجرة الضيقة ينساقان انسياقاً ذات اليمين وذات اليسار على خط استواء جسدها الرائع. وما كان الزنجي ليغير موضعه بل بقي هكذا مسمراً مكانه برباطة

جأش وعناد متجلياً وراء الزجاج وقد راح هدير البحر يطوق الضريح من كل جانب فلا هو يشعر به ولا برائحة السلور الحي الممزوجة بسهوكة بول القط الأبيض الذي أبى إلا أن يتغذى من قنافذ البحر. وكانت سامية إذ هي فقدت بكارتها إلى الأبد كانت تبالغ وتغالي في إبداء فرحها وزهوها فيما بقيت أنا ماكثاً فوقها تساورني الخواطر المفجعة مشتت العقل مخبولاً وكان عقلي قد اختل وفقد توازنه منذ فاجعة حفل الختان وما شاهدت من تصرفات الطهار المتوحشة... ممتقع أنا... وراح الوسواس يساور رأسي بوسوساته السماقة رازحاً تحت وطأة الشعور بالذنب باقتراف جريمة نكراء وإثمة ثخنة شنعاء وإذا بسامية تسترسل في الثناء شاكرة مشيدة معربة عن اغتباطها وعرفانها بالجميل بلهجة هيفاء. وكان البرد القارس والحمى المستعرة يتآكلان جسمي الشاحب وقد بلله عرق جليدي مرقط لم تتمكن رياح البحر من تجفيفه. وإذا بسامية تعيد الكرة من جديد فتئن أنيناً وتضرص تضريصاً عاكفة على إلواء ضفائر شعرها الفحمي حول عنقي هازئة مني ومن جبني إزاء هذا الشيء القرمزي السائل، إزاء الدم العابق معربة عما يعتريها من سعادة ذهبت بها إلى أقصى ما تستطيع الذهاب إليه، كيف لا وقد قطعت صلة الرحم التي كانت تربطها بأبيها هذا الإقطاعي المستغل القاسي الذي وصمت هي جبينه إلى ما لا نهاية بوصمة الفضيحة والعار. وها هي تضحك بملء فيها. وتغرق في الضحك هي التي كانت تشك كل التشكك

مني ومن مقدرتي على الأخذ بزمام الأمور والاضطلاع بالمبادرة، هي التي كانت تعلم علم اليقين كم كنت غارقاً في متاهات الخواطر والشذوذ مندبقاً في أوحال مفارقات شخصيتي الغريبة (راحت تقول: وكيف يمكن التوفيق يا ترى بين الانتحار والثورة؟ كلام بكلام كل هذا. لغو بلغو كل هذا. ولم أكن أرغب في الإجابة عن أسئلتها وتساؤلاتها. هل هناك من تفاهة أخرى؟ ما العلاقة بين قطع الصلة مع أبيها وهذا الثقب الذي يسيل منه هذا الدم ذو اللون الفاتر الفاتح؟) ونحن لفي ذلك بدا الزنجي في الخارج وكأنه متسمر في مكانه لا حراك له جاحظ العينين جامداً كالمومياء. وما كنت لأتوقع بأن رجلاً كهذا سيتصرف كما يتصرف على هذا المنوال الطفيلي مما حدا بسامية أن تؤكد مصرة على أنه مجنون (مهبول! مهبول!).

وهاأنذا الآن أضطلع بمسؤولية صاحب القلم. فأشعر وأنا أكتب لا أتوقف مخربشاً على مئات الصفحات والأوراق آناء الليل وأطراف النهار، أشعر بعقدة الذنب تتسرب في أحشائي وإذا بي أغوص من جديد في عالم الذكريات فتؤدي بي كالمعتاد إلى ذلك الضريح المنعزل الجاثي على شاطىء البحر المطلية جدرانه الخارجية بالجير والمهملة حيطانه الداخلية كل الإهمال المتآكلة القذرة الملوثة فأمضي على جناح الذاكرة وأتيه في تلافيفها الحلزونية وأحس وكأنني أذبح ديكاً متغطرساً فحلاً. فينغلق الزمن عليّ بطوقه الحديدي فأقوم بدوز الكاتب المسعور

فيسيل السم من سيالتي وتتدفق الكلمات من تدفقاتي وتزدحم على القرطاس ازدحاماً في محاولة فاشلة وهمية لتكسير هذا الطوق، طوق الزمن الفولاذي. وفيما أنا أكتب مكباً على التحرير والخربشة يأخذ جسمي في الارتعاش تحت تأثير النشوة والوجد. وهيهات أن يخفف الوجد من غزارة الهذيان المتفاقم المتهول المتضاخم. حتى إذا ما انقضى الليل وتصاعد الفجر الحليبي وعيت إلى شخير المرضى وتنفس المحتضرين المتحجرجة الأخيرة فتنطبع فيّ فلا تفارقني وقد نحتت نحتاً على خامية ذاكرتي التي كادت أن تذهب بها وتفلتها من جسمي الهزيل النحيل بعد أن نال المرض منه مناله. وإذا بي أترك لحيتي تنمو وتتكثف ومزاجي يتعكر وأطباعي تفسد؛ وإذا بي أزمجر معتلياً فراشي زمجرة حذرة لا مبالغة فيها (إنه القميص الجبري). فأحاول إقناع نادية بدون ما جدوى. فأقرر إذاك الكف عن التوسل وإفشاء الأسرار بصورة نهائية. لعل الكتابة تمكننا من وضع حد لمناوشتنا ومعركتنا على ما أنا عليه من يقين أنها تحمل بين ضلوعها فنوناً من المكر والسرية صاخبة تعجز عن التخلص منها تخلصاً والانعتاق منها انعتاقاً. لا فائدة إذن من إثارة وإيقاظ شبقها الفاجر. فلم يعد لي إلا هم واحد يتلخص في تجنبها وتقوية عزيمتي بحيث يمكنني الصمود في وجه مراوغاتها وتملقها فيصبح ذلك شغلي الشاغل وديني وديدني. وإلا ذهبت ضحية نعومة لحمتها وتأجج فرجها وفخامة صدرها. وفقدت ما تبقى لي من

بصيص في الوعي. فإنني إذا ما تركت نفسي تهوي في مصيدة الشهوة وهوة الهوى قضي علي لا محالة ذاهباً ضحية جسدها المتورم الثلجي حتى إذا ما راحت تنزع ثيابها وجدت نفسي وجهاً لوجه ونهديها الرهيبين وتواريت عن الحياة خوفاً وذعراً. لا لن يكون هذا. ستكون الكتابة مأوى آوي إليه وملجأ ألجأ له. وما أن أبلغ من تسجيل ذكرياتي وأشجاني وآلامي مآلي تلك التي لن تلفت أنظار أحد أياً من كان حتى أكون قد صنفت ما يزيد عن ألف كتاب وكتاب (ملاحظة: الرجاء كتابة الأحداث التي دارت رحاها غداة فض البكارة: بكارة سامية. الرجاء كتابتها حبراً على ورق).

وها هو الزنجي الهرم يغيب ولم يترك أثراً لوجوده إلا بعضاً منها، وهي تلك الآثار التي رسمتها خطواته على الرمل في اتجاه الكثبان هناك ما بين البحر والغابة. ولم يخلف وراءه سوى قطه الأبيض المشؤوم ذاك الذي ما فتئ يقف بالمرصاد يترقب بعض الدويبات التي يلفظها البحر من حين إلى آخر بسخاء ورتابة. غاب الزنجي فأصبح الشاطىء ملكاً لنا دون سوانا. هاجر الرجل الأسود وكأن الخجل قد استولى عليه بعد أن شاهد ما شاهد فلم يتحمل عبأه (ذهول؟ اشمئزاز؟) غاب ليحاور نفسه كما اعتاد عليه (الحوار الداخلي) وكما اعتاد عليه القط الخبيث هو وحده دون سواه. أصبح الشاطىء إذن ملكنا الخاص بنا فزاد لمعاناً وتلألؤاً يبهرنا إبهاراً حتى الهلوسة. كان النهار ينبىء

بطقس رائع وحار. لكن بياض الحوض وغمرة الرمال ومرارة المذاق ووسواس الدم وزهو العشيقة المفرط ذاك الذي اختلسته من قبيلتها المثرية الغنية ذات النفوذ الأكبر والمتشعبة خيوطه إلى أوساط التجار الكبار والضباط المهيمنين على القفار، كل هذا كان يسبب لي صداعاً أليماً يكاد يهشم رأسي تهشيماً ويفتته تفتيتاً. ها هو الغثيان يهددني والشعور بالذنب يلاحقني بلا هوادة فيخيل إلي بين الفينة والفينة أنني اقترفت ذنباً أثيماً. وما يلبث الغياب أن يسدل علينا حتى أجدني في حالة وجوم وجمود. فيما تسترتسل سامية بالحديث فلا تكف عن الكلام والبربرة، تتحدث عن حتمية الفرار إلى بلد مجاور اتقاء ورطة العصبة اللئيمة ونقمتها التي راحت تسير في عدونا تلاحقنا وتبحث عنها، عن المرأة المغرية التي سقت بدم عذريتها أديم التربة الغزيرة المتراصة مستغلة فقدان البلاد شيئاً من يقظتها في غمرة الاستقلال ونشوة التحرر وكان قد آوانا في تلك الأيام رجل أسود البشرة، أشعث الشعر، أمرد الخدين ما خلا ما زرع فيهما من شعيرات بيضاء هنا وهناك بدون ما تنسيق وانتظام. فكان قد استضافنا هو أحسن ضيافة. (كانت نادية تستمع إلى هذياني وثرثرتي مصغية ساعات وساعات طوالاً فتقول: «كفاية، كف عن كل هذه الخرافات والإدعاءات. كل ما تقوله إن هو إلا ضرب من الاختراع فحسب... فإن أنت ما خفت من الدم فلسبب بسيط ألا وهو أن ذلك لم يحدث قط. كما أنك لم تر ولا سفورة واحدة ولا

سلطعوناً واحداً فتذهب مدعياً أنك وضعته على فرج تلك القحبة وما هذا كله سوى ثمرة تخيلاتك وتخرصات خيالك المريض. خليك يا راجل. ما تلعبها معاي أنا... كفاية. براكة. عييت من هاذ التلميذة الخيالية. يزيني من الفلسفة والسفسطة والتمنطق... ما حصل والوا... لا شيء يا رجل... وبالخصوص ارحمني وكف عن الكتابة الملعونة... تخربيش لا أكثر».

هل كانت تجرؤ على نفي وجود الزنجي الشيخ وقطه الأبيض؟ لقد كانت الممرضة إزاء هذا السؤال تقف مترددة تتلعثم فأسرع إذاك وأباغتها بأمور أخرى رغبة مني في إخضاعها ودفعها في متاهات جنوني وخواطر هواجسي حتى إذا ما ذهبت في ذلك شوطاً بعيداً عطفت علي وغيرت تفكيرها في قبل أن يبادر الفجر إلى غزو القاعة فيزرع الهلع والفزع في صفوف رفاقي وإخواني المرضى الآخرين وقد وتدتهم الظروف بين كابوس وغشاء، مستلقين على الأسرة راقدين وعلى أنفسهم ملتوين متجمعين منطوين وكأن الخوف قضم وجوههم والنشوة صقلت بشرتهم وحفتها بمس الجنون وفقدان الصواب والتّوغل في المجون. وما أن يستيقظوا حتى تأخذهم الريبة والتوغل في المجون، فلا يعودون يعلمون كيف يتصرفون وكيف يومهم يبدأون: هل هناك من صلاة لاستقبال الفجر الحليبي؟ هل من تقشيط للجلد للتخفيف من الأكلان الذي يهري الجمجمة؟ أسرع، أضطرب وأعيد الكرة مغتنماً هذه الفرصة الرائعة (تذبذب

نادية وترددها) للانتصار عليها وجعلها تستسلم إلى الأمر الحاسم: ألم تتوقف مشدوهة، حائرة برهة من الزمن غير متجرئة على معارضتي في قضية وجود أو عدم حقيقة وجود الزنجي المسن وقطه الأبيض؟ وإذا بي أضيف، (أو كتبت على دفتري ليتسنى لي رواية الأحداث على زملائي عند استيقاظهم من نومهم) أضيف أن الصياد الأسود رجع بغتة بعد غياب دام بضعة أيام وعندها تدهورت أموري وراحت تتفاقم حتى خشيت من أن يتفجر رأسي لكثرة ما استقر فيه من ارتجاج زلزالي. وفيما كان الذهول يشحب وجهي أحسست وكأنني قد فقدت البصر وتحولت إلى رجل متسرنماً رافعاً يديه في اتجاه وجه سامية التي راحت تسهب في الكلام بغزارة وعصبية فيخيل إلي أن الكلمات عوضاً عن أن تخرج من فيها كانت تدفعها سامية في فيها فيغص حلقها وتشهق. وعندها تدرك أي وضعية هي وضعيتها فيأخذها الهلع ويتأصل فيها الوعي فجأة وتتكشف مدى الكارثة التي أصابتها. ولكنها سرعان ما يتوغل التطاير فيها فيحملها على بذل ما بوسعها محاولة ردع اللامة النحسة عنها فتتفوه بما يناقض ما تفكر به. وهكذا ـ من خلال استرخائي وسوء نيتي ـ أدركت إدراكاً مبهماً ضبابياً أنها ما زالت في الحقيقة تعيش في جو من النشوة التي اختبرتها للمرة الأولى يوم قطعت الحبل الموصل بينها وبين قبيلتها تلك التي وهبتها سجنين اثنين: حبس الليل وحبس النهار علاوة على تلك المرأة الشمطاء الصماء التي لا شغل لها

سوى اصطحابها ليلاً نهاراً. عاد الزنجي إذن حاملاً على كتفيه عنزة هزيلة سوداء اللون لعله سرقها لأحد الرعاة في الجبل هناك من وراء الشاطىء والكثبان والغاب، هناك من وراء السكة الحديدية المهجورة التي ما عادت تصلح منذ سنوات خلت للاستعمال أي منذ ـ لكنني كيف عرفت ذلك؟ ـ إغلاق المحجر الذي استنفذ منه رمله وأهمل على حاله كثدي امرأة عجوز جف حليبها وفرغ دمها.

وصل صاحب القط وإذا به يقبل إلينا ويتقدم حتى كاد أن يلتصق بنا والعرق يتصبب من وجهه مدراراً حاملاً عنزة متدلية على كتفيه وملتوية التواء الحية المرقاة، تفوح من فيه رائحة كريهة (هل شرب نبيذاً؟ ومن أين للإنسان أن يجد الخمر في مثل هذه البوع الخالية؟) وما برح مداوماً على الصمت المبرم وما كان منه إلا أن ألقى الماعز على الرمل برفق وهدوء فائقين وعكف يتهيأ إلى نحرها بعد ما عمل على ربط أرجلها الأربع اثنتين اثنتين. وبقيت سامية ساكتة صامتة لا تفوه بكلمة قط. أما أنا فقد خيل إلي أنه قد أصابني ضرب من الرعن. كان ثغاء الحيوان رهيباً وقد ضخم الصمت المتسلط على هذه الناحية النائية صداه فيما كان القط جاثياً على مؤخرته ينظر بهدوء بالغ إلى مولاه، شبه مبهور، يرمق إلى الصياد الأسود يضع رجله الحافية على جسم الحيوان الرهيف وهو على الأرض مستلقٍ يترقب ولوج المدية في حنجرته الحريرية. وما أن انسابت الشفرة

حتى نضح الدم وإن لم يفتح الشيخ جرحاً عميقاً رغبة منه في جمع الدم الذي راح يتدفق من الجرح الآخذ بالإزريراق شيئاً فشيئاً. وإذا بالماعز يأخذ فجأة في النط والتقلب إتقاء الموت المحتم مما أحدث دفاقاً صغيراً راح لونه يستحيل من الأحمر إلى البرتقالي تحت أشعة الشمس. أما الزنجي فما كان يعبأ بحركات العنزة وهي تتخبط في دمها مبعثرةً إياه من كل جانب بل عمد إلى تجميع هذا الدم في مطرة محترمة مصدأة قد تآكل البحر ميناءها. والآن وقد هفتت حركات العنزة وما عادت تضرب الأرض برجليها الرهيفتين ضربات عشوائية ولا ترش بدمها كل ما من حولها (الحجارة، القشور، الصدفيات، القطع من الخشب المنخور، الحصى الملساء بألوانها المتنوعة: بيضاء، بنية، زرقاء..) عندها اقترب الضيون من الجثة وأخذ يلحس الدم النازف من الشجة المزروقة. كان منخارا الضحية قد امتلأا رعاماً ودماً وعيناها جحظتا واخضوضرتا وانقلبتا تقلباً، وارتسمت حول البؤبؤين دائرة بنية. وما كان الرجل المنعزل يهتم بشيء إلا بقربته الحديدية وإذا به يقترب بغتة من سامية التي ما فاتها من المشهد شيء ويرشها بالدم الذي بدأ بالتخثر. وللمرة الأولى سمعته ينطق بلغة فهمتها. وإذا بي أدخل في عالم المناجاة والاختبال. إنه الرعن قد صرعني. وإن لم يرغمني أحد على مشاهدة ما شاهدته فقد أبيت إلا مشاهدته. وها هي آلاف الشموس تلج إلى جمجمتي ببطء

وأبهة هائلين. ها هي قطعة الشمس الإهليلجية تضمر وجهي إضماراً وقد التهمتني الحمى التهاماً. ها هي سامية تسرع نحو البحر مهرولة. ها هو الزنجي يهتف قائلاً: «اذهبي الآن واغسلي وجهك فإنك لم تفقدي شيئاً إذ عوض الدم الدم..» هل منع الزنجي قطه من التحاس الدم قبل تقيوئه صفراء وردية اللون حمراء؟ هل غرقت سامية عند غوصها في البحر فابتلعها اليم؟ ماذا أقول الآن؟ أنا الكتباني الذي أبى أن يكف أو يعكف عن الكتابة؟ ها إني الآن لاهث أملأ الورق مداداً فيما راح الليل حولي يندثر وراح رجلان مروبصان يقبل الواحد منهما الآخر قبلات مثيرة إباحية حارة. لم أعد أتذكر شيئاً مما وقع في الخليج فقد كان رأسي قد تحول إلى برتقالة متطاولة حمراء مشحونة صفيراً وزفيراً. وإذا بالممرضة تعود لتضايقني من جديد وملاحقتي بوابل من الأسئلة المزعجة طيلة ساعات طوال مصرة أكثر من ذي قبل على عدم قبول شروحاتي ورواياتي. (أسمعها تقول: كف، إنك تضجرنا بخرافاتك بمزايداتك التي لا أساس لها البتة. قل، اعترف أنك مخترع هذه القصة.. وهذيك الطفلة بنت الحسب والنسب اللي عشقت فيك واعطاتك طيزها.. يكفينا.. براكة علينا.. أما عن تلاميذ الكتاب الذين يتسفهون يوم حفل ختانك عوض الترهات وخزعبلات جنونية. من المستحيلات يا خوية.. اختراعات.. وخرافة نفس هؤلاء التلاميذ الذين يحذفون

مقاطع كاملة من الآيات البينات ويختصرون فيها، إنما أسطورة الأولين.. بدعة! أنت من سلالة الشاذين، لا دين لا ملة.. مهلاً يا خوية.. أما عن الختان الذي يتردد على دور البغاء ويشكو من صداع مزمن في رأسه فلا أساس له من الصحة. أنت بهلواني يا رجل ومهرج في مسرح القرقوز..).

وما القول عن حفل التختين؟ تصور لكوكبة متراصة بالألوان والأصوات عابقة بصراخ تلاميذ الكتاب وزعقاتهم تلك التي هي أقرب ما تكون إلى صفائح فولاذية تصدع بحدتها جمجمة المشرف على مراسيم الحفل وقد التحف بوقار برنسه الصوفي الخام البني اللون وقد حذق في الرمي بأطرافه إلى الوراء بخفة ومهارة بالغتين وكأنه لا بادياً وكأنه يسبح بجسمه الهزيل بين طياته الفضفاضة، ويحدث أنه يعطس بين الفينة والفينة عطسات تسدي عليه سمات الملائكة قبح الله وجهه! وقد تكرم الله عليه بسحنة خبيثة قذرة. وهو لم يكن ليجلب إليه الأنظار رغم ما كان عليه من يدين طويلتين خفيفتين ناصعتي البياض تحلقان من حين إلى حين في الهواء فتخرقه بعنجهية وخفة، ورغم ما اتشح به من وقار وتقشف، وقار الناسك الزاهد تقشفه، وإذا به ينبهر بطيران ذبابة من الذباب الطائش فيتمتع بالتواءاتها وتعرجاتها البهلوانية ويعوم في بحر من الكآبة والبؤس

المرّين. الحق يقال إنَّ السيد الختان الوقور لا يشبه حفار القبور، لا ولا غاسلة الأموات في الديجور. ورغم ما تميز به من أصابع مشبعة بالفرمول وأظافر مقصوصة حسب الأصول ومطهرة بالكحول باستثناء واحد منها لم يقلّمه على طريقة التسعة الأخرى التي قلمت إلى حد اللحم الحي المحمر المستدير. لا لم يكن ليجلب الأنظار رغم طول قامته وهزالة جسمه وكأنه يخشى عليه مما قد يؤذيه وكلما عمد إلى الجلوس أو النهوض فعل ذلك باحتياطات متعددة مملة اتقاء مما قد يلم به من ملمات. لا لم يكن ليجلب الأنظار رغم رأسه الصغير وجفنيه المنتفخين وشاربه ذي كثافة متباينة على الجانبين مما يضفي عليه ملامح أحد البهلوانيين المسالمين. لا لم يكن ليجلب الأنظار رغم خده الأيمن الأرقط والأكثر إرقاطاً من الأيسر الذي تفوق على الأيمن حروشة وزرقة. على أنه التزم التحذر من القيام لحد الآن بأي حركة بل بدا وكأنه في خلوة عميقة مع ذاته ملتوياً على نفسه وقد بدا شاحب اللون جالساً بحذر وتحفظ على صفة بنفسجية يزيد بريقها في اصفرار وجهه وكأنه طلي بطلاء أبيض بياض الطحين حيث ينطلق الأنف من وسط الجبين الناشز بحثاً عن الشفتين الرقيقتين الملتصقتين الرقيقتين رقة ورق لف السجاير. ويبقى هكذا جالساً خامداً يكاد يختنق اختناقاً. على أنه في الواقع شديد التحسس بالبرد وهو ذو عينين عكرتين. هذا على ما يوحي به للوهلة الأولى. أما في الحقيقة فقد اشتهر بدهائه وحدة بصره التي

تمكنه من التحلي ببعد النظر ومدى الرؤية النافذة وحصافة البصيرة الوقّادة، الأمر الذي يتيح له تدارك الأمور قبل وقوعها واكتشاف الأشخاص قبل بلوغهم إلى البلدة. ولما كان قد عين من قبل العائلة مشرفاً على الحفل فقد كان يتلذذ هادئاً وبكل طيبة خاطر بكل هذه البلبلة والفتنة التافهتين اللتين يحاول أبناء الكتاب فرضها على مجموعة الضيوف جميعاً. لقد كان التلامذة في الواقع يعكرون صفو الجو وبصرخاتهم وزعقاتهم يبالغون ومزاج الختان يعلمون فيلمون به رهيف الرأس يشكو من صداع مزمن يؤلمه فذاع الأمر انتشار النار في الهشيم، في المنطقة كلها. أما هو فقد كان يعرف تلاميذه واحداً واحداً هو الذي قلفهم فرداً فرداً. قسماً بمن جعله حلاقاً للقرية وطهارها المحترم الماهر وقالف آلاف الغزل! ها ها ها. كان في سريرته مبتهجاً يتهلل بيد أنه يحتذر من إبداء أي شيء مما يعتوره في باطنه. بل يؤثر ترقب الفرصة السانحة والوقت الملائم فيباغت الأولاد إذا انقض الدوار عليهم انقضاضاً عند مشاهدتهم انبجاس الدم ينطلق وسماعهم الصيحة الرهيبة تتصاعد فيسيطر إذاك الذعر عليهم وتنتابهم الرجفة ويصيبهم من فرط توتر الأعصاب سعال طويل على ما يسعون للمكابرة على أنفسهم والحرص على ماء وجههم. أما الآن فتلاميذ الكتاب لا يعيرونه أي انتباه بل يمضون في صراخهم وفي بهتانهم يغالون فتخرق أصواتهم الحادة الماضية الثاقبة الزعاقة آذان الحاضرين ـ وبالأخص إذا ما

راحوا يدسون بين الفينة والفينة وبصوت واحد ـ عبارة فاحشة أو تجديفة جارحة أو جناساً لفظياً، يدفعون بها صرخة مدوية كالرعد، سريعة كالبرق وقد راحوا ينشدون التعاويذ التقليدية (الله يا كريم رد بالك على زبو واعطيه للحفاف باش يموص. الله يا كريم رايحين يقصهولو وهو صغير كبولولو. كونوا يا مؤمنين مع بنيكم مرفقين...).

وقد كان الشيخ الكئيب الذي كان يضطلع بمسؤولية تلقينهم القرآن كان يقهقه بمجون ويمخر منخاريه بسبابة يده اليمنى بكل حماس واغتباط، وكأنه بتصرفه هذا راح يبحث عن روحه التائهة وفي شقة من شقاق جسمه ضائعة، عوضاً عن أن تبقى حيث ما قدر لها الله أن تبقى وحيثما حتمت عليها فلسفة الإمام الغزالي أن تمكث بكل سكينة وهدوء وسكون. لقد كان معلم القرآن غارقاً في نشوة لا مثيل لها على الاطلاق فيتقي القيام بما يمت إلى الاستفزاز بصلة. غير أن مجموعة التلاميذ الصوتية ما كانت لترتاح كل الارتياح لما تجد في هذا الموقف من التباس وتلبس. (ما عليه غير يدير كيفنا... نعرفوه، نعرفوه أم قحبة بوه حلوف... نعرفوه، نعرفوه حتشون أم كبير ومعمر بالثعابين). وكانت الإشاعة تسري بينهم وهم يتقاذفون هذه الأقاويل الفاحشة حصيلة خيالهم الخصب المقذع، بأن وراء الآكام ما وراءها، وراءها خطة جهنمية يهيئها. عليهم إذن أن يحتذروا الختان وأن يكونوا متأهبين متيقظين وعلى أهبة الاستعداد لمواجهة كل طارىء متربصين. وما عليهم

إلى أن يؤون الأوان إلا الاستمرار في تصرفاتهم الشنعاء وترديد اللازمات الدينية بطريقة تمكنهم من فك الكلمات وابتلاعها فتأتي مبهمة غير مفهومة وذلك بتضخيم الأشداق وفي نيتهم تصفية الحسابات مع هذين الجلادين العادين للأطفال أمثالهم: الحلاق والمعلم. على أن هذين الرجلين كانا مشهورين بدهائهما ومكرهما فلا يتركان أي فرصة تفوتهما وقد أخذا يحلان رموز هذا الخليط المتعمد المعقد والمزيج المتشعب المفنن بين اللازمة الغنائية والنسيج الكلامي المحشو سفاهة وبذاءة وفحشاء من شأنها على فظاعتها أن تدفن العدد العديد من المسلمين تحت أوكام من تراب الفضيحة والعار. وكان الختان يصارح نفسه وفي قرارة صدره يقول متظاهراً بالوقار والسيطرة على الأعصاب «فلنتركهم وشأنهم يعبثون وبدين الله يمرحون فإننا هنا لكثيرون وسوف نعرف كيف نسحق في أوانه أولئك الأوباش المستهترين». ولولا مركزه الاجتماعي الرفيع ونعومة الصفة البنفسجية التي عليها يجلس لكان قد نهض من مكانه مشهراً أمام أعينهم المشدوهة المذهولة كل ما يحمل في جعبته من أدوات قاطعة، ماضية، معمقة، لماعة تقضقض وترن في قلنسوة برنسه إذا ما تحرك. «أواه. لنتركهم وشأنهم خليهم يعملو رأيهم والحق يقال لا تنقصهم الرجلة ولا النباهة الحق يقال... لكن لو نقصوا من زعاقهم وزعاطهم لكان الأمر أهون ولكانت الحياة هادئة لطيفة راغدة في منزل هذه العائلة العريقة... أما هذا

التهور وسوء الأخلاق إنما يعودان إلى مسؤولية هذا المؤدب الحقير... هذه هي عاقبة كل من سلم أبناءه ذوي الأرواح الطاهرة ـ مهما بدا منهم ـ إلى أمثال أولئك المتصعلكين من حفاظ القرآن المتفاخرين لمجرد أنهم سافروا من قسنطينة إلى تونس على أرجلهم ماشين، قاصدين في الخفية جامع الزيتونة حيث يتمرسون في المعرفة ويلمون بالمنكر والفحشاء والكل يعلم أن الفقه لا يؤدي بصاحبه إلا إلى الهلاك واقتراف المذمومات... أواه. حدث عن جامع الأزهر وين تعلم جدي، الله يرحمو! الدين والشريعة واللي بعد ما رجع من مصر تسمى معلم على كل الطهارة والختانين متاع هاذا البلاد». وفجأة يفقد سكينته. ها هو ذا يتململ. لقد سيطرت على اتزانه ذبابة انصبت على تضريس شرايين صدغه الأيمن المنتفخ والبارز من شدة هزاله ونحالة رأسه. لم يعد يعرف ما يفعل. تحمل واصبر. ماء الوجه يا رجل. لا تأفف ولا حركة. واستمر على ما كان عليه من وضع فيما راحت الذبابة تتسلق أنفه وتحلق حوله عبر شبكة متشعبة ترسمها برقصاتها المسيئة المزعجة أمام أعينه. لقد ثملت الحشرة من شدة الحر وأخذت تبهره وتصطدم من حين إلى حين بمرتاج أنفه الرهيب: «اللهم صبرك». فهو يعلم علم اليقين أن الأنظار نحوه مصوبة وأبصار الأولاد بكل قواهم نحوه محدقة بحيث أنهم نسوا الآن كلامهم المغشوش وبالفحشاء والسفاهات مشحون. أما العدو اللدود إنما هو ذلك

المؤدب الحقير. يا له من محرف دجال، إنه بالحروف الربانية يتلاعب ومنها يرتزق. يبغي معرفة من ينظر إليه على أن منزلته ووضعه في جلوسه لا يسهلان عليه ذلك فقد كان جالساً بعض الشيء شذراً تجاه سائر الناس الجلوس. ما لم ينظر ورباً ويغالي.. وإذا بعينه اليسرى تحرقه إذ راحت الذبابة في نخر ونحر مستمرين تنخر مؤقه الرطب الدبق الهلامي. أن تدمع عينه فهناك الطامة الكبرى.. ستر يا ستار.. فهو لا يشك إذ يشخص في ظفره الطويل الطاهر أن الناس يسترقون النظر فيه فيلقون نظرات ساخرة هازئة «وهل هناك من يجبني؟».

وإذا بقلبه يخفق خفقاناً فيما راح أفراد العائلة والضيوف يسترسلون في البربرة مما زاد في استيائه وتحسسه.. وما الحيلة مع هذه الذبابة اللعينة؟ لن يرضخ. لا ولن يحرك لطردها ساكناً ولن يحرك برنسه المنسوج من الصوف الخام البني اللون ـ ولو خلسة أو بشيء من اللامبالاة المتصنعة المدروسة ـ مما يكون من شأنه أن يخفف عن وطأة الذبابة الماقتة وهي تنقب وتحفر أخدودها عبر المؤق الحي المتعرق على حافة الجفن الوردي المنتفخ حيث تنشأ الأشفار في قسم معين من العين.

وما أن طارت الذبابة حتى تفاقم الوضع وازداد الأولاد أكثر من ذي قبل هيجاناً وراحوا يرددون ضعف أضعاف مما رددوا من العبارات البذيئة والمذمومات الفاحشة والأجنسة اللفظية الهجينة وأخذ العرق على

وجوههم يتصبب فيبلل أجسامهم وثيابهم لما أوغلوا في المغالاة في الإكثار من الصراخ والضجيج العارمين ولم يكتفوا بالكفر والخروج على مذهب الحشمة بل لم يتورعوا من استفزاز النساء يشتمونهن يزدرون بهن أي ازدراء وقد اختفين في المطابخ مختفيات فيها أو بنوافذ الغرف الداخلية ممسكات. وأنهم لفي ذلك وإذا بالصراخ في وسط الدار يتضخم، تلك الدار المطلية جدرانها بطبقة كثيفة من الجير الأبيض: ذلك أن الدهانين لم يدخروا جهدهم ولم يقتصدوا مادتهم في إطلائهم جدران المنزل في هذه المناسبة بل راحوا يرشون الجدران طبقات طبقات متراكمة من الدهان وكأنهم راموا تحويل وسط الدار إلى موقد ملتهب من النار يفرقع تحت أشعة الشمس المحرقة وزغاريد النساء المتراقصة الحادة، لا لم يقتصدوا قط، بل أطلوا طبقة على طبقة بحيث تحولت الجدران إلى بياض ينال نصعه من العيون ويؤذيها مما بعث القلق والاضطراب في صفوف الفرقة الموسيقية التي جاءت حاملة عفشاً من الأدوات العازفة من طبول مطبلة ومضخمات مجهارة للصوت مقرقعة فحار العازفون في أمرهم لا يدرون ما يفعلون لتوقية أعينهم من حدة الانعكاسات الشمسية اللاذعة وقد عجزت واقيات خوذاتهم عن نجدتهم فاحتزت أعينهم من حدة آلاف التوجيهات المنعكسة على الكلس الوهاج المتوهج مما حدا بمهرج الفرقة الموسيقية أن يعترف بأنه من فرط ما احتدت الحرارة واحتدت الشمس شعر وكأنه فقد عينيه اللتين تحولتا

إلى فوهتين فارغتين لم يعد للبؤبؤ أي أثر بل صارتا أقرب ما تكونان إلى مأوى لآلاف النمل الأحمر المستعر استعاراً. مسكين هذا الرجل البدين المتصبب جسمه عرقاً يقف حاملاً على بطنه المتكور طبلاً ضخماً بدا وكأنه كرش على كرش متورم سمين. وإذا بالمهرج يفقد كل طاقة في تسلية الرفاق فوقف متقززاً غاضباً كافاً عن حكي الملح والدرر وسرد المباح والإباح والتفوه بالنكات من الطراز الأسفل مدعياً أنه عمد إلى انتظار فصل الشتاء وهطول الثلوج التي سوف تطفئ هذا السعير فيعود إذاك إلى دوره كمهرج شبه رسمي للتخت. كان ينضح مثلما تنضح جدران البوالات العمومية فراح وجهه يضرب إلى الأصفر الرمادي الممتزج هنا وهناك بشيء من الأخضر الفاتر لم يكن أحمر ولا قرمزياً بل مزيجاً من كل ذلك. مسكين كان يعاني من الألم أشده متململاً كالمعتوه ليس فقط بسبب الحرارة الوهاجة تلك التي ما كانت تنال بأي أذى تلك الشخصية الوقورة المتربعة هناك ـ على بعد بضعة أمتار من العازفين ـ بإجلال ووقار فائقين على الصفة البنفسجية وقد ذهب بها التعالي إلى الزعم أنها تشكو من البرد، بل أيضاً بسبب أحد الأولاد الذي راح يشير إليه مستفزاً إياه بحركاته البذيئة القبيحة بدون أن ينظر إليه متصنعاً في موقفه البلاهة. فكاد صاحب الطبل أن يجن جنونه ويفقد صوابه وقد أحاطت الكآبة به من كل جانب والولد لا ينفك يؤشر مواصلاً حركاته الغريبة بدون ما النظر في أي اتجاه. على أن

صاحب الطبل رغم كل هذه المضايقات المتسايقة المطردة لم يتورع من الزعم أن الأنغام والأصوات إنما هي تعبير صارخ عن فنون الحضارة المتقدمة بل قرر تجاهل مثل هذه الخوارق ونوبات الضحك المتواصلة التي هي أقوى من أن يضع أصلب عصا ضاربة حداً لها. غداً سيؤدب الأولاد بالفلقة تأديباً وسيضربون على أخماص الأقدام عقاباً، ولا غرو. فلكل حادث حديث أما عازفنا السمين فقد اشتهر بإدمانه على الخمر بحيث اعتاد معاقرة أربعة ليترات من النبيذ يومياً.. سوف ينتهي به الأمر لا محالة إلى اعتبار نفسه رجلاً خطيراً يلاحق الكتاب للواطهم فلا يجرؤ على الوقوف أمام المرآة.

(دين الرب ودين الزب. شموا ريحة الطبيخ وموتوا يا طحانين.. اعطيونا نكلو وخليونا نتفارقو.. الدم للركبة والزب فيه ثقبة..) هنا بدأت المذبحة. ولم يغضب صاحب المراسيم عند سماع هذه التخرّصات. العادة سيدي، العادة.. ولم يهلل صاحب المقص عند استماعه الفحشاء هذه. بل راح يعد العدة ويقيم حظه من المال. بكم سوف يتكرم عليه صاحب المقام؟ من يدري: أثرياء القوم أبخلهم.. فتساوره الخشية. رائحة البخور تفلح رأسه. يعود إلى حساباته: صاحب الدار هو ذو شهرة سيئة.. البخل لكن بئس الأفاك الفتاك.. هذا من بدعة الفقراء.. يبالغون في بخل الأغنياء.. الغيرة. «وخلقناكم..» أنا لست بالغني ولا بالفقير.. حلاق القرية وختانها بوسع (قصاص

الزبوب). وبراعة يدي اليمنى. طق. ها ها ها.. هل سينتهي منه ويكشف أوراقه أمام الملأ؟ لا لن يفعل.. هل سيعبر عن نشوته؟ لا لا في باطنه فقط.. هناك لا يمكن أحد استراق النظرة ما عدا الله المنقذ من الذل والضلال. (ذل سي عمر الملاك الكبير.. كم من هكتار؟ الكثير ثم الكثير.. يرزق الله من يشاء.. ثم يسقط الأزلام في شباك الحيرة. يتساءلون عن دسائس الحلاق وتخميناته. هذا السكون والسبات العميق لا ينبئان بخير قط. يسمرهم السحر في أماكنهم ويحولهم إلى نساك متعبدين. ينسون للحال عباراتهم الفاحشة (أسيدي زبي) يحسدون باقتراب الساعة الحاسمة. وإذا بالهلع ينفذ إليهم ضارباً بغتة أطنابه في أحشائهم. إنهم تلاميذ الكتاب الذين ترقبوا بفارغ صبر هذا الحفل المشهود ولطالما شاهدوه في المنام وتهيأوا له في اليقظة إلى أن أزف الموعد وفركت لهم أمهاتهم جلودهم تفريكاً وألبستهم أجمل الحلل. لكن الضحية.. أين الضحية؟ لا بد من تغيير الاتجاه. لا بد من الرجوع إلى ربهم.. بسرعة يا أولاد.. لا داعي لأي تردد، فالدم سوف ينضح نضوحاً.. ويتصاعد الصراخ رهيباً. لا ريب في أن قصاص القلف كالعادة (وجه القرد) سوف يربح المعركة ويقهرهم قهراً، سوف يظفر ويسيطر على الميدان منتصراً. كفوا الآن عن النهيق. بل أخذتهم نوبة من السعال وقد كانوا على وشك التهور في الغثيان والتقيؤ. يا للفرحة العظمى. التي سوف يعرف كيف يستغلها هذا الآخر ـ

معلم القرآن ـ وقد جلس بعيداً عنهم بعينه البراقة ونظرته الغائبة النفاذة. سوف يقتلهم قتلاً سوف يمزقهم تمزيقاً. يا له من خبيث مكار. لم تكن جلابيته ملتصقة بجلده بل كان جلده ملتصقاً بجلابيته الفضفاضة، العريضة، فتساعده على إخفاء يديه والانصراف إلى أموره الدنيئة القذرة (العادة السرية؟).

وفي آخر الأمر سئم التلاميذ من هذه الحالة المماطلة بعد أن انتهوا من تصفية حساباتهم مع الكبار المنافقين فتذكروا إذاك أنهم لم يأتوا إلى هنا لا للتطفل والإحراز على كيس صغير من الورق المقوى ملأته النسوة بفتات ما فضل من الحلويات المعتسلة. لقد ملوا سب الحلاق والمؤدب والطباخات والخادمات السوداوات وراحوا يتساءلون عما حصل للضحية. أين التضحية يا ترى؟ كانت الإشاعات المتناقضة تسري بين أعضاء المجموعة الصوتية وقد سكتوا مرة واحدة وكفوا عن ابتلاع الكلمات فإن هم سقطوا في شباك الطاعة والخناعة فليس بدون مبرر. بل عكفوا على الاستخبار عن حقيقة الأمور فيما يتصل بالضحية التي توارت عن الأنظار وراح من يلعب دور رئيس العصابة يتمتم قائلاً: «يا ربي زبي كبار وخشان. حبيت نبول في الجنان. . لكن أين ذهب هذا الملعون ألم يختف في حجر جدته؟ ما عندو وين يروح. . لازم يتقص زبو كما تقصوا زبوبنا». أقسم برب الفلك. كلمة الطهار واحدة ومسموعة ولا يشك فيها. الخبيث لم يزودنا ولو بابتسامة

ازدراء. ولم يحاول ابتلاع الذبابة التي ناوشته طويلاً. «كما قصونا زبوبنا ولا بد زبو يتقص». كان هذا، هو الشعار الجديد الذي أخذ ينتشر في الملأ وفي صفوف تلاميذ الكتاب أنفسهم فنسي رئيسهم تحريفاته وتلاعباته بالألفاظ الكريمة. لكن الترنيمة لم تتوقف بعد. ألم يهرب لاجئاً عند خالته في المغرب الأقصى؟ لا، لا، أبداً. لو كان قد تم ذلك لعرفنا. هرب الخبيث؟ ثالثة الأثافي وأوج الجبن. فيما كان الأطفال يرددون تساؤلاتهم راح الضارب على الطبل يحاول فهم ما يقولونه. وما أن فهم حتى كاد يطلق ضحكة رنانة فإذا نظرته تلتقي ونظرة ذاك الذي ما انفك يلوح له بحركاته القبيحة المقذعة. فسكت لتوه وجمدت يده فظلت مرتفعة تمسك العصا التي بها يضرب الطبل، ظلت مرتفعة في الجو بشكل مثير مضحك. وظهر بطنه وهو في هذه الحالة وكأنه قد بدأ ينفش: فششش.. (هل أزرد حية.. لا، لا وإنما ابتلع عصاه.. لا، لا، لا.. أزرد زب الطفل اللي راح يختنو الطهار.. إذن انتهى الأمر وفقد الولد ذكره ولم يبق على الحلاق إلا أن يعود إلى داره. صفر اليدين. بخفي حنين. شوف كيف وجه تبدل، الخبيث). وراحت الثرثرة تتضخم والإشاعات تتعرم والبلبلة تتعظم. عاد أعضاء المجموعة الصوتية إلى ضوضائهم. داخلياً. ساكتين. صامتين. عادت الأمور إلى مجراها الطبيعي على ما ظهر. كانت عادة الختان هذه من الفرائض التي أوصى بها الله ورسوله. لذا وجب قص قلف طفل

صغير حتى يدخل بكفاءة في دين الإسلام الحنيف. فالحفل يضم حلاق البلدة الوقور: إنه يحتل الصدارة ويجلس على صفة بنفسجية مطمئن البال مرتاحاً متشحاً بطيات برنسه البني الرائع. كما يضم الحفل أيضاً تختاً موسيقياً. ثم مؤدب الكتاب وتلاميذه وقد جاؤوا لترتيل القرآن وتكرار الذكر لمجد محمد ﷺ. أما الطفل المبارك فقد كان جالساً في إحدى غرف الدار الكبرى وقد أحاطت به النسوة لإلباسه أجمل الحلل وأبهاها وتزيينه بأحسن الزين وأزهاها. أما عدد الضيوف فقد كان مرتفعاً ولا فائدة في ضبط عدد الطاهيات الذاهبات الآئبات. يتحركن بحماس ظاهر أمام المطابخ العابقة بالروائح.

كانت الضوضاء في أوجها والشمس في تأججها. بعد هنيهة سينبجس الدم من ذكر طفل صغير ويسقط قلفة في آنية من الطين ملأتها النشارة إلى فوق. والنشارة كما هو معروف أحسن الوسائل وأنجحها لتشرب الدم وتمتصه. أما خالة المطهر فلم تكن على وفاق مع هذا الرأي السائد بل أعلنت جاهرة أنها تفضل على النشارة الرماد فهذا لا يشترى بالمال. لكن سي عمر رجل غني ولا تهمه نفقة ضئيلة كهذه، لاشتراء النخالة. ولم يكن الطهار هو الوحيد من نوعه يهلل فرحاً في مثل هذا اليوم المشهود ـ لقد كان جده قد سافر إلى مصر لمتابعة دروس الأزهر الشريف ـ الذي لا بد أن يزرع نهائياً في ذاكرة طفل صغير. سوف يطلق صرخة مؤلمة في خضم العياط والزياط والزغاريد

والتغاريد. أما النساء فلم يكن حاضرات في وسط الدار بل بقين مختفيات وراء نوافذ الغرف حيث يتمكن من مشاهدة الرجال دون أن يشاهدهن هؤلاء. كانت زغاريدهن تنبثق من أفواههن على وتيرة جنونية. حيث يلعب اللسان دوراً أساسياً فيحرك الهواء داخل الفم بسرعة وخفة فيخرج عبر الشفاه المزمومة تزميماً معيناً. وفن الزغردة هذا كما هو معلوم أيضاً من اختصاص النساء وقد احتكرنه بكل فخر واعتزاز فلا يقبل الرجال استلابه منهن ويرفضون حتى تحريك ألسنتهم في أفواههم على وتيرة قضيت أخذ الهلع منه مأخذه. لقد جعلوا أنفسهم متعالين فوق مثل هذه الترهات التي تركوها للنساء اللواتي يذهبن بعقليتهن الصبيانية في تحريك الهواء بطريقة بريمية فيتحمسن إلى حد النخوة المتأصلة في أحناكهن فتهشها هشاً وتؤلمها وتؤذيها من فرط ما تدور الألسنة على نفسها وقد ظللن مستمرات في ضرب ألسنتهن على الأسنان ضرباً مما يدمي اللثة المصقولة بالمسواك حتى تبرز حمرتها الملتهبة التي تتناقض وبياض الأسنان الناصعة، فالتسواك عادة قديمة ورثها الأخلاف عن الأسلاف الأمجاد فتوارثتها النساء بالتتالي على مر الأجيال. الرجال يقهقهون. والطهار المرهاف يرتجف برداً ولا يظل جالساً على الصفة البنفسجية فظل لون وجهه هو هو شاحباً لا يتغير وجسمه جامداً لا يتحرك يستمر في صنيه ـ باطنياً ـ لمجرد ما يفكر بهذه الألسنة المتحركة في هذه الأفواه الأنثوية حيث تلمع الأسنان

الثلجية (المسواك يا رجل. المسواك) السابحة في شلالات من اللعاب والرضاب والريق المسكر الغض الطري البارد. كلما فكر بها فتخيل هذه الألسنة النسوية اللعوبة احمر وجهه حياءً وقد كان شاحباً شحوب الناسك الزاهد الصائم، وقد كانت الشهوة والرغبة الشبقية المحرقة قد استولتا عليه مما كان من شأنهما أن تهددا سمعته ومنزلته الاجتماعية. فصاحبنا قادر على المقاومة والنعوض. ولكنه يعلم أن أعين الناس عليه منصبة تراقبه وخاصة أولئك التلاميذ؛ إنهم في الحقيقة يخافون منه فهو إذا ما باغتهم وظهر بينهم منتصباً، منتفضاً من الصفة البنفسجية مخترقاً بطيات برنسه الجو اختراقاً ملوحاً بأدواته الرهيبة تلويحاً لأغمي عليهم جميعاً. يا للمذبحة. إنه يضحك مقهقهاً بين تلافيف جمجمته الرقطاء. لكن الشبق الذي كان يعاني منه منذ ساعات كان قد نال منه مناله وأتلفه فشعر بنوع من الرخوة تتأصل في أعضائه. طبيعي يا رجل. وكل هذه النساء وكل هذه الانثوات من خلف الأبواب والنوافذ مبربرات بألسنتهن الحمراء المذببة المستطيلة. إنه لمن الصعب احتمال مثل هذا الضغط. إنه جالس دائماً أخوكم بكل خفة وأناقة. يظل أخوكم مصراداً رغم الحرارة. مل أخوكم يا ناس من جراء تصرفات هذه الزمرة من الأولاد الممسوخين الضاربين بالاحترام عرض الحائط والتقدير. معذب أخوكم يا ناس! منذ البداية معذب تحت نيران الشبق المتدفق المتساقط (والنازلات غرقاً...) على الرؤوس

بسبب الزغاريد النافثة الخارقة في الرياح الساخنة وعلى رأس أخيكم ساقطة مدغدغة. رأسه رهيف أخوكم يا ناس وهش رأسه وهو في حاجة يا قوم إلى رعاية خاصة وأدوية سحرية وطلاسم رتلية لا يمكن إلا في فناء الجامع تمتمتها. إنه قادر أخوكم يا ناس على الامتساك والتمسك بالسكينة مدى سنة لكن هذه الصيحات النسائية إنها رهيبة تتساقط علينا كالإبر يبردها بمبرده بكل هدوء ورزانة صانع حداد شاذ ملحد مجنون سولت له نفسه الشريرة أن يعمد إلى السفر ليس إلى مكة المكرمة ولا إلى جامع الأزهر الشريف (سبحانك يا رب العزة) ولا حتى إلى باريس ليزور دور البغاء والمواميس والمتوفرة بغزارة هنالك والعساعيس، لا لم يقصد صاحبنا المتزندق شيئاً من هذا القبيل من الطراز الدسيس وإنما إلى موسكو سافر صاحبنا المسكين، أي نعم يا سادتي الكرام، يا مؤمنين. ولماذا؟ من يعرف الجواب بينكم يا عارفين؟ من منكم يقبل بالرهان مع المسكين؟ (لكن حرام عليكم الميسر وأكل. . .) (عليكم بالسرعة. قبل أن يلتهم هذا الولد الملعون حشفة شاشية رفيقة وهو يتدحرج يمنة ويسرة في وضعية جد مغرية. .) آه يا إله آه من شر الناس أجمعين وشر ذاك الحداد الفريد والذي ليس في القرية له من مثيل. القرية إنها أتقى ما عرفه المرء على وجه الأرض: ثلاثة مساجد وماخور واحد ليس إلا. وحدث عن هذا الماخور ولا جرم. فهو حقير وفقير وصغير. أما المساجد فهناك الأبهة والثراء والخشوع

والشموع والترياق وأقواس التقويسات والأشكال الساحرة الساحرة.. من يعرف خيراً منها على وجه الأرض على ذبابة لساني ولكن لا أصعب علي من الحفظ ومن حفظ اسمها بالذات.. آه، ها إنني ظافر بها: اسمها موسكو. وعند عودته راح يتبجح أمام كل الناس وأمام الملأ يتباهى. لقد زار ضريح قائدهم الملتحي. كانت الدموع تذرف مدراراً كان يبكي وهو يروي الرواية. «كفر. زندقة. يا رب يا ماحي الذنوب.. وين سبحتي؟» ولقب الحداد «بلوذنين» بسبب أذنيه الطويلتين مثل آذان الحمار وبسب تلك الزيارة أيضاً تلك التي قام بها إلى ضريح رئيسهم (لينين؟) أحد قطاعي الطريق.. زندقة وكفاية. رغم أنه كان لا يعاقر الخمر. فإنه لا يقف أيضاً أمام باب المسجد الأكبر لاستفزاز المؤمنين، ذاك الذي ينحدر في اتجاه نواحي السوق الفرنسية حيث تباع رؤوس الخنازير الوردية، المقهقهة.. حفظنا الله من كل شر..

شعاع من الشمس ينفذ إلى عين أحد المعتوهين فإذا به يسترسل معلقاً على جبن الأطفال. فيقول هذا الممسوس المهووس ـ (كان له عادة مزعجة ومقززة إذ أنه لا ينقطع من النظر تارة إلى كتفه الأيسر وأخرى إلى الأيمن وفي كل مرة يستنشق الهواء بشيء من العنجهية في حركة دورية تشبه حركة المصروع) ـ كان الأطفال في أيامي أكثر قوة وشجاعة وتقوى مما هم عليه الآن. ويستطرد قائلاً: «لا أقصد تلاميذ الكتاب إنما أولئك الأوباش الذين يتزاحمون

على أرصفة الشوارع ويهاجمون المارة في كل زاوية سعياً وراء الصدقة. لا، لا، أنا لا أعني أولاد المجموعة الصوتية تلك إنهم جميعاً مطهرون ومندمجون منذ زمن طويل مع دين الله الحنيف، لكن الحثالة أكلت على قلبي».

لقد كان على علم بأن تلاميذ الكتاب جميعاً هم من الفاسقين الفجار لا يفتأون يكررون: «يا زبي يا زبي جاء وقت الذبيحة وقريب الغبينة. منين الولد اللي راح يتقلف.. نقط بزي تلقى زبي..» ويتظاهر نحوهم بالامبالاة. مزاح. هذا مجرد مزاح. ألعاب صبيانية لا أكثر ولا أقل. من لم يحفظ مثل هذه الأمور؟ من لم يلجأ إليها في حفلات التختين؟ إنما الشعاع الشمسي الذي نفذ إلى عين المتكلم منذ برهة أخذ يسلخ الآن اللحم والشحم والعروق. لكنه يعترف. في قرارة نفسه، بأن هذا الشعاع الذي نفذ إلى عينه إنما يدفئها ويضاعف من لمعانها ويلونها بألف لون ولون يعج فيها الأحمر والأخضر عجاً وقد تأصلا هنا داخل نقطة البؤبؤ السوداء المحاطة بحلقة شهباء. كان يحمل الحريق في عينه. يتفاخر ويتباهى. يا له من مجنون. إنه خال المطهر وهو يعلم أن النساء مكبات على إلباس الولد وتزيينه هناك في إحدى الغرف في المنزل الضخم قبل أن يذهب الجمع الغفير بصحبته إلى ضريح والي القرية الصالح. كان سميناً بديناً ورغم اشتعال عينه اليمنى بقيت العين اليسرى باهتة فيما تساقط جفنها مرتخياً فتراءى وكأنه أعور فراح يتصنع العمى مقهقهاً رافعاً إلى السماء عصاه

الصفراء المصقولة، المنحوت مقبضها، متنقلاً، متعمداً عفس أقدام الحلاق التي برزت من تحت برنس الخام البني. أما الحلاق المتربع على صفته فيتركه يتجه نحوه ببزته البيضاء ورأسه العاري وشعره الكث الشديد السواد المدهون بالزيت والممشط إلى الوراء في اتجاه الرقبة ورجليه المحتذيتين بوابيج زعفرانية. بدا بشوشاً لا تفارقه النشوة بل يجد نفسه خفيف الدم مازحاً ذلك أن الحلاق (أو الختان) كان يتظاهر بالسرور والرضا لشدة ما كان يخشاه. وإذا بالشعاع الشمسي يتنقل من عين المجنون وينساب إلى الحائط فيتوقف خال المطهر للحال عن العبث والتظاهر بالعمى بل استرجع جديته وتمنطق بالعبوسة والقمطريرة بعد ما أصاب عينه التي كانت منذ هنيهة مصابة بالانطفاء والارتخاء. فيعوذ إلى مكانه ويجلس على كرسيه وكأن شيئاً مما يحدث لم يكن. أصحيح أنه كان لثوان قليلة خلت متهيجاً؟ أصحيح أنه لوح بخيزرانته المنحوتة؟ أصحيح أنه كان يتظاهر متباهياً بلباسه الأبيض الأنيق؟ أصحيح أن اشتعلت عينه منذ قليل بلهجة الشعاع الشمسي؟ لا، أبداً. أبداً على الإطلاق. من قال ذلك؟ شهد الله أن ذلك لم يرد. أليس كذلك يا عمي الختان؟ من خير منك شاهد على حسن سلوكي. أنا ما مشيت قط على قدميك أثناء نزوة جنونية حمقاء. والآن وقد استرجع جديته ووقاره لم يعد يلم به ملم. ومن جديد يعود القوم إلى تساؤلاته محاولاً الاستفسار عن نغمات الأطفال المتشعبة المشحونة

بأشياء وأشياء. . وسرعان ما عمد الناس إلى الضحك لبراعة تنسيقها. . وكل شيء على ما يرام على ألا تتعدى حدود اللياقة والكياسة والشرف والأخلاق. ولعل المرء يمكنه بعد أيام قليلة من التحدث عن هذه التحريفات والتشويهات والكفريات فيترك العنان للضحك والقهقهة إعجاباً وتقديراً. وكان الضيوف يسترقون السمع إلى كل هذا، لكن سرعان ما يتنبه إليهم أولاد الكتاب فيعمدون إلى الكف فوراً عن التلفظ بألفاظهم الفظة وعباراتهم الغليظة ويعودون إلى سبيل الصواب فتمسحهم مسحة صوفية ناعمة نكاية في الكبار المنافقين الجبناء الذين راحوا يتساءلون عن كل هذا بدون أن يفقهوا شيئاً. (روح تفهم هاذ الأولاد ذرك. هاو اضربهم الحزن واسخطهم ربي. . . بالعاني ولاد القحاب). أما مدرس القرآن فلا يتغير له حال مستمراً في تهكماته الداخلية: الحساب والعقاب. الفلقة وما أدراك ما الفلقة. . . سوف نرى وسوف ننفذ العقاب الأليم. كانت ثيابه تلتصق بجلده الهزيل. وتتآكل قماش جبته المتشرب رطوبة من فرط ما يتصبب جسمه عرقاً النابع من مسامه المسمومة، الكريهة: ها ها ها. يضحك وعيناه صامدتان لا تتحركان ولا تتزحزحان من مقلتيهما. يتأمل ملياً في الضارب على الطبلة فيدرك لحينه مندهشاً أن عضواً ما ينقصه ولا يدرك بالضبط أي عضو بتر على أنه متأكد كل التأكيد أن هنالك نقصاً عضوياً يشكو منه هذا الرجل الذي كان جسده يتحول إلى قربة من فرط السمنة والتشحم حيث

رمى الله بخلط ملط وبدون أي نظام أو حساب، رمى الدم واللحم والشرايين والمخ والمخيخ والنخاع الشوكي والغضروف والعظام والماء والخمر، والكثير الكثير من الخمر...

يقبع الحلاق في مكانه مرتاباً متشككاً. الموسيقار الضخم والمبتور (أي عضوٍ يا ترى بتر؟) يمكث على مقعده مختنقاً خنقاً (ضغط ياقة القميص أم الحرارة؟) يبقى مدرس القرآن في مكانه والوسواس ينغص عيشه من جراء أنفه الضخم الذي يحطم وجهه ويقسمه إلى قسمين غير متساويين أو بالأحرى يرقعه بنوع من الخياطة المتسربلة شاقولياً من الجبين إلى الفم ثم أفقياً من منطلق الوجنة البارزة إلى الأخرى وذلك من فرط اتساع الجزء الأسفل من عضو الاشتمام المتفايض يمنة ويسرة وهو في نهاية المطاف لا يصلح ولا يفلح لأي شيء البتة. فيمكن تشبيهه إذاك لا بمهرج ذي الأنف المنتفخ الأحمر بل بأحد أولئك المجروحين (الذي يشاهدهم المرء أثناء عرض الأفلام الإخبارية المعروضة في كل مكان وزمان وفي كافة بلدان العالم مهما كانت الحالة سلماً كانت أم حرباً، ذلك أنه إذا ما سيطر السلم على العالم تفاقمت الكوارث الطبيعية والحرائق وحوادث العمل وتفجرات أنابيب الغاز والزلازل إلخ...) الحاملين على أنوفهم ضمادات طولاً وعرضاً تكسب وجوههم صبغة مضحكة هزلية.

كان الخال ثرثاراً والقوم يتصنعون الاهتمام المفرط به

لشدة ما كانوا يهابون مركزه الاجتماعي: أكان ضابطاً في الجيش الفرنسي؟ (رغم أنه لم يكن ليلبس الزي العسكري ولا يحمل شارات الرتبة على أن ذلك لم يعن شيئاً فليس من الضروري أن يلبس الضابط زيه أثناء الأعراس والمآتم، وربما كان الأمر يساعده لو منطقته زوجته في زيه هذا فلو فعلت لكان هندامه قد بدا أنيقاً) أم محافظ شرطة شغل منصبه هذا في المدينة الكبيرة المجاورة (والبعيدة مائة كيلومتر) من هنا على وجه التقريب والمشهورة بخرافة المرأة المتوحشة الأسطورية وقد أبدعها الحشاشون إبداعاً بحذافيرها بغية الاستهزاء بالملاكين الكبار أصحاب الضيع الفخمة الموزعة على الهضاب العالية إذ هم يزورونها لقضاء أمر مستعجل أو مشبوه فيه أو مخجل، مثقلين بإيمانهم الراسخ في تلك المرأة الأسطورية، وكذلك القول نفسه عن جحافل الفقراء الجياع العطاش الذين يتجاهلهم أولئك الكبار ما عدا في مواسم الانتخابات فيستغلونهم ويعبثون بأصواتهم فيتخاصمون عليها مع المعمرين الأجانب الذين محوا من ضميرهم كل أبوة تجاه الحثالى فلا يعرفون إلا البطش والعنف في توجيه أوامرهم ونهرهم) أم مديراً لأحد السجون النموذجية (والتي دشنت منذ قليل للتخفيف من غضبة المساجين السياسيين الذين يمثلون آفة رهيبة يخشاها المعمرون أنفسهم كما يخشون خطابات هؤلاء المساجين الذين يدينون تلك السياسة الانتخابية المزيفة ويطالبون بخوض حرب تحررية شاملة) أم مدير ثانوية (وقد كان

قيمها العام من أصل كورسيكي يشكو من قصر في رجله اليسرى فلقب midi moins le quart) أم رئيس معهد إسلامي (والذي كان ممولاً سراً من قبل أولئك الملاكين الكبار أنفسهم الذين يؤثرون دفع بعض المال وشرائهم بالتالي راحة البال والاطمئنان على غير علم من السلطات الاستعمارية) أم..

كف التلاميذ إذن عن تصرفهم وضوضائهم وغرقوا في عالم اللامبالاة غير آبهين بمهنة هذا الضابط أو بمنصبه (شرطياً؟ مديراً؟ سجاناً؟) وقد تربع الآن رازحاً تحت ضخامته المرهفة. لا شك أنه يتألم من وضعه هذا فيسارع مقهقهاً مخفياً أمره على الآخرين متشدقاً ضارباً على بطنه السمين الممتلىء مما تناول من المأكولات في الأمس فما تمكن هذا الصباح من الذهاب إلى المرحاض وقد كان عليه أن يستقل سيارته ويجيء إلى القرية مسرعاً لحضور حفل اختتان ابن أخته بعد قطع ما يناهز المائة كلومتر. لقد فاته الفوت وهو يعلم أنه لا يمكنه الآن قضاء حاجته وزحمة الضيوف وازدحام الأطفال يراقبونه، يتجسسون عليه أولئك الذين يلهون أنفسهم بازدراد خببهم كالحرباء إذا راحت تلتهم الحشرات وقد أبهرها ضوء مسرجة عتيقة تدخن وتخشخش وتنتشر في الجو ناشرة رائحة النفط الكريهة. وسرعان ما مل الأولاد هذه اللعبة المقززة بعدما فشلوا في ما قاموا من محاولات شتى لإبعاد الكابوس الذي يهددهم والمقبل لا محالة عليهم: هذا الدم الممزج بالنخالة التي

تتشربه في الوعاء الطيني المستعمل في مثل هذه المناسبات لاقتناء القلف إذا ما بتر بضربة حاذقة سريعة لا يتقن سرها إلا الختان وبيده موسى ماضية حادة تبدو شفرته ناعمة عند مسها ولمسها وكأنها سلبت من ذيل حصان عربي أصيل.
تتعاقب المشاهد مشهداً مشهداً، ورغم القيظ الشديد بدأ الأولاد يحسون بالصرد يجلف أقدامهم. وإن دل هذا البرد على شيء فعلى ما سوف يحدث وعلى ما ينتابهم خاصة من شدة الهلع الذي سيستولي عليهم بعد حين. إنهم لا يجرأون على التفرس في الحلاق الغائص في أحلامه الشهوانية فيما سقطوا هم في هواجس تتلخص كلها في ذلك الجزء المذري من الجلدة الطرية الدامية حوافها والأبيض قلبها وقد حفت أطرافه بدائرة يصعب إدراكها من فرط شفافيتها وقد لونت بالأصفر الباهت الممزوج زرقة خافتة مثلها مثل حواشي الحلم المخروم بآلاف النحل وشمس واحدة برتقالية صلبة كاسرة كالبلاط الذي يفرش به شارع القرية الكبير. لقد أخذتهم الأحلام المهاطلة إلى بلاد نائية ولكنهم لا يجدون لهم للفرّ سبيلاً ولا منفذاً. والألوان المتدفقة تزرع فيهم رغبات قاتلة فتاكة: تقيؤ الأحشاء المحرقة الدبقة، الناعمة، المخضرة وأخذها بين أيديهم المتلاقية في حركة هزلية مسرحية ملؤها السمو والاعتلاء تبعث في الواقع على الضحك والاستهتار إذ أتت نتيجة عملية تهريجية محضة. وتتكاثر الرؤى بغزارة غريبة وعلى وتيرة واخزة واخزة..

لقد أبهر الأولاد كل الضيوف لاحتفاظهم على حيويتهم في الوقت الذي نسي فيه مدرس القرآن لمدة وجيزة كارثة أنفه الضخم وما تولد عنده من جراء ذلك من عقدة ووسواس، وفي الوقت الذي خيل للضارب على الطبل فيه أنه لم يبتر له أي عضو على الإطلاق من جسمه كما أنه لم يفقد ذراعه اليسرى في إحدى القرى الملعونة المشؤومة في بلاد تكاثرت فيها الباغودات البوذية والنساك الآسيويون وغابات المطاط الضخمة (أشه فيه. أشه فيه. واش اداه؟ واش اداه؟ خليه يتعلم...) نقصّ المجموعة الصوتية الصمت بغتة، وفي الوقت الذي تذرف الأم فيه الدموع الأولى خلسة. وإذا بالوضع يتفجر من جديد. ها هم الأولاد يكرهون هذا الختان الخبيث وقد باغتوه أكثر من مرة وهو يتسربل بالليل في أزقة قصبة قسنطينة الضيقة حيث تتواجد معظم مواخير المدينة. قيل إنه اعتاد صبغ شعره (لكنه من أين له هذا وهو صاحب الجمجمة الرقطاء المرداء؟) أو بالأحرى اعتاد على وضع شعر مستعار (وهذا أكثر احتمالاً..) ولبس بزة إفرنجية وألحق عقب سيجارة وسط شفتيه الرقيقتين، وتقنعه بقناع محارب سيوكسي قد سلك طريق الحرب الجنسية والإباحية حتى يدخل أحد المواخير سترة لقضاء حاجته وإطفاء نيران رغبته. وإذا ما اكتشفه أحدهم راح ينكر ويستنكر. لا، لا... ليس هذا فلان، حلاق القرية الفلانية، لا، أنت مخطىء... أبداً. ليس له جحافل من الأولاد بالمرة ولا حتى سلف واحد،

مستحيل أن يكون أبوه هو بعينه ذاك الذي سافر إلى القاهرة وتتلمذ على أيدي أئمة الأزهر الشريف. . . وإذا ما فاجأه أحد الأوباش ينهال عليه بالأسئلة بعدما وثق فيه رغم حيله ومكره، كان يدعي أنه عامل في فرنسا وقد طرد منها بسبب تنظيم إضراب كان قد أشرف عليه في المعمل الذي كانت أغلبية العمال فيه من أصل مغربي. لقد اشتهر بدهائه وثقافته السياسية الواسعة. فيغتنم الفرصة وينحني برأسه ويكشط جمجمته ويحتج بدون أدنى اقتناع ليصل إلى الاعتراف في نهاية المطاف متمتماً بصوت خافت تمتمات يتركها تتساقط فيه باحتشام، بأنه اتهم ـ في فرنسا ـ بتجارة الرقيق: «أواه. شهد الله أنها تهمة باطلة وخطأ فادح». وعندما يفقد الأنذال الصغار شجاعتهم فيختفون بسرعة وخفة أمام هذه الخطة الجهنمية وهذه الحيلة المفرطة خاصة وأنهم يعلمون كم أن الرجل قادر على الاستشهاد بجموع المارة الذين سرعان ما يسقطون في لعبته لما فطر عليه من طاقة كبرى على سرد الأعاجيب والأكاذيب والغرائب والعجائب فيقنعهم بأقل من لمحة بصر هم من يجوبون أزقة المواخير الشهيرة كما يقنع منوم الثعابين نفسه فينتهي به الأمر إلى فقدان وعيه الذي أتى به من جنوبه الأحرش النائي. . كانوا إذن يتركونه وشأنه والدموع تكاد تتفجر وعلى وشك الانحدار من فرط ما يشعرون بالغيظ والاستياء فيسرعون إلى القرية حيث يقبلون على حانوت الحلاقة فيجدونه منهمكاً على فصد دم القاضي بحركات ملؤها

الدهاء والأبهة والفشفشة وإذا بالقاضي يعوم في بحر من الألم وإذا به يتزحزح على مقعده الخشبي الرث، المسوس وقد عاث فيه الدود فساداً وفيه ترعرع: (يا حلاق يا خبيث يا قاطع الزبوب والشعور وفي الدهاء مغيث يا بغيض يا من يمتص الدماء وفي سفكه فنان، يا حاذقاً في رعاية المحجمة المصاصة الملتصقة على قفا الرقبة أو الموسى الرهيب الذي تجاوزت شهرته حدود القرية وفي جميع الأصقاع والبقاع انتشر. يا ماهر يا حلاق يا ممتهن الختان يا طبيب المتخمين وسفاك المضغوطين يا صاحب الموس الرهيب تمرمر شفرتك الجارحة على الصدغ على الجبين على البشرة على البشرة والقلف..) وما أن ينتهي من الفصد حتى يخرج متبختراً ويفرغ في مجرى المياه علبة الدم المسفوك، فيقول وقد ارتسمت على سماته علائم السفاك الأفاك: «حقنة هائلة من الدم المسموم، سيدي القاضي». هذا في الصيف أما في الشتاء فقد كان الدم يتحول إلى جليد أحمر حتى إذا سقطت الثلوج لوث الخبيث نصاعة بياضها بفنون من ألوان الدم المخثر. ولا غرو فهو يعيش في جو عابق بالدم المبعثر هنا وهناك وفي كل مكان مما يزرع الخوف في أطفال القرية فلا ينظرون إليه إلا بأعين حذرة يحترسون منه كل الاحتراس إذا ما قصدوه لحلاقة شعرهم عنده.

هل هو ذا الحلاق الصموت هنا اليوم جالساً في مكانه لا يتحرك. يا للمظهر الغريب. يجلس وقفاه على الأريكة البنفسجية لا يبدي ظاهراً أي اهتمام لما يدور حوله حتى

إذا ما استفزه الأولاد ما شاء الله أن يستفزوه بألفاظهم المتحدية بقي صامداً صامتاً وعلى ذاته مسيطراً. يبدو وكأنه يدخل من حين إلى حين في خلوة مع نفسه محاوراً ذاته فيطلق العنان إلى غضبة خبيثة لا يتمالك عليها فيزعق في القوم ويطلق اسم الله جهارة مباغتاً زملاءه ذوي اللحى المتدينين أولئك الذين لم يمض على تدينهم وقت طويل وهو على صحة إيمانهم غير مرتاح بل يعتبرهم مرائين ظاناً إياهم من ذوي الملحدين المتزندقين ويذهب إلى القول في قرارة نفسه أنه لو ثبت ذلك عليهم لقتلهم واحداً واحداً شر قتل دون أن يرف له جفن. ويمضي هكذا يطوف في أروقة هذيانه متمتماً بأنه متسامح وليس هو بالمتعصب بمكان: أبداً وحسبي الله، فما أنا إلا قصاص أقلفة مسالم أنا أخوكم لا بطل. وقد اعتاد على تكرار مثل هذه التصريحات بطريقة هادئة معسورة معسولة حتى إذا ما اتفق أنه وجد في أحد المجالس والمحافل حيث يتكاثر القبارون والغسالون الشاكون من الكساد الطاغي على مهنتهم لصغر القرية ومعاداة السكان إلى ما يمت إلى الموت من قريب أو بعيد بصلة راح يقول: «أنا خادم الله عبدكم المتواضع وقد قدر لي سبحانه أن أكون قطاع الأقلفة، وفصاد الأدمية وحلاق الأدمغة، لكن يا جماعة إن الخطر يحدق بنا ويهددنا فهذه القرية المسخوط عليها إنما بالإلحاد والمجون والزندقة مهددة». لم يكن رجلنا بالرجل الغبي وهو يعلم علم اليقين أن سمعته مهددة بتلك الإشاعات الشائعة حول

تردده إلى مواخير قسنطينة متنكراً متجولاً عبر أزقة القصبة الضيقة، ولا يخفى عليه أيضاً أنه مرهف الحس يتحسس بالبرد لما ألم به من فساد في الدم الذي في عروقه المتشابكة داخل جسمه الهزيل يجري وقد تسبب مرضه من سوء نية أولئك الناس القرويين بالتدين متظاهرين وهم في الحقيقة من عباد الله المجانين وأكثرهم عربدة وكفراً ونفاقاً.
هذا هو مصيره هو حلاق القرية هذه وختانها، تلك القرية الجاثية على الهضاب العالية والتي رزقها الله أرضاً طيبة خصبة تنتج خير ما تنتجه أرض من الحبوب في العالم. ها هو يضحك في سريرة قلبه من ذاك القبار الجالس في مواجهته والذي استولت عليه غفوة فغاص في سبات خفيف لذيذ! إنه هنا أمامه يراه إذا ما رفع رأسه، يراه هنا بين آخر صف من صفوف العازفين وأول صف من صفوف أولاد الكتاب الحائصين، يراه حاملاً على ملامحه علائم الاطمئنان وسلامة النية؛ إنه يبدو على عكس تلك الجثث التي يغسلها فيدفنها والتي لا ينفك يتحدث عنها دون التوقف عن حك راسليه على وتيرة واحدة لا تتغير خاصة وأن الأيسر منهما أضخم وأنتأ من الأيمن فيقول وهو يحك ويكشط: «يا لها من عاهة خبيثة». وكان الغسال معروفاً لنهمه وتطفله فلا تفوته فرصة إلا وتناول فيها الكسكسي المطهى بلحم الخروف المسمن فلا يترك لمن يشاركه الطعام إلا العظام منه فيقول مازحاً:

«الأموات لا يغزون أليس كذلك يا مؤمنون؟».

وفجأة يهوج العازفون باذلين قصارى جهدهم لتصعيد العزف الصاخب فيما راح أولاد الكتاب يتناعسون ويتناومون ما عدا المطهر الصغير الذي تربع على منصته الصغيرة جالساً بين أبيه وخاله شاحب الوجه لما اعتراه من وشائج الحيرة والخوف. فها هي آلات الموسيقى تصر وتحرف وها هم أعضاء المجموعة الصوتية يخرجون تدريجياً من تناعسهم فتجري فيما بينهم من جديد أوامر وشعارات سرية ويأخذون في التحرك شيئاً فشيئاً. فيقررون بعرقلة حركة الختان في اللحظة الحاسمة بين صراخ وصمت وعويل وكبت وصخب وهدوء.

أما الزنجية فقد كانت تتمايل بخنوع حاملة على سماتها مظهر مساعد الجلاد، تتقدم حاملة بين يديها كأسة مشققة من الطين ملأتها النخالة حتى فوق. وإذا بالحلاق ينطلق فجأة ويعطي أوامره جهارة وفي أقل من لمح البصر تلقف الرجال الولد المطهر فطار في الهواء محمولاً على الأذرع وما عتم أن هبط بين ذراعي خاله السمين (أضابط هو؟ أشرطي هو؟ أمدير سجن نموذجي هو؟) وتصمت الموسيقى ويخترق البخور مناخير الحضور. ما توجع وليدي! ما توجع وليدي! ما توجع وليدي يا ختان! وتنطلق أصوات النسوة متضرعات مترنمات. أما الحلاق فلا يبالي بهن بل ينزع برنسه البني عن أكتافه ويبهر الحاضرين بحركاته المسرحية فيما يحاول الطفل الهروب والإفلات من أيدي جلاديه ولكن خاله كان له بالمرصاد ساهراً عليه فلا

يتركه يذهب بل يقبض عليه قبضة قوية عنيفة فيساعد الطهار ويشد كلاهما بفخذي الصبي بحركة متناسقة متباينة هذا إلى اليمين والآخر إلى الشمال. ويطلق الصغير بوله من شدة ما اعتراه من خوف فيرسم السيل الأصفر خطاً متقوصاً بدون جدوى. ويغرق أصحاب اللحى في الضحك مازحين وقد ارتسمت على أوجههم سمات التكالب والخديعة، وفجأة تومض شفرة الموس (يا رب يا رباب. نذبحوك ونقتلوك في بورديل عايشة لا رابيد... ما عندك وين تروح يا قاتل الروح.. يا زب يا زباب) فلا تزعجه هذه الهجمة الجديدة التي يوجهها إليه أولاد الكتاب. هادىء أخوكم لا بطل. يدخل قفلة من صدف في القلف ويقطع بحركة وميضة الجلدة على مستوى الحد الفاصل بين البشرة واللحمة. فيقطر الدم في الكأسة التي كانت ماسكة إياها الزنجية فاستولت عليها نوبة ارتعاش وارتجاف مفاجئة، وإذا بالشموع تشتعل وبالملح يقرقع وبالجو برائحة البخور يعبق. لقد سكت أولاد الكتاب. أما الصغير المطهر فأنينه يتصاعد أليماً. وتتفجر النساء هائجة مزغردة. ويتضاعف الصخب ويتعالى. أوج الحضارة يا سادتي. أوج الهمجية بالحرى يا قوم. يا لك من لعين يا طهار. وما منفعة السب والشتم؟ فهو بهما لا يبالي. بل يغسل يديه بإبريق ذهبي راحت الزنجية تصب منه الماء عليهما. وتصعد الترنيمة في كبد السماء. وتعيد النساء الكرة من جديد. خلصو ربي... خلصو ربي... راح الوجاع... راح الوجاع... احمرت

النخالة في الكأسة المشقوقة. ويصارح الحلاق نفسه معلناً: «سوف نقضي على سلالة الكفار قضاء... لا حظ لها ولا خبز يرتجى في هذا البلد الكريم العظيم... الله. الله».

مرة أخرى حلمت في المنام ذلك الاختتان الرهيب..

ويطلع الفجر ولم يسكن لي ساكن. لا شيء يتحرك. الخمول والكمون يسيطران، التباسية ترتسم ولا تكتمل هباء. طرادة المياه تجلجل بطوفانها. نسترق السمع من حين إلى حين. ممرضات كئيبات. يستيقظ الإخوان فأحس أن في أصواتهم وحركاتهم نوعاً من الإرهاق الحاسم يلون ملامحهم بألوان شهباء فاترة متميعة فتمسح وجوه المرضى بمسحة غجرية وحشاء تقفل كل نفاذ إلى السعادة أيما أقفالٍ. إخواني في تجاهل تام. وعند بزوغ الشمس يتضاعف ضجيج الحشرات الحائمة حول حلقات خيالية أو شبه مرسومة في الفضاء نظراً لغليان الأشعة الشمسية وارتعاش أوراق الحديقة المتساقطة على زجاج النوافذ فبدى للوهلة الأولى وكأنه مطلي بطلاء أبيض على كونه مبرقشاً بشتى الألوان المثيرة حيث يسيطر فيها الأصفر والأزرق على سائر الألوان. أما الأصوات المختلفة التي يصعب

تحديدها فقد كانت هي هي تلك التي اعتدنا عليها (المرش، المغسل، تنظيف الأثاث، سقي البستان، غسل الأواني في المطبخ، قرع قطرات المطر على النوافذ وأوراق الأشجار إذا سقط في أيام الصيف مصحوباً بالرعد والزوابع مما يلطف بعض الشيء من استعار الجو المحرق إلخ..) أو الروائح الفاترة والطرية المنبثقة من الفورمول والكافور والعقاقير الأخرى التي تستعمل في بيت الغسيل المجاور، والكحول المخمة المغثية، والخبز العابق بتلك الرائحة الخاصة التي تميز الخميرة، والخميرة التي تنتفخ تحت وطأة الجو المحمض الملتهب، والأواني التي تسخن فيها القهوة الممزوجة حليباً فيفوح منها اليود والحديد، والدهن المتقشر المتساقط من الجدران المنهارة تحت ضغط الحر المقذع والذي يحرق كل شيء عبر آلاف الإشعاعات المناسبة في الأشجار والأزهار، مفتتة ذاك الملاط الأصفر الذي يكشف عن تلك المسامير الصغيرة المصدأة المغروزة في الخشب الزافر رائحة كريهة وهو عبارة عن مزيج من الكبريت وصمغ البطم، ما بين الصدأ وخلاصة اللوح المجفف. لا شيء يخيفنا ويرعبنا قط. فلا ألف علينا من عملية الاستيقاظ الصباحي هذه.

وما أن نستفيق حتى تتبدد أحلامنا تلك التي لم يتحقق منها غير اليسير اليسير مما يزجنا في حالة من الاندهاش المبهمة يحفها خليط من الألم والضباب. ولكم كنا في حاجة إلى الكثير من الحيطة والإمعان في الانتباه المتمركز

لاسترجاع اتصالنا بأجسامنا التي أرهقتها وأسحقتها الاستيهامات والكوابيس والانمساخات الغريبة التي ما انفكت تفرض سيطرتها علينا الليل كله، ولاسترجاع اتصالنا بالأشياء المزدحمة في عقولنا ازدحاماً تبهرها بلمعانها. الضوء يلتهم كل ما يصادفه ويحرق لحانا المزرية فنعمل على ترطيبها بالنفخ عليها ساعات طوالاً في حركة جماعية متسابقة مما كان يبهر ممرضاتنا وقد كان يذهلنهن هذا التصرف المفاجىء كلما استيقظنا على حين غرة وبدون سابق إنذار من خمولنا البدائي.

لا شيء يساعدنا على الخروج من هذه الحالة الضبابية ما عدا نشيش الماء المتقاطر على شنب المغاسل ذات الحنفيات الفاسدة وباستثناء تراكم وتزايد وتفاخم الألوان ذات النسيج المتموج تشطب الفضاء وتحطمه فتبعثره ذرى من آلاف الشظايا يتخالط فيها النور والديجور فيتلاحقان ويرقطان المحيط كله، وباستثناء تلك الروائح التي نلم عادة بمصدرها فتصدع رؤوسنا ولا نجد لها دواء يحد من آلامنا وعذابنا، وأخيراً وباستثناء حركة الممرضات المتهايجة وهن في ذهاب وإياب مستمرين وأخذ ورد مطردين بوجوههن القبيحة الخنوعة المتملقة والممرضين العمالقة الصناديد الذين لا يصلحون لشيء إلا لمباغتتنا ونحن في تآمر وتناور وتشارو لوضع خطة نرمي من ورائها إلى قتل مدير هذا المرسطان المسمى ـ يا للغرابة. «الدير» ـ خلافاً لكل منطق، وقد بني على حافة هضبة، وسط منحدر لا يتوقف

إلا عند أقدام بستان معشوشب غاص بالنباتات الرهماء حيث مشارف المدينة تترامى يمنة وهيجان البحر الشاسع يتصاعد يسرة. لا شك أن هؤلاء الأشخاص يعكرون صفو حياتنا ويبلبلون مؤامراتنا ولا يكترثون قط بالتخفيف من وطأة الغضب والبغضاء علينا نحن الضائعين التائهين في متاهات الدوار والرؤى، معلقين بحبال أوهامنا وأحلامنا المكثفة الأفاكة. فلا نجد للتخلص سبيلاً سوى رفض كل ما يقوم به من مبادرات أولئك المشرفون فنبقى واجمين بوجوهنا القاتمة وعيوننا السابحة ولحانا الملوثة ودمالنا المقيحة من جراء شدة الحر ورداءة الفراش. فقد كان صمتنا خير معين لنا. فالهدوء والسكينة كانا فينا متوغلين في رؤوسنا المبهورة المشدوقة الممزوجة أبهة وافتخاراً وهيلمان أفكارنا تتدفق وتدور وتغلي فينا غلياناً وتسيل فينا سيلان المني الدبق المهيار. ولم يكن بمقدور أي شيء أن يدفع بنا خارج مخيلاتنا وخارج ما في الحقيقة المدركة بعد فوات الأوان من عجائب وغرائب وذلك عبر تلافيف عقولنا المنهارة، وإذا بنا نسلك مسالك ملتويات متعرجات تصل بنا عند بلوغ أوجها وعبر واقع هزيل قذر إلى فتح فواهات ضخمة حيث يصبح الهذيان مجرد مبرر لتجميل محيطنا الفقير المترجرج تحت وطأة النور الساطع وصخب المياه الدافقة وحموضة العجين العابقة ذاك الذي كان يختمر ببطء وهدوء وصمت فيما كانت أقدام العساسين تضرب على الأرض ضرباً ومئات المفاتيح المعلقة في الزنانير ترن رنات

حادة متناثرة.. أما في الليل فقد كان السراج الأزرق الفاتر يزيد من هلعنا هذا اللامعقول يتوغل في جنباتنا يتخبط فيها تخبطاً عشوائياً. فلا خير إذاك من أي شيء يرجى ما عدا الخلوة مع أنفسنا والانواء والانطواء على أرواحنا متحاشين استيهاماتنا وأشباحنا الذؤوبة التي كانت تلاحقنا مطاردة إيانا فلا يرجى لنا سوى الاستسلام إلى ذاك الهذيان الذي كان يطول سحابة الليل فإذا بنا إذا أصبحنا نجد أجسادنا منطوية على ذاتها ملتوية التواء فيما ذهبت وجوهنا ضحية عبث الموت والجنون فيها: وجوه عمياء كئيبة وقد انتهت الكآبة بنا إلى فقدان أسناننا وألسنتنا وحتى قضباننا ولا غرو إنْ حطمت العاصفة أثناء الليل وأيبست كل ذكريات الماضي بل هي تحطم كل من سولت له نفسه ركوب العذراء الوهمية المستلقية على شاطىء البحر تحت أنظار زنجي صمود لا هم له سوى حراسة ضريح أحد الأولياء الصالحين وممارسة علاقات مشبوهة مع قط سمين مترفع أنوف...

كانت الممرضة الرئيسية قد جاءت ثم انصرفت بدون أن توجه لي ولو كلمة واحدة. مرت غاضبة حاقدة. كنت البارحة قد لاحقتها ملاحقة ضارية رافضة أن تقبل بصحة حكاية حفل الاختتان مما حدا بها إلى الرضوخ لعنف هجماتي فيما راح أصدقائي يتهكمون عليها لا كراهة لها وإنما لإسعادي أنا، معبرين بذلك عن إعجابهم بي ومحبتهم لي مما دفعني إلى الاستياء منهم ومن مذلة موقفهم الخنوع

هذا الذي جعلهم يحاولون بذل قصارى جهدهم للتظاهر كالمرائين بمنطق طبيعي للغاية يتصرفون على نقيض مما كنت حرضتهم عليه كي يبدوا مزيداً من التمرد والهذيان. وعبثاً حاولت فقد ذهبت محاولاتي كلها أدراج الرياح وقد رمت دفعهم في اتجاه تلك المخالطة الرائعة التي يتبنفسج فيها المخ بملايين ألوان النحل (المتهيج تهيجاً والغائر غوراً والمتهجم تهجماً) وملايين أحمرة قبان (السمينة الرخوة) فتقع في هدير وأنين وصريف وصرير في خضم حركة متواصلة مستمرة سرمدية تذهب بعقول أصدقائي المجانين المعتوهين فيتهورون متدحرجين في زلزال جهنمي حيث يمحى من ذاكرتهم كل شيء ويذوب شبحهم وظلهم ذاك الذي يتراءى لهم في لمحة بصر ينعكس في مرآة خزانة ما برح بابها يترجرج ويصرصر مما آل بهم الأمر إلى التبرم في صداع أليم في الرأس وهلع مخيف في الجمجمة المريضة الطيعة، علماً بأن الجنون السليم المطلق والبنفسجي من شأنه وحده أن يساعدهم في القضاء نهائياً على وساوسهم وهواجسهم ومخاوفهم وعلى اكتساب صلابة وعنهجية لا مثيل لهما عوضاً عن هذا الخنوع ليس بالنسبة للعساسين ولا للممرضات ولا للمدير المختفي دوماً وأبداً وراء نظاراته الشمسية المتخنثة، بل بالنسبة لأحد إخوانهم اتهم باطلاً بجريمة إغراق فتاة حسناء عوضاً عن أن. . . عوضاً عماذا؟ عوضاً عن أن يمرر لسانه على وجهها فيمسح الدم المتسايل على بشرتها الناعمة بعد أن لطخها الزنجي به أمام

أعينه هو الذي ما كان قد فقد بعد وعيه الذي فقده فعلاً نتيجة ما أضناه من الخوف من عصبة أبيها، التي قد تبرز فجأة أمامه فتلاحقه جارة وراءها جحافل الأسلاف وقد ضايقتهم جبائبهم العريضة الفضفاضة، يركضون متعثرين حاملين عصيهم الغليظة المسمرة وأمواساً كانوا قد اختلسوها من الجزارين وبندقيات للصيد لا تطلق أكثر من طلقتين متتالتين، يعدون مشجعين بأصواتهم بعض العساكر الهرمين المتساقطين، المتهرولين، المتأخرين، وبعض الشيوخ الذين راحوا يعرجون في البيداء والقفار، لاهثين، حانقين، كافرين، وبعض الأنصار العميان الثائرين، الشاتمين، مهددين أصحاب المجون وأساتذة الفلسفة اللعينة التي لا عاقبة لها إلا سعير جهنم الملتهب إلخ... ما الحيلة لاستنهاض إخواني لإقناعهم بأن لا مجال لهم سوى التمنطق بالحقد الأساسي الذي لا بد من تشهيره في وجه السلطة الموزعة توزيعاً حذقاً متستراً في أنحاء المستشفى جميعاً؟ وما الحيلة لإفهامهم أني غير راغب في شفقتهم على مصيري وحياتي؟ بل جل ما في الأمر أني مطالب إياهم بالتخلص من هذه الشفقة التي ما زالت تملأ عيونهم وترتسم على محياهم. لقد خيبوا أملي ما بعدها خيبة إذ رأيتهم يتفاعلون الإزدراء والتهكم مجاملة وتعبيراً عن المحبة والأخوة ليس إلا. فتظهر ظاهرة الضعف هذه ليس في الصباح حيث تكون الأمور راكدة في شيء من الخمول على ما يتصاعد من زوابع طرادات المياه وروائح المطبخ

ومأكولاته، بل بالأخص عند حلول المساء ساعة يسدل الليل سدوله.

لقد غضبت نادية علي لتلميحي البارحة إلى تلك الفتاة (التي ابتلعها البحر ولم أتسارع لنجدتها وقد كانت الشمس تضرب على دماغي ضرباً والرعن يوغلني في متاهات منغصة حتى إذا ما قمت بأي حركة تبينت لي وكأنها مبالغ فيها مثيرة للضحك وقد وقف حارس الضريح الذي أظهر عناية فائقة بكل ما آتي به من أقوال وأفعال مسمراً مكانه لا يتزحزح (الماعز، ماذا حدث له؟) ويبقى هكذا في وقفة انتظار طغى الألم عليه والإرهاق بشفتيه اليابستين المشققتين المتضخمتين لشدة القحط والحر، فيما راحت عشيقتي تدخل في خضم المياه الخضراء بعدما اختطفتها من القبيلة المشؤومة لتغسل وجهها الملطخ بالدم الذي بدأ يتجفف في ملتقى الشفتين ومفاصل الجفنين) ولشدة ما ملت نادية من هذه الفتاة فما عادت تتحمل حتى مجرد الإشارة إلى اسمها. وكنت أجد لذتي واغتباطي وأنا أمامها أرى نهارها يضيع وأعصابها تنهار فتبدو قبيحة الوجه منحطة الجسم مرتخية لكثرة ما شوهته آلاف الأيدي المتلمسة المتحسسة الباحثة عن النشوة والوجود والذوبان وأشياء من هذا القبيل كانت تبغي تقدمتها لعشاقها المساكين وهي جاهلة لها كل الجهل لا تفقه منها فتيلاً ولا تدرك ذروتها وارتجاجها، على أنها كانت لا تنفك تحاول إغراء الرجال تحت ضغط الغم والقنوط مخافة أن ينفلت أولئك الشبان

من أيديها فكانت تحاول اجتذابهم وافتتانهم، وقد كانوا في إيلاج فرجها رافضين يأبون التلاعب بجرحها المستطيل المترهل وقد عاثت فيه القضبان فساداً دخولاً وخروجاً (دخل خرج ربي فرج، هكذا كان يقول أولاد الكتاب كلما عثروا على الطهار في أحد المواخير) بدون ما جدوى فالممرضة وانية، باردة كبطن البزاق (أبو عريان؟) الملتصق بعشب أثرجه الجليد في أيام الطفولة صبيحة أحد الأيام الشتوية المصقعة. هل أسمرها على عمود التشهير أم أرأف شفقة بها؟ وأقف متردداً لا أعرف ما أفعل فيما كان أصدقائي يتناعسون كعادتهم يتغافون أو يعانون من نوبة هستيرية على الأرض يتخبطون ورؤوسهم على الرخام يقرعون وأفواههم يشرطونها تشريطاً همجياً. في الحقيقة فقد كانت رئيسة الممرضات تغار من سامية التي كنت لا أنفك أشير إليها وإلى جمالها وذكائها مما كان يسدي ذلك عليها مظهراً أقرب ما يكون إلى الجرادة التي صعقها مبيد الحشرات فجأة فأوقفها عن الطيران.

ويحدث أن تفقد بعض الأحيان زمام الأمور فتحاول اختيالي وإغرائي زاعمة أنني وقعت في قبضتها وما علي إلا الاستسلام والرضوخ ململية شروطها علي وقد أخذ الزهو منها مأخذه، مؤكدة أنه علي أن أرجع الهدوء إلى القاعة وأن أكف عن التحليل النقدي للقرآن الكريم أمام أصدقائي المبهورين إبهاراً فأمتنع عن كل نوع من أنواع البلبلة والتحريض على السلطات الصحية كما أنه علي الامتناع عن

ذكر خرافة حفل الاختتان وأسطورة تلميذة الفلسفة الفاتنة التي فضضت بكارتها على أحد شواطىء البلاد المتعددة.. وإلا لما تركتني بل وشت بي إلى أعضاء العصبة السريين (أ.ع.س) في المستشفى، أولئك الذين ما وجدوا هنا للبحث عن تلك الفتاة الخيالية التي أبدعتها استيهاماتي وتخيلاتي الأسطورية بل لأسباب أخرى تفوقها أهمية وجدية. وقد كانت تبرر موقفها هذا فازدادت ثقة بنفسها منذ أن عثرت في يوم من الأيام التي راحت تفتش فيها باحثة في درج خزانتي على صورة الراقصة المصرية سامية جمال التي ظهرت فيها عارية بجسمها الشبقي الهفهاف. تلك الصورة التي حملت على ظهرها جملة كانت قد خطتها الراقصة الشهيرة بيدها. وإذا بنادية تذهب في التأكيد أنني أصبحت الآن في قبضة يدها وتحت رحمتها متهمة إياي بانتحالي اسم الراقصة متخذاً منه حجة لإقناع الناس عن حقيقة مزاعمي في تلك الفتاة ذات الحسب والنسب والتي افتتنتها على شاطىء صغير خالٍ لا يسكنه إلا ذاك الزنجي المتقشف المتنسك الذي ما زال يحتفظ بطقوس العشيرة الغابرة وبتضاريسها اللاهوتية. وتستطرد قائلة أنني ابتدعت هذه الخرافة لا لشيء إلا لسقوطي في حبال إحدى التلميذات فلا أقبل بالبوح بذلك قط وتسترسل مصرحة بأنني في الحقيقة كنت مولعاً بالراقصة سامية جمال تلك التي اكتشفتها عبر أفلام شبه إباحية كنت أشاهدها في إحدى قاعات العرض الصغيرة القذرة في أيام الطفولة حيث

كنا نشاهد أفلاماً مثيرة نصفر أثناءها لأدنى تلوية خصرة للراقصة، أتفرج فألوك حبات الفول السوداني بنهم وفجع فائقين فأكاد أختنق وأسعل متربصاً عقب سيجارة يرميه أحد الفلاحين المتعربدين على الأرض فأنقض عليه قبل سحقه انقضاض المتلهف. . ولكن أين الراقصة من التلميذة ذات الوجه الملطخ بدم الماعز وقد ذهبت الآن فريسة الملح والمياه اللذين تآكلا جسمها المنتفخ وقد أصبحت بشرتها مجعدة ملوثة بعد أن كانت ناعمة وقد برز الآن عظمها ممزقاً ولحمها ممرثاً وشعرها معطناً. ولعل البحر لفظ جثتها الآن. من يدري؟ إذن تهددني نادية بفضح أسراري أمام إخواني المرضى الآخرين الذين ما أن سمعوا قصة حبي حتى تحمسوا لها وقد كنت أسردها عليهم على طراز الخرافات والحكايات. تهددني بفضحي فأفقد إذاك كل نفوذ عليهم وسلطة. وكثيراً ما كنت قصتي تؤثر فيهم فيأخذون بالبكاء والعويل فلا أضع لهما حداً إلا مؤكداً لهم قاسماً على أن الأمر لا يتعدى كونه كذباً وتلفيقاً. وما ألبث أن أعيد الكرة وأنفي أكاذيبي فيجد رفاقي في هذا الأخذ والرد بين الواقع والخيال غذاء لعقولهم وانشراحاً لصدورهم، فيتمسكون في نهاية المطاف بكلتا الروايتين اللتين أرويهما عليهم لهذا الحادث الطريف الفريد من نوعه. وهيهات أن يعارضهم فيه معارض فهناك العنف والتهكم والتهجم، فيسود الهذيان القاعة ويحدوني الأمر إلى اغتنام الفرصة فأكيفه على طريقة إخراج مسرحي. ويحتذر المدير من

تهنئتي لعلمه بمسؤوليتي في تلك المؤامرة التي إن هدفت إلى شيء فإلى شنقه في أعلى إحدى شجرات البستان شنقاً.

ولعل نادية توصلت إلى إدخال الشك في صدري فإذا بي أقبع جاثياً واجماً فأبقى هكذا أياماً وأياماً على حالتي غارقاً في بحر من الحيرة والرهبة تفقداني سكينتي وسكوني: (هل قتلت سامية يا ترى؟ من يدري؟) وليس بإمكان أحد أياً من كان أن يرد على سؤالي هذا. فأسقط في وجوم شامل فأحس وكأن دباً قد استقر فيّ بين طيات جمجمتي المثلجة سابتاً فيها. فتخور فيّ كل حيوية. وتهبط القاعة في فخ الطاعة ويقبل المرضى على تجرع الأدوية التي تقدم لهم قانعين والرضى بالحقن التي تغرز في مؤخرتهم الأمر الذي كان يحدو بنادية إلى التخوف من حالتي هذه وعوضاً عن أن تعبر عن فرحها وانتصارها كانت تغوص في بحر من الحيرة والنغض وكنت أنا أشكو من فجوة في الذاكرة وسبخ في الحركة. وإني لفي هذه الحالة حتى كنت أغالي فيها متعامياً فأعبر الأيام عبوراً ضبابياً هيامياً.

ولقد ذهبت رئيسة الممرضات في وعيدها إلى تهديدي بفضح أسباب دخولي المستشفى أمام أصدقائي المجانين المحبوبين. فأتركها وشأنها لا أبالي متسائلاً عم سوف تبدع يا ترى من تهديدات؟ وإذا برفاقي يقرأون القرآن ويسبحون الله بسبحتهم ويطلقون العنان لعباداتهم وتصوفهم. وإذا بالحياة في المستشفى تكرر سبحتها المملة العادية.. رائحة

الكافور الفواحة. شراشف بيضاء ألقيت على وجوه من تجرأوا على مفارقة الحياة خفية كمن بولوا في سراويلهم في وسط المدينة في ساعة راحت شمس الزوال تحطم إزريراق البحر فتحوله إلى أخضر داكن مرقش بمفرقعات بيضاء. هنا رجل يحتضر. وآخر في المرحاض يصرخ هاتفاً أن روحه تخرج من أسته. صمت كثيف ثقيل يهيمن في أغلب الأحيان على القاعة يليه من حين إلى آخر صخب مائج هائج. قلق يضرب على حافة الرؤوس فلا يجرؤ أحد على القهقهة لوفاة أحد الأصدقاء الأعزاء. كان قد توفي وما كان لأحد منا من الشجاعة بحيث أنه فكر بالسهر إلى جانبه في غرفة غسل الأموات. كتب لي أبي رسالة. يبغي زيارتي. لم أرد عليه. فالطريق أمامه مفتوحة والعنوان معروف. يا للداهية. لقد نسيت اسمه ولم يعد يطفو على سطح ذهني سوى لقبه المستعار: جحا. اسمه على جسمه. يبيع السمك بحي المصيدة. ولا يكف عن تدخين الحشيش حتى إذا مل صد قاربه وراح يقتحم عباب اليم. إنه لا يعزف عن دهن زورقه بشتى الألوان. صحراوي ينشد أغنية كئيبة حزينة. وإذا بالأسى يستولي على فؤادي لمجرد استماعي إلى النغمات. لقد علمت منذ البداية أن جحا هذا ليس بأبي. أما هو فلم يعترف لي بالحقيقة: ليس حياءً أو احتشاماً. فالرجل غني عن مثل هذه المثل والمشاعر بل لأنه يكن كل كراهية لسي عمر.

هددتني الممرضة مرات عديدة. هذه المرة قالت لي:

سوف أفضح سرك لشركائك في انتشارك البلبلة والتشويش. أأقول لهم إنك حملت إلى المستشفى بعد محاولة انتحار أقدمت عليها؟ أأقول لهم إنك قطعت عروق معصميك بشفرة من نوع «جيلات»؟ فتركتها تلغو وتلهو وتبربر. أحد لن يصدقها إذا ما راحت تسكب الأكاذيب الواحدة تلو الأخرى. لن يخوفني أصدقائي. بل سيقهقهون وسيصعدون التهريج إذا ما سولت لها نفسها أن تبوح لهم بهذه الخرافة الجديدة وسيحاولون إثارة غضبها واستثارتها. لقد علمت نادية (من الواشي؟) أنني حاولت قتل نفسي بعد فشلي في علاقة غرامية كانت تربطني بإحدى تلميذاتي التي ما كانت تحمل حتى اسم سامية بل تحمل اسماً آخر صعب علي الاحتفاظ به في ذاكرتي المترهلة. وإذا بنادية تأتي وتصارحهم فجأة بالأمر: «لا يهم لقب هذه الآنسة التي سقطت في حبال حب السيد صاحب القلم الذي تعود على كتابة رسائلكم لذويكم. فتفشون له عن أسراركم الحميمة ومشاكلكم العائلية حتى يتمكن من تحرير جواباتكم الثرثارة، يكيفها على هواه، فلم يعد بإمكانكم أن تجرأوا ـ اعترافاً بالجميل ـ مصارحته بحقيقة أمره لشدة ما تذهلكم سلامته اللغوية وسهولة فهم أموركم المحرجة، ولم يبق لكم بعد تحريرها سوى بصمها بإبهامكم». لعل إخواني فهموا أن الفتاة المعنية كانت قد تركت صاحب القلم (أنا؟) وعادت إلى أهلها نادمة تائبة فاحتوتها عائلتها سترة للفضيحة وتحاشياً العار.

أما حادثة انتحاري المزعوم فقد جرت حسب اداعاءات رئيسة الممرضات هذه في الفترة ذاتها التي غابت أثناءها سامية. وقد أودعني رجال المطافىء على حد زعمها المستشفى. ماذا أقول؟ كنت أغرق في الضحك عند استماعي مثل هذه الترهات. على أنها كانت تصر على موقفها متعنتة لا تتزعزع قيد شعرة. جل ما أعرفه أنني درست الفلسفة في مدينة صغيرة لا تبعد عن العاصمة كثيراً. وإني أصبت في يوم من الأيام، وقد كنت على إحدى الشواطىء الخالية النائية، بضربة شمسية، كما كنت على علم بأن بائع السمك ـ جحا الحوات المولع بالموسيقى والحشيش ـ لم يكن أبي الحقيقي، إنما أبي هو سي عمر زوج خالتي مليكة. لم تكن الأمور المتعلقة بهذا الشأن قد توضحت كل الوضوح لكنني كنت على يقين من المكيدة التي كان قد دبرها أبي الحقيقي، أي سي عمر ذاك التاجر الثري. إني لم أبح بسري هذا لأحد اتقاء تأويلات الأطباء وممرضات هذا المستشفى، فلا يتورعون عن اتهامي بالولوع بالكذب. لقد كان طاقم «الدير» ـ بمساعدة نادية ـ قد تيقن من مرضى هذا انطلاقاً من الصورة التي اكتشفتها للراقصة الشهيرة في جيب سترتي. فإذا بهم راحوا يتبجحون متهكمين وإذا بي أقبع في زاويتي متربصاً لا أفوه بكلمة فيما رأيتهم يتبخترون منتفخين كبرياء وغبطة يتذرعون بيقينهم فرحين من كونهم تمكنوا من تشخيص مرضي العضال منذ البداية: مرض أصورية. فذهب الأمر بالبعض إلى نفيهم

محاولة انتحاري لشدة ما كانت نادية قد أثرت فيهم وقد ضرب سوء النية والغدر فيها أطنابها فراحوا يتساءلون فيما لو لم أكن قد تظاهرت بالانتحار لجلب أنظار أبناء البلدة إليَّ تلك التي كنت أعمل فيها أستاذاً لا غرض لي سوى تكسير حلقة الرفض التي راحت تطوقني بها منذ وصولي إلى هذا المكان. وقصارى القول فقد راحوا يتهمونني بتدبير عدة مكايد إلا أن نزعة الحذر المفطورين عليها حالت دون اتخاذهم أي قرار في هذا الشأن فما كان مني إلا أن أصبحت لهم معادلة مستعصية تجاه تصوراتهم المتحجرة ومعاييرهم الآلية. حتى إذا ما رآني أحدهم اعتراه التردد والحيرة فارتسم على محياه شيء من اللامبالاة المتصنعة. كانوا ماهرين في اللجوء إلى ما يؤول بي إلى الرضوخ والاستسلام فيسودهم الارتباك ويعيل صبرهم، فلا يدرون ما يفعلون، الأمر الذي آل بهم آخر الأمر إلى التآمر ضد نادية متهمينها بخلق جو مثير حول شخصي لأغراض ذاتية محضة. كنت ألاحظهم من بعيد وهم يتنخمون لإخفاء إرباكهم بدون ما جدوى. كنت أعاني في رأسي من تراكم النعاس وفي صدري من الغثيان. وكانوا هم يطوفون حولي وحول هذياني. وكانت الأشياء تتراءى لي غامضة مبهمة. غامضة أيضاً حوافي الأجسام والأرواح وأطرافها. وجوه هزيلة. أجساد نحيفة نحيلة. أشخاص يكادون يفقدون التوازن ويسقطون أرضاً. وكانت الأشياء تبدو وكأنها تفرفر متموجة في جو متدفق لهم مد يتلون بسرعة فائقة مثلما

يحدث الأمر في حلم مزعج رديء فما عدت لأتحمل أي خيط من الضوء بل رحت أشكو من تهرؤ في الأجفان. حتى إذا ما تغلب النعاس علي في النهار رحت أحلم بأن أمي قد توفيت هناك في مدينة أجنبية يصعب بلوغها. كما كان يسود الارتباك أصحابي إذا ما رأوني أتبختر بين الأسرة مشهراً عصا بيضاء حاملاً نظارات شمسية ولحية كثة. كنت قد قررت آنذاك رسم ابتسامة حمقاء على وجهي الذي تآكله الأرق وفقدان الذاكرة. وما حيلتي وأنا عارف أن العصبة تلاحقني وتعدو ورائي تسلبني حقي في الحب، وفي حب سقطت في حباله لإحدى الفتيات علمتها احتقار بعض العادات البالية التي توارثناها من الأسلاف وهي بمثابة كارثة لنا؛ وكنت قد علمتها ذلك داخل ضريح تقطنه روح عجوز ممسوسة (زوجة الزنجي؟) كما لقنتها أن تكنَّ الكراهية لجحافل الردة والإقطاع أولئك الذين كانوا يعدون وراءنا عبر أشجار الصنوبر والخروب المحترق التي ترسخت صورها في ذاكرة الطفولة وعبر الصوان والأعبل في قعر الأودية التي نال منها الجفاف من شدة القحط والشمس والرياح العابقة برائحة شجيرات البهار وأعواد القرنفل وحبات السوسن (أي حب يمكن إبداعه لأبهر شرذمة الأطباء والممرضات؟).

وإذا بالقوم يوشوشون حوالي وهم يخشون أن أقوم بمحاولة انتحارية جديدة. وإذا بنادية تصرح لرفاقي أنني على وشك الإقدام على محاولة أخرى أو على أهبة

الاستعداد للتصنع بمثل هذا التصرف. فيأتي أصدقائي من ورائها فيبوحون لي بالسر. فنغرق بالقهقهة ملء أشداقنا وتهيج القاعة في ثورة عارمة وأحد لا يفكر في وضع حد لمثل هذه الحالة. فيفهم المرضى أن الطاقم الطبي وشبه الطبي إنما يمثل خطراً حقيقياً يهدد صحة المجانين العقلية. فإذا بهم يرفضون تدخل أي امرىء في الموضوع إذ أنهم لا يشعرون بوجودهم إلا داخل بوتقة الهذيان. ولذا فلم نترك لأعدائنا أي مجال ليتصرفوا كما يشاؤون بل قررنا تصعيد الأمور إلى أوج ذروتها فينبجس كل منا عبر الجنون ويبلغ إذاك ذروة الوعي بحيث يضطر أطباؤنا ومعذبونا وجلادونا للالتحاق بنا، أي أن يدخلوا هم أيضاً في خضم التيه الصرف، فقد كنت أغتنم الفرصة فأصيغ خطاباتي بطريقة تهكمية لتحريض الجماهير في المستشفى على التمرد في وجه الممرضة الرديئة الوانية التي اختقت فجأة تهرباً من ردود فعلنا ومن قرارنا الذي اتخذناه على اغتصابها إذا ما مست بأقدامها عتبة قاعتنا. وإذا بالأمر يحدث في يوم من الأيام فينقض المرضى عليها ويغتصبونها وما كان منها إلا أن انتابتها نوبة من الضحك مزعجة للغاية ذهبت إلى النيل من قوانا وعزيمتنا وقدرتنا الجنسية مهلكة أعصابنا ممزقة إياها تاركتنا مرتبكين مترددين نتيه بين الرغبة في قتلها والرغبة في ولوجها بلا شفقة ولا رحمة بحيث تتخبل الألوان أمام عينيها. على أن هذه النوبة ما كانت لتعبر في

الحقيقة إلا عن قصورها الجنسي فقد كانت تضحك بطريقة شيطانية هي أشبه ما تكون بالندب والصراخ والعويل.

وإزاء هذا الفشل الذريع المتواصل فإذا بنا نهددها بسلخ جلدها (وكان بيننا جزار اختصاصي في هذه الأمور كان يعمل في مسالخ الدولة وقد حكم عليه بالإعدام فقضى حياته بين السجن والمعقل وبين القلعة والديجور. كان الرجل ذلك العملاق الملتحي الذي تمكن مرة من الهروب من السجن المؤبد متنكراً بزي رجل من رجال الدين المتعصبين القصيري النظر، وذلك بغية معانقة جثة عشيقته الرثة. وما أن دخل عريننا الغاص بالمنافقين الكاذبين المرائين حتى فهمنا أنه كان أكثر من الجميع نزاهة وعفة وتلقائية وسرعان ما التحق بزمرتنا وشارك في اللعبة فكان هذيانه من أروع ما شاهده المستشفى من أنواع الهذيان بصوره الفاخرة وألوانه الزاخرة. فقد كان يغرق في برنسه البالي وكان العث والزمن قد أكلاه. وقد كان يتصور أن الثلج يتساقط ولا يكف عن التهاطل رغم ما كانت الشمس عليه من حرارة والحر من حزازة، فقد كان يخلط بين الأمور والأشياء وبين الأمكنة والأزمنة كلها. كان بدين الجسم، مصراد المزاج، معتوه البال، يتحدث عن قناطر الثلج ووديان الدم، ولشدة ما كثر هذيانه كان يخيل إلينا أن الدم كان يتساقط بغزارة على الثلج الناصع البياض، فتتوقف حركة المرور وقد راح الثلج (أو الدم؟) يكسو الحافلات ويغطي السيارات وعربات الترامفاي التي أخذت عصيها

الكهربائية تتعطل فتبقى معلقة في الفضاء بين الجو الأزرق وهيكل المدينة الأبيض، بمنازلها وشوارعها وحدائقها حيث تتأجج الأضواء وتتكسر فتاتاً فتاتاً مما جعل المشهد خلاباً يستولي على ألبابنا؛ وفيما راحت الحركة تتباطأ كما يتم الأمر في الأفلام القديمة أو في الكوابيس الأصيلة. كان العملاق الذباح يشير إلى قريته المشهورة بثلوجها المتهاطلة خالطاً بينها وبين المدينة حيث يقام مستشفى «الدير»، تلك القرية التي اقترف فيها في القديم جريمة شنعاء على شخص حانوتي بائس. فكان يبكي الساعات الطوال ليس لهول الندامة بل لعمق خيبته إذ أنه لم يجد في الدرج أي فلس وقد كان يتصور ـ يا للأحمق ـ أنه سوف يسطو على أموال طائلة تمكنه من الزواج بتلك المرأة التي كان يحبها حباً جنونياً وقد ماتت حسب زعمه من فرط ما اعتراها من الشجون بعد أن ألقي القبض عليه ودس به في قلعة رهيبة. وكنا نحن على يقين بأن السيدة ما زالت حية ترزق وأنها متزوجة برجل ثري يؤمن لها حياة رغيدة هنيئة سعيدة...) بدون شفقة. لقد أنذرناها مراراً وهي وقد كانت تدرك كل الادراك بأنه بإمكان الذباح أن يرتكب جريمة أخرى. كان هذا كثير الحس، رهيف الشعور، يكن لي أطيب المشاعر، وقد كان يشهق ويبكي كلما قصصت عليه حكاية غرامي لسامية التي ابتلعها البحر منذ أمد طويل، وقد كان الماء والملح قد شوها وجهها الرائع بعد ساعات قليلة من اطلاعها على ما يحتوي عليه جسمها من نار متأججة بين

فخذيها. وإذا بالذباح يقول: «أواه يا جماعة، عمري ما أبريت من هذيك اللوعة». وأجيبه بدوري: «وأنا كذلك ما زالت نار الحب تحرق جوارحي...» وقد كان كلامي ضرباً من المجاملة ليس إلا، ذلك أنه كان بيني وبينه شبح ذاك الحانوتي المسكين ينتصب حاجزاً بيننا: فكلما أردت مصادقته مصادقة جدية تذكرت كيف ذبحه وسلخه فقتله شر قتل. وإن هو ندم فلم يندم عما فعل وقد اقترف ما اقترف بكل برودة أعصاب، بل كان يندب حظه التعيس لأنه لطخ الثلج بدم المذبوح وخراه ورعامه بدون ما فائدة. أفما كان تحت وطأة الحشيش يا ترى يومها؟

كانت نادية على حذر دائم منه متيقظة لما كان يتهددها من خطر من قبل صديقنا الذباح ففقدت هكذا ميلها الهستيري إلى الإغراق في نوبة الضحك التي كانت تنتابها من حين إلى آخر. وعلى الرغم من هرمه فقد كان صاحبنا قادراً على كل شيء وما كان ليكف عن البكاء على حبيبته ظناً منه أنه مر على وفاتها ما يناهز العشرون عاماً. وإذا بالغثيان يباغتني فأتقيأ ما يتاح لي من مر وأصفر فأبقى هكذا مثلج الجسم لا أصدق نفسي متذكراً ما كان يرويه علينا ذاك الذي كان عاملاً في مسالخ العاصمة. صراع وأزيز وزطيط في الرأس. أرق واستيهامات وتهييمات. فأتخيل وقد كان الليل قد جن جنونه أن الحانوتي ـ أو شبحه ـ المسكين يدخل القاعة على ضوء سراج أزرق خسيساً متأبطاً رأسه على طريقة الطيارين الحاملين قبعاتهم

تحت إبطهم قبل الانطلاق، ثم يطوف حول القاعة وبين الأسرة. فيأخذ في طلب الصدقة مستغيثاً المرضى واحداً واحداً. عندها يضيق صدري ويعيل صبري فأنطلق كالمهووس وأترك فراشي صائحاً صارخاً خالطاً بين نادية وأمي وبين أمي وسامية ثم بين أمي وعشيقة الجزار التي تحولت إلى صورة الحلاق الذي ختنني وأنا طفل صغير وقد كان جاحظ العينين، حامز اللسان، دبق الجسم لا يفتأ يتصبب عرقاً. كما كنت في بعض الأحيان أمزج بين الختان والمؤذن والعكس بالعكس إلى أن ينتهي الأمر بي إلى السقوط على الأرض مغشياً علي. وإذا بالظل يتضخم حتى إذا ما غمرني شيئاً فشيئاً فقدت وعيي وسقطت في بئر عميقة عميقة لا نهاية لها.

وما تلبث أن تعيد رئيسة الممرضات الكرة يوم تلاحظ أن علاقاتنا مع المجرم قد تعكرت وأعصابي توترت فيركبني الهول وأصيح في وجهه غاضباً: «يا قتال الروح وين تروح؟» فترتسم على وجهه ملامح رهيبة وتقصر قامته العملاقة وتنهار قوته الأسطورية: «مجرم». كلمة أرددها بمزيد من البغض والشتيمة مما كان يولد في الرجل الانزعاج ويدفع به إلى التقهقر. وإذا بنادية فجأة تبرز راكضة وتدخل الغرفة لنجدته وإغاثته بعد أن أخبرها أحد الواشين عما جرى فتتظاهر لطيفة مسيطرة على أعصابها مبتسمة فتجلس إلى جانبي تتفقد صحتي، مستفسرة عن أحوالي وعن شؤوني، وما تلبث أن تخرج صورة الراقصة

سامية جمال بسرعة البرق وهي تنطق باسمها باللهجة القاهرية وكأنها ولدت في حي السيدة زينب أو خان الخليل، فتضرع متوسلة طالبة أن أقر بالحقيقة فأنزع القناع عن وجهي تاركاً خرافة الفتاة والاختتان والخليج على شاطىء البحر والضريح والزنجي المضطلع بتقاليد الأسلاف والقط الأبيض المدلع ومحاولة الانتحار المزعومة وحتى التحقيق البوليسي الذي تلا واقعة غرق سامية. وقد كانت ملامحها تدل على وجع وإرهاق فتباغتني المغبونة وأكاد أن أعترف لها بكل ما تشاء فتهدىء من روعها وتوترها ومن تشنج ملامحها وقد انقضت الحيرة عليها انقضاض الصاعقة على الرأس. على أنني سرعان ما أتنبه فآبى البوح بشيء قط بل آخذ بالتردد مكرراً أن أبي ليس هو بأبي وأنه ذهب ضحية مكيدة كان قد دبرها له أحد أثرياء القوم ألا وهو التاجر المحترم والملاك الكبير سي عمر. فتنطلق إذاك في حوار متكلف وملح في العديد من الأمور. غاثرة! فتكهرب الجو وما يحيط بها بعصبيتها فتبدو لي عيناها تتضخمان شيئاً فشيئاً وتشوهان وجهها إلى حد الاختبال: وإذاك تسترجع شيئاً من الجمال والجاذبية والهفهفة مما يولد فيّ الشهوة فأشتهيها وأبغي جرها إلى المقصورة الضيقة فأنكحها لتوها في أرضية المكان بين علب العقاقير المزيلة للأوساخ والجراثيم والمكانس المتسعثة فتنتابها نوبة من نوبات الضحك الهائل.

مستشفى. قيظ. نوافذ مغلوقة. أما في الخارج فسعير

وجحيم وتظهر الحرارة عقداً معقدة في الجو فتصليه وتجلفه وتكشط الذباب السابح متسرنماً في مريق ثاخن للقيلولة الفتاكة. ممرضات في ذهاب وأياب مطردين. مرضى مغفى عليهم. حفيف أقدامهن على البلاط البارد بعض الشيء. ضجر. مغالق النوافذ تجعد الأوجه وتنبىء بفوران الحر المرقوش بآلاف الألوان التي تصفع وجهي بكل عنف فيرتج له الهواء الخافق. ولكم كنت أود لو يسن الحاكم قانوناً جديداً يقضي بمنع الممرضات من المشي على الأرجل وإجبارهنّ على استعمال عربات المعاقين والمشلولين شريطة أن يشحم ويزيت هيكلها بصفة منتظمة حتى لا نسمعهن يجرجرن أقدامهن جراً. صاغت لي سامية رسالة (لعلها مجرد حيلة أبدعها الطبيب لإيهامي بأنها لم تكن لتغرق في البحر وما أصابني إنما هو ضرب من الرعن الشديد) كما أنني استلمت رسالة من خالتي ويقيني أنها أملتها وهي أمية على إحدى أخواتي تلمح فيها عدة مرات (هلواس التكرار). على أن وجودي في المستشفى إنما هو أمر طبيعي جداً. مضيفة إلى أنه كان من المتوقع أن أصاب بصداع مؤلم في الرأس من جراء تلك العادة الكريهة التي تدفعني إلى التجوال على شواطىء البحر طيلة عام بكامله. كما أن أبي قد زارني وقدم لي كيساً ملأه خوخاً وقرّاصاً. فما أن دخل حتى عبقت القاعة للحال برائحة البحر والسمك وهمست نسمة باردة وكأنها آتية من وراء الأزمنة. إنه الشخص الوحيد الذي يتردد علي. فلا يشعر بأي انزعاج

من مرضي ووهني ولا يكف عن البوح عن كراهيته لسي عمر. ينصرف وإذا بالأسبوع يتماطل ويتطاول ولا ينتهي من فرط ما يتصبب من قيظ دبق على المدينة في شهر سبتمبر. المناخ الملتهب يغير الأشياء والكائنات. تتلألأ الوجوه. كنت أسجل على دفتر ذهني حاسباً عدد من يموتون مستنداً إلى من ينقل فتحمل جثته خلسة أمام نافذتي. كما كنت أعكف على تعداد المرات التي تستعمل فيها طرادات المياه في المراحيض. فالإحصائيات هذه تساعدني على معرفة عدد من يعانون من الإسهال والمغص والقبض. يسيطر الأرق علي فلا أنام. ساهر أخوك على راحة الرفاق. إنهم غائصون في سبات عميق باستثناء أحد العمال المهاجرين الذي لم يمر على عودته من فرنسا طويل عهد. هو أيضاً يعاني من الأرق فلا يطبق له جفن. لقد نسي لغته ولم يعد يتذكر ولا كلمة عربية واحدة فبدا وكأنه فقد الذاكرة فلا ينبس ببنت شفة. وإذا روى على حياته فبالحركات راسماً على دفتر لا يفارقه ما يريد التعبير عنه. لقد نسي لغته الأصلية فراح يتيه تيهة عشواء. فقد كان من حين إلى حين يتلفظ ببعض الكلمات الفرنسية الفاحشة كان قد تعلمها وهو يعمل على حفر الأنفاق لوضع كابلات الهاتف. كان يقص علي بإشارات يرتج لها الهواء كيف فقد صوته وكيف ألم ذلك به فجأة وقد كان يتحدث مع زملائه هكذا في وسط جملة لم يتممها. لماذا هذه الصدمة؟ هل كان سعيداً في فرنسا؟ كان يسرد علي راسماً رسوماً صبيانية تشير إلى مدن

ذات الآفاق الفحمية يرذرذ عليها رذاذاً خبيثاً نافذاً، كما تشير إلى رجال ونساء يقودون أمامهم كلاباً تتوقف من حين إلى آخر رافعة قدماً، مبولة متغوطة على الأرصفة، وإلى معامل وأنفاق ودهاليز مكتظة بجماهير متهلوسة متلمسة طريقها كالعميان. على أنني لم أستدل إلى ما كنت أصبو إليه ألا وهو معرفة فيما إذا كان سعيداً في فرنسا أم لا؟

فما أن أفرغ من إحصائياتي حتى آخذ بتحرير رسائلي وتدبيجها وإرسالها إلى نادية فسامية فأبي المزعوم الحقيقي فخالتي. كنت أحاول الترفيه عنهم وتعويدهم على افتراضات يفهم منها أني سوف أموت أو أختفي إن لم أمت وذلك إلى غير عودة. وإذا بنادية تسرع مهرولة فتجلس إلى جانبي فرحة مرحة مبتهجة. وتحاول الاستفسار عن تلميحاتي وتمويهاتي فما ألبث أن أعترف لها بأنني في الحقيقة مصاب بمرض الكذب والتحريف والتشويه وذلك على أثر صدمة نفسية عانيت منها في طفولتي وليس باستطاعتي الحكم فيها بدقة عن أسبابها الضائعة في تعاريج وركام ذاكرتي المرهقة المزدحمة. وإذا بها تغتبط فيستولي الزهو عليها إزاء تراجعي المفاجئ فيذهب بها الأمر إلى تقبيلي قبلات حارة وبكل حماس فتسجل كلامي على دفترها وتتنافخ سعادة وتعدني بمقابلة شبقية في المكان المعتاد. وما أن تبلغ قمة الكبرياء والغرور حتى أتراجع بغتة فأصرح لها بأن بائع السمك الذي يتردد إلى المستشفى ليس هو بأبي فيحدو بها هذا الهجوم السافر إلى انهيارها فيخيل

إليها أن الأرض تدور وتجرها في دورانها وإذاك تعتريني الشفقة لما رأيتها وقد تسمرت ملامحها فأوشكت على الجهش بالبكاء وبزغت تجاعيد بشرتها واتضحت تهيجاتها وتقلص فمها. يا له من منظر مشجن. فتراودني للحال فكرة التراجع ثانية فأعمل على طمأنتها وتلطيف ما أصابها من قسوة في الصدمة وأتركها تنصرف والزوبعة تعصف في رأسها المسكين فتمضي مذبذبة مبهولة لا تدري إلى أي منفذ تمشي وأي مفر تهتدي. لقد بلغت الفوضى ذروتها وتخبلت الأمور وتعقدت الأحداث ولم يمنع كل ذلك أصدقائي من الغرق في نوم عميق وقد سطا الليل على القاعة مستولياً على كل أرجائها: ينامون حاملين على ملامحهم آثار جنونهم الأبدي.

لقد آن الأوان لفسح المجال أمام أعضاء العصبة السريين (أ.ع.س). في أن يشرعوا في تحقيقهم حول اختفاء سامية وتحريهم فيه.

لماذا صارحتها في موضوع أمي؟ لقد أضعت فرصة ثمينة لملازمة الصمت فيها. لكن القرص لا يؤلم العجوز. لا أخاف شيئاً، لي شركاء في الخارج. أضحكتني نادية يوم صفعتها بهذا الخبر المذهل. أشعر الآن بما أتمتع به من طاقات جبارة، هذا ولو كان أغلبية حلفائي قد زج بهم في السجون ومنهم الشاعر عمر ذاك الذي ألقي القبض عليه لوضعه قصائد ثورية تناوىء السلطة وتعادي الدين الحنيف وقد راح يحرض في إحدى قصائده المؤمنين على عدم مراعاة فريضة الصوم في شهر رمضان. أما أبي المزعوم فقد شارك هو أيضاً في اللعبة. لقد كان قصير القامة، هزيل الجسم، يبيع السمك في حانوت يهب فيه نسيم عليل تفوح منه رائحة البحر خاصة إذا ما أشغل الزوال نيران السعير المتأجج في الأزقة والشوارع فيبثها الهواء عبر ارتجاجات فلزية. أما داخل عرين بائع السمك فلا قيظ ولا جفاف بل يشعر المرء وكأن الأرضية تتموج تموج البحر، فيسر جحا

العفريت وتشتعل عينه كبرياء. على أن ولوعه بالبحر وبأشعار عمر الذي نبذته المدينة فهو يملأ قلبه سروراً وانشراحاً. فلا تهمه سخافة البهائم والجهلة. فعندما يأتيني في زيارة ينصحني بشراء مسبحة أضعها بالقرب مني أو أدسها تحت الوسادة (أحسن! أحسن!) يتهكم. يعبس. يهرج. يغرق في السعال. ثم يسترجع صوته. يترنم. إنه ذو أنف رهيف. يخرج من جيبه منديلاً من الحرير الخام. فما معنى خرافة المسبحة هذه؟ «عتاد يا بني. سلاحك في هذا البلد المنافق». ويستطرد: يقول لينين: «خطوتان إلى الأمام وخطوة إلى الوراء». ثم يقف ويأخذ في تمثيل مقولة الثوري الشيوعي. فالنظرية شيء وتطبيقها شيء آخر. وإذا به يتفاخر وكأنه اكتشف كوكباً مجهولاً. يندد بالأفكار الآلية. يعاتب الشاعر عمر وقد أصابه مرض عضال في عينه وهو الآن يتنقل من المعقل إلى المستشفى، قائلاً أنه يفرط في الحماس ويبالغ في التفوه وهو بعمله هذا يكشف للأعداء لعبته. ولكم أتقزز لسماعي فلسفات جحا. اسم براق ورجل داهية. أحبه حباً جارفاً وأكن له حناناً وإخاء. يعشق الماء (لماذا؟) والنظافة إلى حد الهوس. فما أن يزورني حتى يأخذ مكنسة وإناء ماء مصبناً وينهمك في تنظيف الأرضية تحت السرير. يظن أن الحشرات إنما تتناسل تحت الأسرة وتحتها تتكاثر. شاعر أبي وقد بلغ الخمسين من عمره. لا يكف عن الكلام في الثورة الشيوعية المحتمة التي لا بد لها ـ على حد قوله ـ من أن تنتشر في

الأصقاع. حيوي أبي أما عيناه فهما عبارة عن شعلتين براقتين ولحيته مصبوغة بإفراط ومغالاة مما يبعث فيّ الخجل والحرج والمقت.

لماذا رويت لها ما حدث في القرية وقد أكل الدهر عليه وشرب. فما ذلك إلا لبعث الذبذبة والريبة في عقلها المتهوس وقد أثقلتها مسؤولياتها كممرضة مشرفة على زميلاتها وأعطتها عنجهية خاصة وهي تظن أنها تحمل بين فخذيها حصبة محرقة. يا للسخافة! إنها تثير ضحك جحا كلما زارني فينظر إليها وهي تتوارك متموجة بمؤخرتها الفاخرة. دخل الرجل اللعبة وبرقت عيناه شبقاً. يريد المراهنة. يقسم بأنه قادر على حملها إلى أوج اللذة والمتعة: «شريطة أن يغمر رأسي بالكيف ونضربلها قرعة ديفان». يعترف بأنه في حاجة ماسة إلى عقاقير منبهة ومهيجة. يكره الفلاحة والتربة ولكنه يزرع شجيرات الياسمين في أوان من الزنك. يحب الاطلاع على كل شاردة وواردة. أما شواذاته فلا تحصى: تعاطي الكيف، الإدمان على الخمر، مصاحبة الغلمان، قراءة ماركس، حفظ القرآن. يوبخني دائماً ويتهمني بالتعصب لأفكاري السياسية والعقائدية. يعيد الكرة: «السبحة يا ولد. السبحة! أنت ابني وعليك الاقتداء بنصائحي. اسمع كلامي ودير السبحة على الطاولة باش يشفوها الناس... رهن الحركة. فهكذا تضلل الشرطة وأصحاب الكشط... هذوك اللي يعطرو لحيتهم بماء الورد والمسك...» ثم يعقب على أن

هذه الخطة بإمكانها تلطيف شراسة نادية. أرفض هذه التنازلات المهينة. أبي رجل طيب يطفو على سطح السعادة لكنه يتعس أخته وهي تظن أنه معتوه ومصاب بخلل مزمن. يحن أبي على خالتي لكنها تتقزز منه تقززاً وترفض جبنه وخيانته رفضاً قاطعاً. لا يؤمن الرجل إلا بالسراب والثورة. فهو يتبجح بأنه ثوري متنكر في مظهر شاذ وغريب وهزلي لأسباب استراتيجية، مفتخراً بأنه أكبر عراف علماني عرفته البلاد. قلبه هش وأخته ضرابة خفيف وقراءة فناجين. يحبها ويعطف عليها بشيء من الشفقة والأبوة. قلبه فسيح وأخته خطابة مهنية تجوب الحمامات وتسترق أسرار النساء بمجرد الحديث عن إحدى العذراوات (مغلوق عليها بالأقفال والمفاتيح من قبل السلالة الغائرة على شرفها وتذهب من سجنها الليلي إلى سجنها النهاري والعكس بالعكس مثل ذلك البهلوان الذي يمشي على الحبال والذي يصاب فجأة بكراهية تجاه الفضاء...) الصالحة للزواج. كنت أتمرد على هذه العلاقة التي تربط جحا بأخته التوأم الخطابة لأفكارها الرجعية وتجارتها البخسة. (تجارة الرقيق يا جحا... أي نعم!) إنها تنصب كمائنها في الحمامات والأعراس والمآتم، تحملق حواليها وتقدر بنظرة خاطفة ثاقبة، رغم عتمة الحمام وفوران الحرارة، قيمة الفتيات والعذارى اللائي يجرجرن أقدامهن على بلاط الحياة يائسات مغلوبات على أمرهن. تقترب الخطابة الدنيئة (جحا يمتلىء غيظاً لكلامي) وكأن شيئاً لم يكن، تتلمس بحركة

وميضية مؤخرات الصبايا وصدورهن. فهي تعلم أن رجال هذا الصقع اللعين لا يحبذون إلا السمينات، المتثاقلات، الموسرات. أتقزز لخنوع جحا وضعفه أمام تصرفات أخته هذه الشنيعة فيقول: «تلك نقطة الضعف والإحساس بالخطأ عندي...».

لقد مضى على زيارته القرية أمد طويل على أنه في الحقيقة لم يحدث قط أنه أقام فيها. وإن هو سافر إليها فاستجابة لبرقية أبرقها له سي عمر على متن السرعة، فيقضي فيها بضعة أيام يستثير فيها السكان الذين يعيشون تحت ذمة الملاك الكبير فيعملون كلهم في ضيعه وورشه يستفزهم بغرابة لباسه وبذاءة كلامه. على أنه وبالرغم من كل ذلك يجد من قبل القرويين البسطاء إقبالاً عظيماً وبالرغم مما هم عليه من الحذر. وإذا ما زارني في المستشفى مثقلاً بالكتب والمسابح والفواكه وحبات القارص رافلاً في ملابسه الملونة وعابقاً برائحة السمك فإنه يظهر وكأنه هبط من كون آخر غير عالمنا حتى إذا ما راحت نادية تسخر منه مللت وغضبت لا لشيء إنما رأفة به وشفقة عليه. وإذا ما مشى في الشارع فهو يسير بطريقة هائجة مائجة فيخيل إلى الأطفال أنه سكران وما يكون منهم إلا أن يسيروا في عدوه وبالحجارة يرجمونه. أما هو فلا يكترث بالأمر بل يشهر عمداً لفاعه الأحمر كما يشهر الثوريون العلم الأحمر ذاك الذي يحمله عادة فوق سترة زرقاء لا تباع إلا في السوق السوداء وقد هربت من مدينة

هونغ كونغ. ذلك أن الرجل يعتني بهندامه كل الاعتناء وبأناقته وهو يكرر تشهير اللفاع الأحمر على غرار علم ثوري ـ خاصة إذا ما مر بالقرب من أحد رجال الشرطة الذين يجوبون المدينة صولاً وجولاً تلك التي تحاصرها مرتفعاتها الحمراء من جهة وبحرها الأزرق من جهة أخرى ـ فيلف رأسه بعمامة ناصعة البياض يزرع في تلافيفها إلى جانب الصدغ الأيسر مشموم ياسمين يسدي على وجهه سحنة عجيبة ويفتح فيه شبه فواهة من النضارة، فتعشعش كل الروائح الطيبة فيه. آمنت أخته (الخطابة) الداهية إيماناً قاطعاً بأنه مسحور سحرته امرأة عاشقة لم تجرؤ على الإدلاء بما يخالجها من غرام.وإلا فأي تفسير يمكن إعطاؤه لهذا العقد الذي أمضاه منذ عشرين عاماً مع سي عمر؟ قالت لي نادية في ذلك يوماً: «لا بأس، زلة شباب.. بسيطة». ثم ابتسمت غامزة لعينة. الأمر الذي حدا به أن يروي روايات خرافية أخرى فيعترف بأن سي عمر مارس نحوه مساومة قاهرة وتهديدات شديدة لما كان عليه من علم في قضية تهريب الحشيش كان لجحا يد فيها. فخشي من أن يشي به الملاك الكبير إلى السلطات الاستعمارية التي كان له معها علاقات وطيدة.

أما سامية فلم تساعدني قبل غرقها في البحر. كانت قد قالت: «أنت مجنون؟» فلم أجرؤ ولم أقو على إروائها هذه القصة بتشعباتها وتفاصيلها المعقدة مع ما فيها من جزئيات واستطرادات مملة غريبة. لا لم أبح لها بأن جحا

ذاك الذي كانت تكن له كل محبة ليس هو بأبي وأنه لا يد له في تربيتي. وحدث أنني بادرت يوماً في التحدث عن ذلك وإذا بي أتوقف بغتة وعكفت على ضفر شعرها الرائع في سواده الحالك ومخمله الحريري بعد أن دخلت ذات يوم، خلسة وبدون سابق إنذار إلى غرفتي حيث عريتها وزدت على عريها عرياً ثم أحجمت عن مضاجعتها وحتى عن لمسها، بل رحت أقرأ عليها ـ بنفس واحد متواصل ـ رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ذاك المتزندق الذي سرقه دانتي سرقة أدبية فادحة ثم سورة البقرة وأخيراً كتاب اليأس لكيركيغادر. وعندها ساورتها الشكوك فتسربت الظنون إليها في مسألة سلالتي. والحكاية أصعب من أن تصدق فلا يمكنني شرحها لها ودحض ما يجب دحضه. فمن أين لي الجرأة الكافية على القيام بذلك يا ترى؟ وإني لفي هذه الحالة مرتبكاً حتى شعرت بالصرد يدب في قدمي فيصبحان وكأنهما زيادة مستقلة لا علاقة لهما بجسمي تنمو نمواً غريباً. أأقول لها إن رؤية طريفة تخالجني أرى من خلالها أن قدمي المثلجين المعقمين قد بترا وعلقاً على مسمار في الحائط المواجه لي؟ حائط تلك السقيفة القذرة التي كانت تملكها امرأة شحة بخيلة كانت تود إقناعي بأن الشتاء في صقعنا إنما هو صيف وأنه لا داعي للتدفئة قط، خاصة ـ على ما زعمت ـ أن الشاب كما هو معلوم يفيض حرارة في قلبه (غيظاً؟) وهو غني عن التسخين وعليه ألا يبالي بهذا البرد المقذع الزاحف من الجبال المجاورة حيث

تتساقط الثلوج والتي تطوق المدينة ضاغطة عليها ضغطاً رهيباً. فالأفضل الاستمرار في قراءتي وترك هذه الهواجس الصبيانية فأنتقل من كتاب إلى كتاب آخر بدون ما انقطاع هارعاً عبر الصفحات والكلمات والمفاهيم، منبجساً إلى حيث لا تنتظر (سامية) أن أنبجس إليه فينتهي بها الأمر إلى تصديع رأسها دون أن أنطق بكلمة أو بأي إشارة إلى ما ينوط بنسبي وبنوتي.

يا للعجب. جاءني أبي يزورني بغتة وبدون سابق إنذار. وبعد المجاملات حاول اصدامي بهذا السر الذي أحطت به علماً منذ عدة أشهر: «لست أباك!» قال هذا وراح ينظر إلي خلسة مترقباً ردة فعلي، مسروراً بإفشائه لي هذا السر متفرساً في وجهي بحيث لا تفوته أي انفعالات قط: «لست أباك!» تركته وشأنه برهة من الزمن. حتى إذا ما طال الانتظار بدأ في التململ فخيل إلي أن أنفه راح يتدحرج على ذقنه من شدة ما أصابه من استغراب إزاء موقفي وصمودي. يرتبك. يحار في أمره: لا يعي. لا يفهم. وإذا بوجهه يتقلص ألماً. خدعته ابتسامته الأولية وانسحبت بغتة عن محياه. وانتصب واقفاً إلى جانب السرير وقد اقتحم صمتي جسمه الهزيل وكأنه يكاد يتضرع إليّ للحدّ من تهكماتي التي لا شك أنها على ما يظن ستنقض عليه انقضاضاً. ولم يحدث شيء مما ظنه فيستولي الذعر عليه إزاء ما اتسمت به ملامحي من صلابة. أجل لم يتحرك لي ساكن. مسكين جحا. لقد حمل هذا السر مدة

طويلة في جعبته ريثما أكبر. والآن وقد باح بالأمر فلا يحدث شيء مما ظن. صفر. وإذا بالحر يقرمز وجهه فراح ينظر إلي كالمعتوه بل كالأبله. كان جسمه بشكله الغريب يبرز بوضوح على مصراع النافذة المفتوحة المشرفة على البستان فتصعد منه حرارة جهنمية ملتهبة متدفقة رهماء، ترقش أزهارها ـ ما بين الوردي والبنفسجي ـ حر الفضاء القائظ بعنف وعنهجية. هل أطلب منه أن يجلس؟ يا له من سخيف. أراه وكأنه على أهبة الفرار إذ أنه سقط في مصيدة لم يكن ليتوقعها قط. وها هو يتأرجح بين أمرين: صخب وغضب من جهة، تحميس وارتفاع في اتجاه القمر من جهة أخرى. أما بالنسبة إلي فقد بدأ يشعر نحوي في قريرة نفسه بالكراهية تجاهي، إذ أنني أجبرته على ازدراد ضحكته العريضة تلك التي حضرها فتهيأ إليها مدة أيام، أي بعد اتخاذه القرار بالبوح عن سره ولم يتمكن من الإغراق فيها بل اضطر إلى تجرعها ثانية بعد ثانية، ولقد كاد الألم يشل عضلات وجهه من شدة ما عانى من الذهول والاندهاش.

لا لم يحدث شيء مما ظن. لا انفعال، لا تهكم ولا أي ردة فعل على الإطلاق. ألف نملة ونملة تتسلل إلى أطرافه. وإذا بوجهه يبهت. وجسمه يطفو في جو مجلوف من شدة الحر ويتخلى عن حركاته البهلوانية. يا لك من مهرج يا جحا. فتركته هكذا معلقاً بين ذبذبة وزطيط وتسللت داخل الطفولة: (المنزل الخانق بكلسه وجيره وحرارته وبلاطه وفسيفسائه ومرمره وألوانه. أمي وخالتي. وتتدفق

الذكريات. أتذكر أرجل أمي وخالتي. إنها ثلجية أنصع بياضاً من الرخام. التول والقنب والحرير. كل أقمشة العالم تمنع الشمس من إحراق جفني. المرأتان لا تتكلمان. الصمت الرهيب. وفجأة زمرة الأطفال الذين هم دائماً على أهبة الاستعداد للفرار وللاختفاء بخفة وقد استولى الذعر عليهم فيختفون حيارى أمام تفاقم الأمر. كان يحتوي المنزل على امرأتين ورجل واحد: سي عمر. ومن خلال انتفاشات الشمس المتلألئة على بلاط الفناء كنا نبتلع الحشرات حتى نعرف ما هو طعم الدم في أفواهنا ونمارس ألعاباً غرامية بريئة ومضرة في آن واحد. ثم ننصرف متعمدين المشية الصاخبة المتهولة الغريبة. نحدس أن ثمة أزمة في الجو قد ولدت لا بد لها من أن تنفجر. أما ضخامة جسد الخالة وشبقية أعضائها المتورمة فلم تكن لتبشر بالخير. أنوثة مثقلة متثاقلة تتلوى تحت حدة الشهوة وتبعث فينا الرعب عبر نظراتها الجياشة وبرطمتها الأبدية وصدرها المتهاطل إذ أبت أن تسجنه في صدرية كما اعتاد عليه النساء، بل تترك نهديها يتحركان في رج وزج وهز ومز، داخل فستانها الفضفاض حتى إذا ما انحنت على البلاط لرفع شيء ما شعرنا بمذاق الجنة يشطط ألسنتنا. أما أمي فقد كانت رائعة فاتنة وكانت على عكس خالتي لا تصلي بل وتستنشق في الكتمان سعوطاً وفي الخفية. ولكم فاجأتها وهي ترضع عمي المزعوم سي عمر وفمه تحت ثديها إناء رهيباً مثلما وهو يتبختر بين الأنثيين

المسكينتين... كان سي عمر يكن لي كل كراهية وعداوة. وإذا بجحا يبقى على وضعيته الأولى وكأنه سمر على الأرض تسميراً. «لست أنا بأبيك!» إذن أنا شفاف عراف بصار... أنقذني صمتي ويقيني. وما عليه الآن إلا أن ينصرف (يفر؟) فيلجأ إلى سمّاكته غداً فهو لا محالة عائد.

ليست أمي هي من أحاطتني علماً بالأمر. خجولة أمي كانت. فخالتي مليكة هي تلك التي أفشت بالسر. أفشت به دفعة واحدة، وبسرعة لا عهد لها بها هي التي عودتنا على التباطؤ بالكلام وبرودة الأعصاب. حتى إذا انتهت من سرد ما سردت من الفضيحة توقفت لاهثة وقد كادت تختنق اختناقاً. وما أن انتهت من تقيؤ غثيانها وقد كانت عيناها شاخصتين في الجدار المقابل حتى طلبت منها أن تعيد إرواء ما روته إذ لم أكن لأفهم شيئاً مما قالته فكادت أن تنهار على الأرض مغشياً عليها على أنها كابرت على نفسها فاستعادت قواها وانطلقت من جديد في شرح ما جرى من أحداث وإذا بي ألم بالقضية، وإذا بي لا أتمالك من مقاطعتها بين الفينة والفينة أطرح عليها الأسئلة الواحد تلو الآخر مستفسراً: فهناك الاضطراب والخجل والاحمرار والتردد. لقد كانت أمي آنذاك في حالة احتضار ولما تبلغ بعد الثلاثين من عمرها تلازم غرفتها فلا تفارقها قط. ولشد ما توغل المرض في جسمها، فقد تيقن الجميع أنها سوف لا تعبر فصل الشتاء البارد الرهيب ذاك الذي انقض على الأصقاع انقضاضاً. كانت قعقعة الترام تصلنا من هناك.

كان يمر أمام المنزل مغطياً صوت خالتي المبحاح. وكان الشفق ينزلق على مهل داخل الحجرة حيث كانت خالتي تحكي وتحكي وقد راح الظل الأشهب ينسج الوجوه والأشياء ويطليها بلون يفوق بريقه اللون شبه القاتم الذي التصق بالستار من التول الأبيض. «ليس الذنب ذنبها... ليس الذنب ذنبها». وأخذت خالتي تعيد الجملة تكررها على وتيرة متواترة كئيبة. هل بكت خالتي الشفوقة الحنون؟ هل كانت تعاني من الشعور بالذنب إزاء تدهور حالة أمي سالمة الآن وقد بدأ جسمها بالتلاشي والتفتت؟ سالمة التي اغتصبها سي عمر ولما تبلغ السادسة عشرة؟ لا سبيل للإجابة على مثل هذه الأسئلة. فقد فهمت أن أمي حبلت بي يوم اغتصابها في ليلة الدخلة، يوم تزوجت خالتي مليكة بسي عمر. وإذا بها تقص علي قصة أبيها يوم كان يعمل كمصباحي في شرحة السكك الحديدية فمات من فرط ما عمل وشق وما أدمن على شرب الخمر، فخانته دواليه الوريدية نتيجة تنقله المتواصل بين قريتنا وقرية مجاورة لها لكي ينير الطريق أمام قاطرة معطلة. وفي إحدى الليالي الباردة القارسة إذ كان في تجواله لاهثاً حاملاً مصباحه الراتنجي في يديه اللتين كانتا قد تصلبتا قبل أن تفاجئه المنية، ذهب ضحية البرد وتساقط الثلوج المتهاطلة على تلك الناحية من الهضاب العليا. «ليس الذنب ذنبنا». ولا تنفك خالتي تكرر الجملة باستمرار إلى حد أنني مللت من هذا الترداد. على أنني لن أنسى أن أمي كانت في حالة

احتضار وأنني سوف أعاني ما أعاني بعد موتها من شدة الألم (انطباع مهووس ومسالخ مزدحمة تتراءى لي بحيواناتها الضاجة وبحر دمائها الحارة وانصباب شلالات الدم في مجاري الشوارع العامة ببنيتها (المجاري) المتشعبة الملتوية وشبه المجردة، بتعرجاته المخيفة التي تبعث الهلع أكثر من أي شيء آخر. ثم كذلك: القرقرة الفظيعة التي تصل إلى مسامعي تطلقها الحيوانات المتخبطة المذبوحة المصطفة بانتظام مروع إلى البعد البعيد، إلى ما لا نهاية، قرقرة تتصاعد خاصة إذا ما راح الدم يتسرب متدفقاً من الفم والعيون والمناخير. من ذا الذي كان قد أخذني إلى مثل هذا المسلخ الرهيب؟ لعله عمي المزعوم (أبي في الحقيقة) سي عمر ذلك الثري المتدين الذي كان قد زار مكة المدينة عشرات المرات بين حج وعمرة.. كان غليان البول في خصي الشياه المسكينة يبهرني وهو يتقاطر وردي اللون من القضبان السخيفة التي مزقها موسى الذباح القذر الأهبل الأشعث تمزيقاً فإذا بالغثيان يستولي علي والغمة، فما ألبث أن أسترجع جأشي وآخذ في الجر واللف والدوران والصياح والهذيان. كنا قد جئنا إلى المسلخ لتسليم بعض الأغنام فإذا بثغائها يمزق أحشائي وقد كنت طفلاً صغيراً لا أفهم سبب فوران الفلاح الغني وهيجانه، فلا أجد فيهما أي جدوى ولا فائدة. وتهاطل الدم هذا ما كان ليطاق قط إذا ما راح يفجر الموسى بضربة واحدة أوداج الشاة وإذا بالسائل الأحمر القرمزي الثخن المتكاثر

ينبجس ويصعد إلى وجه الجزار الرهيب فيلطخه ويلطخ جبينه حيث كان الدم ينخلط بالعرق في مزيج مخيف مثير..) لا أقدر عليه ولا على تحمله في أي شكل من الأشكال. أما الآن فإنني أتردد بين رواية خالتي وتسرب الغروب، وما عدت لأعرف كيف أسترجع ذاكرتي أو أفلت من المجزرة. تكلمت الخالة وأفشت بالسر. وما بقي علي إلا أن أتحكم في الهلع الفظيع البشع الذي انتابنا. هكذا إذن فقد اغتصب أمي وكان النهار آنذاك في أوجه صيفاً مشرقاً. اغتصبت هناك إلى جانب البئر في الحديقة حيث كانت قد جاءت تستقي الماء. هكذا اغتصبت أمي سالمة على أرضية البستان فتخبطت مثلما كانت تتخبط الخرفان التي رأيتها في طفولتي يوم شاهدت الذباح يقتلها ويسلخها ويعلقها على غصن إحدى الأشجار فيفرغ منها أمعاءها الدبة والزخمة. لقد تكلمت خالتي بهدوء وبدون غضب بل أسهبت في الكلام. «عشرون عاماً بقيت الحياة على حالتها هي هي لا تتغير». ولقد صادف هذا التصرف المجرم زلزال سنة 1954 (9 أكتوبر) الذي هز الأرض هزاً واكتسح المنطقة كلها ودمر المدينة شر تدمير فما لم يبق منها سوى ركام متراكم متراص. وما شاهدت تلك الكارثة بعيني لكنه أتيح لي أن أقرأ عنها الكثير الكثير فيما بعد كما شاهدت الكثير الكثير من صورها الصفراء القديمة: ديار مفلقة، ديار معوجة، ديار مصعوقة، ديار متلاشية. وهناك عجائز أصابها مس من الجنون فرحن يكشطن الأرض بشوكات الأكحل

المصدأة تحت أشعة شمس حارقة تغلي غلياناً في خضم غبار كثيفة كالضباب الغائم. إنني لم أشاهد شيئاً من هذا الزلزال الذي هز الأرض هزاً فقلبها رأساً على عقب وتصدعت بناياتها وتشققت جدرانها وتميعت بواطنها وأراضيها، فاعوج الحديد وتحجر الشجر وشهق الحيوان وانتفخ التوتياء والتوى بشكل تعقفات وتحلزنت بشكل بريمات هيولية وتعجن الحديد فتمطط ولان لشدة ما حصل من الغليان والفوران يتصاعدان من بطن الكون. وبعد مرور سنوات من وقوع الكارثة شاهدت صوراً صفراء فرأيت أشخاصاً مزعوقين أمام ديارهم المهبطة واقفين وجحافل من الفئران الملتهمة على مرأى من الناس ومسمعهم تقضم جثث الحيوانات والجيفة المزنجرة فيما راح الدود يغلي فيها غلياناً يسدي عليها ألواناً منها الأخضر والأحمر والأزرق. وهناك صومعة المسجد التي بقيت معلقة في الفضاء الأزرق وسط تهدم الأشياء من حواليها. أما الجرذان الضخمة الكثيفة الشعر ذات البطن الأملس فظهرت بمظهر ضفادع ضارية بآذانها الوردية المقززة وشواربها الطويلة طول شوارب الباشغات أولئك المتعاملين مع السلطات الاستعمارية على غرار سي عمر وأمثاله، أرى الجرذان بتعثرها وترنحها ومشيتها المتثاقلة من فرط ما غطاها من سماكة السمنة العارمة. أما الأرض فقد حتها جذام المعادن المتميعة النتنة فتراكمت عليها عفونة ذات الأخضر والسنجابي تسيل عبر الحجار والصخور، عبر

الحديد والفولاذ اللذين اصطليا بصليان نار نحتت فيهما تعرجات وتعرجات امتلأت من فيض البالوعات المتفجرة بآلاف الشظايا فتصب عفونة محتواها في الشوارع والأزقة والأجواء العابقة التي خنقها تجفيف الضحايا المبقورة البطون المنتشرة الأمعاء تحت أشعة الشمس المحرقة المبهوتة العيون إزاء صدمة المنون فبقيت متفتحة جاحظة في كبد السماء المزرقة. وكذلك: تلك البنية الصغيرة المحمومة في ذهول سباتها، شاهرة بين يديها نهديها الصغيرين ثلجية اللون، شوهها الدمل المتقيء فزادهما نعومة ومخملية قطيفية. وهناك، هناك في قلب المدينة تلك الأكمة بجذورها المبنفسجة المعقودة المنبجسة كصاروخ انطلق عبر الطباق السبع وكالحمم الطافحة الغزيرة المنزلقة حيث عششت الوطاويط المفحفحة بين الأغصان المحترقة والمتجهة في تعرجاتها نحو السماء في هذيان تجريدي خارق مهول في هيكله وحجمه وشكله فيخيل وكأنه رسم يرتج تحت وطأة الحر الفتاك وليس شجرة حطمتها كارثة الزلزال شر تحطيم. وهناك هناك أيضاً العقارب والأفاعي والزجاج المهشم المطحون المبعثر على أعين المنكوبين المساكين وقد بدوا مكبين على التنقيب والتكريط بآلاتهم التي بدت وكأنها من العصر الحجري والتي كانوا قد عثروا عليها بعد أن لفظتها ديار الأثرياء والأجانب المعمرين الذين أتوا، عند غزوهم البلاد، بالتبروري الصيفي والزلازل المفاجئة والجفاف المزمن وجميع أنواع الكوارث والآفات

الأخرى التي عهدها الفلاحون البؤساء فأحاطوا بها وألموا بها إلماماً.

لقد باغتها إذ هي كانت منحنية على حافة البئر فتصعد منه الدلو بعد امتلائه فيطرحها أرضاً في هذا المكان عينه ذاك الذي كانت الشمس فيه تغلي غليانها واغتصبها وفض بكارتها مولجاً إياها بدون تعريتها ونزع ثوبها ولا حتى سروالها الداخلي الذي بقي معلقاً على أحد فخذيها تعليقاً غريباً يبعث على الضحك ولم يكن هو ليعبأ بمثل هذه التفاهات. عض لسانها. فض بكارتها. انتزع منها أهم ما يؤهلها للزواج. وهي في هذه الحال فهي لا تعرف ماذا تقول وماذا لا تقول وماذا تفعل وماذا لا تفعل فارتسمت على وجهها علائم الغباوة ولم تتمكن حتى من فقدان وعيها فمكثت هكذا مكانها مغتصبة مثقوبة إلى الأبد كما فقدت سر دمها الأخير وقد راح يسيل رهيفاً هشاً على فخذيها وملابسها. فإذا بها وعلى الرغم منها أصبحت عشيقة صهرها. إلا أنها لم تقل شيئاً وبعد شناعة هذا التصرف القذع لم تغتسل فراحت تجرجر وراءها طوال العشية قطرات من دمها ذاك المسفوك قهراً.

واستمرت الخالة في وشوشتها. وكان الظل في الخارج قد تغير واستحال الكون ليلاً حالكاً داكناً. وما كان أحد ليتجرأ على إشعال المصباح الكهربائي. كانت أمي تتماوت ببطء في الغرفة المجاورة حيث كان قد سمرها في فراشها مرض عضال طويل طويل. قالت خالتي إن سي

عمر هو أبي الحقيقي وإن كان جحا قد قبل بتغطية الفضيحة فلكونه ذهب ضحية المساومة الشنيعة التي دبرها رئيس القبيلة ولم أفاجأ بذلك فقد كنت وأنا لم أزل بعد طفلاً، كنت أشك في طاقة جحا على إنجاب الأولاد وفي أبوته لي، خاصة وأنه كان يمارس علاقات مشتبه فيها وغريبة كل الغرابة مع إحدى أخواتي، لم أفاجأ إذن بهذا الخبر بمقدار ما تملكني الغيظ لملازمة المرأتين الصمت طيلة عشرين عاماً رافضتين حتى التحدث في الموضوع بينهما وكانتا تترقبان بلوغي سن الرشد أنا ذاك الذي حبل به يوم اغتصاب أمي فأنظر إذاك في الأمر وأتخذ ما لا بد لي من اتخاذه من تدابير فأنتقم لأمي المغتصبة ولخالتي المغدورة غداة زفافها لسي عمر. كانت تتكلم وصوتها يصل إلي مخترقاً تلافيف الظلام المتراكم في الحجرة: «لم نجد أي سند ولا زند باستثناء خوية ولكن كان سكارجي...» قالت إن أخاهما كان سكيراً وقد كان يعاقر الخمرة مدمناً عليها متناسياً من خلالها موت أبيه ذاك الذي كان الثلج قد غطاه فما عثر عليه ميتاً إلا بعد بضعة أسابيع. وها هي ذا خالتي تبكي وتشهق وفكرها يعود إلى الماضي ويستعيد الذكريات فتذكر أخاها المدمن على الخمرة والذي لم يسترجع وعيه إلا في توجهه نحو السياسة فالتحق في آخر أيام حياته بالثوار فقضى نحبه وهو يقاوم الجيش الفرنسي فوقع مردياً على الأرض في أحد الأيام تحت رصاص الأجنبي في معركة ضارية ضروس بعد مسير طويل مرهق وكان الثوار قد

قطعوا الأميال عبر الجبال والأدغال والوديان بين شجر الخروب والعنبية، وعبر الصخور القارظة والتربة الحمراء حيث كان النبات قد تنامى في تكاثف متبلد فاتحاً أمامهم ورشنة من أروع الورشنات الواقية على حافة الجبال المتصدعة المشققة من جراء شدة البراكين وهيجانها وسيول الحمم وجريانها ومرور الطحلب عليها. كما كان النمل الأحمر والعقارب قد تهافتت عليها. وهكذا تبكي خالتي وتشهق وقد راحت تتداعى موت خالي أثناء حرب السبع سنوات بعد قضائه مدة من الزمن طويلة مختفياً في المدن عشية انفلاته من مطاردة الشرطة التي اعتبرته شيوعياً حذقاً لامعاً. هل كان قد تمذهب على يد جحا أبي المزعوم الملقب بسليمان الحيلة؟ كانت خالتي تنكر ذلك بشدة مصرحة أن أخاها كان يكن للأغنياء ورجال الدين كراهية عاتية قديمة، شارحة أن انخراطه في صفوف الثوار كان أمراً متوقعاً. راحت الشرطة تلاحقه قبل اندلاع الحرب فقبضت عليه مرة وأذاقته مرارة العذاب، مما جعل أمي تعتز به كل الاعتزاز. وما أن خرج من السجن حتى فاجأها بزيارته إياها وهي تخرج الماء من الجب مغمضاً عينيها بيد، ماسكاً قامتها بالأخرى، واقفاً وراءها وقد استولى الهلع عليها إذ راحت تتذكر ذاك اليوم الذي اغتصبت فيه في هذا المكان عينه من قبل صهرها الخبيث وكادت تصيح.. . لقد كان قد خاتلها من الوراء وما كانت قد سمعت خطواته على العشب المبلل إذ كان المطر قد تساقط

في الأمس بغزارة... كانت متحذرة... منذ عشرين عاماً وهي على استعداد لمجابهة كل طارىء وما كانت لتظن أنه كان قد آن أوان مغادرة أخيها السجن: «دائماً تحرجي في الماء من البئر. كل النهار... ما اعيتيش؟» وعندها عرفته لرنة صوته ونغمته. يا للحظ الثمين. فقد كانت على وشك أن تلقي بنفسها في الجب. فهيهات أن تقبل بأن تغتصب ثانية في نفس المكان. ولكنه إن هو جاء فلكي يطلعها على إطلاق سراحه وعلى اتخاذه القرار بمغادرة القرية والسكة الحديدية والحانة والتحاقه بالثوار. إنه لسر! وإذا بها تلاحظ أن أنفه ما كان ليكون في مكانه الذي ألفته، لقد كان قد انحرف بعض الشيء (أهو التعذيب؟) لقد أبيت أن أعاني من الضرب ثانية واستطرد قائلاً: «سوف نوريهم الزنباع وين يتباع يا سالمة...» ثم وصاها ملحاً: «إنه لسر ولا بد من ملازمة الكتمان». السر؟ هل تقول له سرها؟ هلا تفشي بما يجيش فيها؟ ومن أين لها أن تقول؟ كيف تشرع بالأمر؟ رباه. كانت على قيد أنملة بالإفشاء. ولم يطاوعها قلبها... وإذا بها تتراجع...) كانت تعتز به بعد أن اعتقل في معقل لامباز.

أما أختها الأخرى فقد كانت تتلعثم الآن ولا تكف عن الثرثرة في قعر الظلام، على أنها غيرت وضعها الذي كانت عليه. لقد فكرت أنها من فرط ما كانت تعاستها كبيرة لن تقدر على البقاء هناك في هذا المكان. كان سي عمر يقززها أثناء مضاجعتها خاصة وأن الرجل كان ذا

شذوذ صارخ ورذائل وشطحات مذهلة فكانت هي الورعة تخجل من تصرفاته وطلباته الغريبة.. لقد كانت ورعة تخاف الله وتتقي رسوله.. ألم تفاجئه يوماً في وضعية إباحية مخجلة هو هذا المنافق الذي اخترع لنفسه خلافة الناسك المتقشف التقي؟ ما كانت لتفهم معنى هذه الأمور وما كانت تصدق عينيها. كان منظر أختها الممتطية قضيب زوجها بشعاً فيما راحت عجوز قبيحة هرمة ـ لا بد من أن تكون شحاذة كان قد أتى بها من الشارع متذرعاً بغسل الألبسة ـ وعارية شاهرة ثديين هزيلين ورخويين بارزة شرايينها كأوشام مرسومة بالأزرق ليس فقط على مستوى الصدر بل على الجسم كله، تضع فرجها المجعد على فمه وقد راح هو يمتص لاحساً ويمتص.. وكانت المتسولة في حركة وهيجان مستفعلة الشهوة والشبق لتتمكن من طلب المزيد من المال خاصة وأنها كانت على علم بأن سي عمر هو من أكبر البخلاء في القرية رغم ما كان عليه من ثراء وأموال طائلة. وافترضت خالتي مليكة لو كان باب الخزانة الضخمة مفتوحاً لأخذ يرتج ذهاباً وإياباً بصريره المعهود ـ كانت الخزانة قديمة لا تغلق إلا بالجهد الجهيد وكثيراً ما كان بابها يفلت فتفتح الخزانة على مصراعيها ـ عاكساً على مرآته الكبيرة هذه الأجسام الثلاثة فتزداد سرعة المشهد والحركات المعاكسة إلى حد الجنون. ولاحظت أيضاً أن أختها كانت كالمشدوهة بجسدها العاري اللحيم وظهرها المزغب ومؤخرتها السمينة وصدرها المتورم، وكأنها ـ هي

التي اغتصبت في سن السادسة عشرة ـ تسبح في عالم غيبي لا تفقه ما حصل لها وهي في وسط هذه المعمعة الرهيبة، حيث يلتصق الجلد باللحم والبشرة بالشعر الذي يترك لا محالة آثاراً حمراء وحزات تكاد تكون وردية تزيد في شهوانية سي عمر وتضاعف من هوله. وإذا بباب الخزانة وهم على هذه الحالة ينفتح، فيعكس المشهد على المرآة وقد راح الباب يتمرجح في ذهاب وإياب وصرير وأزيز متواصلين، فيخال إلى خالتي المسكينة أن الأجساد تهتز كباخرة في خضم إحدى الزوابع الهائجة، فتتراكم الأجساد وتكون كتلة متراصة وأشكالاً هندسية متماسكة تحلق في الفضاء المعتم ـ وقد كانت النوافذ ـ على شكل فلك فقد طريقه في اتجاه اللاجاذبية. كما لاحظت الخالة أن الرجل كان في عزلة رهيبة وكأنه راح يبحث عن تلك اللذة الأسطورية الكامنة بين طيات فروج النساء اللائي افتتنهن أو اشتراهن بالمال والذهب قبل تزوجه من خالتي وقبل اغتصابه أمي مفجراً في بطنها نقطة من دم كنت أنا نتيجتها المسكينة، وذلك في بوتقة من الهذيان الجنسي والدماء والتشنجات بعد أن فض بكارة زوجته الشرعية أمس. قالت (أم أنا من تخيلت ذلك بعد الرعن الرهيب الذي أصابني ففجر في جمجمتي آلاف البنيات الضبابية وآلاف الكلمات الغامضة، إلى حد أني اقتنعت بغرق سامية تلك الفتاة التي ما كانت تبلغ بعد الثمانية عشرة والتي كانت تزعم أنها وقعت في حبي وقد تركتني في قسنطينة وهربت حيث كنت

قد أتيت لرؤيتها) أنها لمحت ذلك العازف على المترددة والذي حضر حفل اختتاني، وكثيراً ما كنت قد تساءلت أنا عما جاء يعمل هذا الرجل في المعمعة. ثم انتابتها نوبة من الضحك ممزوجة بنزوة من الغضب، فهربت مسرعة إلى الحمام حيث تقيأت صفراوتها. هل مكثت طويلاً مترددة بين بهلوانية الموقف القهارة وحساسية الموت الإسفنجية بمذاقها الغثياني؟ هل بقيت مدة طويلة ممزقة هكذا بين النزعتين دون أن تعرف للحل سبيلاً؟ من يدري؟ هذا ما أجابته.

لم يحاول جحا الملقب بسليمان الحيلة وأبى المزعوم القيام بأي حركة بهلوانية تهرجية متحايلة. كان قد قال لي آنذاك إنَّ خالتي بعد هذه الواقعة كانت تفوح منها رائحة الرائب الطازج الكريهة وقد دامت هذه الحالة مدة من الزمن طويلة. أما سالمة أمي التي كان قلبها قد خلب بمخالب ذلك الدنيء في يوم من أيام الصيف التي كان الحر قد اشتد فيها إلى حد أنه كان الجو قد دبق وارتجاجات الهواء المزططة قد تكثفت فقد بدأت أمي تذبل وتفقد قواها وذاكرتها يوماً بعد يوم. وقد كنت أدخل من حين إلى آخر غرفتها فأبقى هكذا الساعات الطوال إلى جانب سريرها في حجرة هي أجمل ما احتوتها الدار وقد كانت فسيحة الأرجاء، ذات فتحة زجاجية وسيعة توصل إلى سطيحة في مواجهة غابة كثيفة تتدحرج تدحرجها نحو البحر عبر تجمعات من الأعشاب والشجيرات كانت الشمس الحارة

الحادة قد أحرقتها فبدت وكأنها تسبح في الفضاء بين الأشجار والمياه والسموات يسودها سطوع شمس، بدت وكأنها مستطيلة الشكل ممططة الحجم وقد ظهرت من خلال الزجاج المقبب والمقوس بعض الشيء. وكانت أمي تقضي سحابة النهار وهي تنظر إلى السماء فلا تتجاوز تلك العارضة الشقولية التي بدت وكأنها فوق الشراشف البيضاء التي كانت تتجفف على حبل الغسيل وقد احترق كل مليمتر من قماشها من فرط ما كانت الحرارة وهاجة بحيث يؤول بها الأمر إلى ترهل نسيجها هنا وهناك فيتفلع ويتجزع تحت تأثير الالتهام الشمسي الذي كان قد أحرق الأشجار الزائغة في النور المتدفق على وجه المريضة الشاحب فيسدي مسحة من الألوان على وجنتيها.

والآن وقد رجع جحا زائراً لم يكن ليتفوه بما في فيه. كان بإمكاني أن ألاحقه شتماً وتوبيخاً ولكنني عدلت مخافة أن يولد ذلك عند الممرضة الخبيثة التي كانت تكن له كل كراهية، شعوراً بالفرح والابتهاج. لم يقل شيئاً وقد كنت على علم منذ فترة طويلة بما عانت أمي من مآسٍ بعد أن باحت خالتي بسرها واعترفت لي بأنهما سقطتا كلتاهما في الوقت نفسه حاملين وإذا بأبي الحقيقي يقرر تغطية الفضيحة فلجأ إلى جحا ممارساً نحوه مناورة فظيعة مهدداً إياه بتسليمه إلى الشرطة لما قام به من أعمال كمشوش سياسي ومدمن على استهلاك المخدرات ما لم يقبل معه. وراح

سي عمر يخترع حكاية مدارها أن جحا كان قد شوه شرف شخصين أو ثلاثة كانوا قد أزمعوا على قتله. فعرض عليه صفقة تجارية واشتراه بإعطائه حانوتاً في ميناء العاصمة حيث يتاح له بيع السمك فيتزوج بالمقابل بأمي المغتصبة زواجاً شكلياً. وكان جحا قد قبل بهذه الصفقة الملعونة بدافع الرأفة مشفقاً على سالمة وقد كانت على وشك إنجابي. أما الآن وقد كان بجانب سريري فإنه فقد كل نزعة إلى السخرية والمزاح بعد ما اضطرته الظروف في الأمس إلى غم نوبة الضحك الذي كان على أهبة الاستعداد لتفجيرها إذا ما عمد إلى البوح بأنه ليس بأبي. لقد كان جحا كئيباً حزيناً وأنه لفي هذه الحالة وإذا بالندامة تستولي عليه. ولمَ لم أتركه يستغل مفعول المفاجأة ويقهقه ما شاء إلى القهقهة سبيلاً؟ ها هو ذا الآن يقبع جالساً صامتاً لطيفاً وقد تآكل الظل نصف وجهه فيما انبجس الشطر الآخر في الفضاء بدون أي صلة وصل من شأنه أن يخفف من حدة الانفعال الشيطاني الناجم عن الجهتين الظاهرة منهما والخفية. يا له من أب متمرد استطاع أن يعبر الأيام والأشهر والأعوام عبوراً مذهلاً. والآن فها هو هنا جالس على كرسي، متربع الساقين (لا يعرف الجلوس إلا متربعاً) وكأنه على وشك أن يفقد توازنه وحتى حس التوجه. وهيهات أن يكون ذلك. فقد عمد إلى اتخاذ كل الاحتياطات إزاء وضعه الجديد المتسم بالانزعاج. إنه

سليمان الحيلة. القرد الماكر الماهر! الصمت زين والسكوت سلامة. يصمت قابعاً ساكتاً لا حراك له البتة برجليه المحشورتين تحت فخذيه الهزيلين. إني أنا عارف بأبي. يتظاهر بالاصطدام والاضطراب وهو في واقع الأمر لا ينفلت من روحه البهلوانية. فأفهم أنه يحاول إغراء الزوار الآخرين فيظنونه مقعداً لا جذع له. إنها عملية إلهاء الناس لا أكثر ولا أقل. فتذهب الشفقة ببعض الزائرين إلى مدهم إياه ببعض النقود وإذا بالمجنون يقبلها بدون أن يتفوه بأي كلمة شكر. كان شخوصه هذا يدهشني. خاصة وأنه اعتصم بنفسه وراء صمت رهيب شرس وهو الذي عودني على ثرثرته التي لا تنقطع وإسهاله اللغوي الذي لا ينفصم. أناسك أم مهرج هو هذا؟ إنه مزيج من الاثنين، بين بين. حتى إذا ما أغمض عينيه خاله الناس ضريراً متأهباً لينطلق في الفضاء نحو القمر.

وأخيراً ينصرف فأبقى لوحدي يتيماً. فإذا بي أستسلم إلى الغفوة. وإذا بي أحلم حلماً مقلقاً. أحلم أن أمي قد توفيت. أبلغني الأمر صوت مجهول وبطريقة سرية وزوّدني بالعنوان الذي فارقت أمي فيه الحياة. إنه واقع في مدينة أجنبية لم أكن قد زرتها من ذي قبل. وما أن وصلت إلى الدار المشار إليها وقرعت الجرس حتى فتح لي شيخ ينطق بلغة أجهلها وقد راح يشرح لي بإشارات إيمائية أنه بواب العمارة وغسال جثث الأموات. وإن أنا أبيت تصديقه

فلسوف يزعجه موقفي المتشكك هذا كل الانزعاج. لقد تكلم البواب (الغسال؟) في أول الأمر بهدوء ولباقة ولكنه سرعان ما سيطر الغضب عليه فراح يشتمني «كلب، ابن كلب». فأدركت أنه غير موقفه فجأة من جراء سكوتي الذي كان قد أحرجه كل الحرج. وإذا بالأمر يتفاقم بيننا وإذا به يهددني موجهاً إليَّ إشارات فاحشة وحركات قبيحة مصرحاً بأنه ليس علي إلا أن أحمل جثة أمي على ظهري وأنصرف. حاولت بالإشارات إقناعه بأن الدين إنما يحرم علي حمل جثة أمي ممدودة على الفراش جثة هامدة كانت تسهرها عجوز راحت تمتص لسانها امتصاصاً. وإذا بها تخبرني بلغة مفهومة أنها تعيش هنا في الدار الخيرية هذه. لماذا أخبرتني بذلك؟ لا أدري. غير أنني توجهت إلى البواب راجياً منه أن يؤمّن لي كيساً من القنب أضع فيه جثة أمي المسكينة. فما عتم أن جاءني بكيس صغير، صغير، آمراً إياي بالتمهل قليلاً ريثما يتقلص جسم أمي وكأنه متيقن من الأمر كل التيقن. فظننته مازحاً. إلا أن العجوز رددت لي الكلام عينه مما أدخلني في تفاصيل حول هذا الموضوع مملة للغاية. وإذا بها تهتف بغتة وتغطي فمها الأدرد بمنديل مشبع بالدم.. «لا تخف يا بني لا تخف. ليست هذه الخرقة إلا سروال أمك المسكينة... وهذا الدم دم طمثها... يا له من طمث هائل ولكم أتمناه لكل من تفارق الحياة من بنات حواء يا ولدي». وراحت تطمئنني قائلة: «إن أمك لم تزعج أحداً يوم كانت حية ترزق فكم بالحرى الآن وقد

توفيت؟» «مسكينة هي. خيار الناس... لا تخف... اطمئن عليها. إني أؤكد لك أنها سوف تتقلص خاصة وقد فقدت الكثير من طمثها...» وما كانت العجوز لتتمالك من إظهار دهشتها معجبة بدم العادة الشهرية الذي هطل نازفاً من فرج أمي. وإذا بي أحار بالأمر لا أعرف كيف أتصرف أمام هذه العجوز. أأظهر سروري واعتزازي أم أسفي واستيائي؟ وعندها يدخل البواب مشيراً إلى أنها ممسوسة بمس من الجنون. واستمرت العجوز مثرثرة: «سوف تقصر القامة. لا ريب في ذلك يا ولدي... وسيسهل وضعها في هذا الكيس الصغير، ترى. تصرف بكل ثقة وهدوء... فسوف تعبر المدينة وأنت حامل جثة أمك هذه العزيزة وإذا أردت يمكنك التجوال في شوارع المدينة المشهورة بحيويتها التي لا تضاهيها حيوية في العالم أجمع... صدقني يا ولدي... ولكن حذار من الحدائق العامة... تجنبها قدر استطاعتك فهي مكتظة بالعصافير والطيور التي تحبذ نقر لحم النساء اللائي هن في حالة طمث». وفيما كانت تتكلم كست مسحة من الفجور والدعارة وجهها فقالت: «ترقب قليلاً يا بني سوف ترى كيف تتقلص جثة أمك... مهلاً...» فما كان مني أن تظاهرت بالانتظار واسترقت النظر نحو أمي فاعترتني صدمة أليمة لتيقني بأنها ماتت وأنه ليس في ذلك ريب ولا أي شك قط. لاحظت أن بعض بنات وردان كن يغطسن قائمتهن المترعصة المختلجة المشيقة في بركة من الدم ما كانت تكف عن التضخم بين

أفخاذ أمي. . . فاضطررت إلى الانتظار قليلاً ريثما تقصر الجثة وتتقلص فآخذها وأحملها في الكيس الصغير عبر هذه الأنهج والشوارع اللعينة. كنت على وشك الانتفاضة غاضباً متسائلاً في نفسي كيف أتصرف فأسري في هذه المدينة المكتظة بأضواء المرور التي تشتعل وتنطفىء على وتيرة واحدة سرمدية فتلون أطراف المارة والأشياء بكثافة الضباب الملتصق على الشريحات المتراكمة في الجو الطاغي على العمارات إذا ما هبط الليل منذ السادسة تقريباً ساعة خروج الموظفين من مكاتبهم وإداراتهم. تلك المدينة المكتظة بشرطييها الحانقين الضاجرين الذين يحملون على وجوههم أقنعة رهيبة لصيانة هويتهم المجهولة. تلك المدينة بأزقتها المكتظة بالحافلات والترامفايات المدهشة والتي لا يرتاح المرء لركبها وهي أهدأ من أن يركبها الراكب مطمئن البال مرتاحاً. تلك المدينة بمنازلها المقززة وواجهاتها الفذة، بنسائها اللحيمة مؤخراتهن وقد أخفين دوالياتهن بجوارب من النيلون البنفسجي البرتقالي الوردي معاً. تلك المدينة بكلابها المروضة الخنوعة التي لا توسخ الأرصفة ولا تشوهها بغائطها وبولها. تلك المدينة بممراتها الخاصة بالراجلين والمطلية بالأصفر الفسفوري البراق. . يا للمأزق. . على أنني مضطر كل الاضطرار إلى تحمل كل المصاعب والمصائب، فأنتظر على أمل أن تتقلص الجثة وإلا تعرضت إلى سخرية المارة وتعليقاتهم وتعقيباتهم فيما أنا ذاهب أسري حاملاً تلك الجثة على ظهري. فلا ضرورة

لإزعاج أعوان الشرطة ذوي الاندفاع المبالغ فيه ولا القطط المتضورة جوعاً. لقد كنت على يقين مما قالته لي العجوز علاوة على أن أمي كادت تتفرغ من دمها تفرغاً، فلا مندوحة من التمهل بعض الشيء.

أستفيق وفي فمي مذاق الورق الممضوغ. بإمكان من أن يعبر عن حوافي هذا الحلم الرهيب؟ كيف يعمل صاحب القلم للتعبير بكلمات عن كل هذه الانطباعات التي انطبعت بانطباعات الغرابة؟ أستيقظ فأشعر بالانزلاق شيئاً فشيئاً في جب عميق ممطط فلا أصيح صيحة بل أحس بالغوص في سعادة ليس من بعدها سعادة وكنت قد قررت ملازمة الصمت في الحلم بانتظار حدوث شيء ما أياً ما كان ما عدا جنازة أمي. أما الآن فإني أستفيق ويا له من استيقاظ مرعب. وإذا تراودنا من جديد ضجيج المياه في المراحيض لا تكف عن هديرها المقيط. كم مرة؟ من المستحيل إحصاؤها. وإذا بالأرقام تتخبط وتختلط في رأسي حيث لا تنفك تهيم فيه أحداث الحلم الرهيب والكابوس الطري. يوم جديد وحركات متواترة معتادة: تغميض أعين الموتى، استنشاق رائحة المستشفى الفاترة، انطفاء المصباح الأزرق، اشتمام نتونة المراحيض (الشمندر الفائح) اجتناب المشرفة على الممرضات، تلك اللعينة الجشعة التي صممت على قتلي (يتهاطل على رأسي وابل من...) حشرجة. ليل. جنون. هنا إنسان يقرق ويقطقط في منطقة من العتمة المهوسة. هناك آخر يرد عليه. نوافذ مفتوحة. روائح ثقيلة.

بستان عابق. مدير راضٍ كل الرضى. امرأة هرمة تتقدم من سريري مترنحة. لقد أخطأت مكانها. أطردها بشراسة: «إنك مشوهة بالدم الطمث... انصرفي». الخوف من الدم يراودني من جديد. تخرج العجوز لساناً ضخماً، فخماً مبصلاً، فيه ابيضاض رهيب ولولبة بنفسجية. لسان المرأة ذكرني بالحلاق الذي ختنني وهو يتلوى تحت أسوطة الشبق فيما النساء رحن يزغردن ويحركن ألسنتهن بسرعة فائقة، تثير رغبة الطهار في عضها ومصها. «انصرفي». وتذهب العجوز مشيرة إلي بأن أسكت: «ششت» وتذهب فأشهد دواليتها المنحوتة على ساقيها وكأنها عقارب تعج عجاً على قشرة خبز بايت مبيضة طليت بأزرق الميتيلين. ويعود الصمت فيسود المكان فيما رواسب النعاس تلتصق على جفوني فتضبب إدراكي الحسي إضباباً إلى حد أن الذكريات تتمسمر من جديد في مخيلتي (كيف أنسى تلك الحرب الطويلة الرهيبة وكيف أنسى هروبنا أمام الجنود الأجانب الذين لا يفهمون كيف نستطيع التعلق بالأرض خصبة كانت أم جرداء. كم من قرية زرناها وهي متسربلة بالليل حيث كان الفلاحون التعساء يقدمون لنا الكسرة والمروب مرددين اسم الله على وتيرة دينية وكأنهم يبغون إبعاد شر المعتدي وحظر الغزاة عنا. وهناك الصخور والأراضي الحجرية التي كنا نعبرها بحثاً عن مأوى أو ملجأ نزحف إليهما مختفين وراء شجر العناب وصبار الهند وإذا نحن على هذه الحال تنفذ قطرة من الشمس في عين من وقف عساساً يسهر على

مشارف القرية ملتحفاً ببرنسه ذي الوبر الخشن، متأبطاً رشاشه، المسند على بطنه وهو على أهبة الاستعداد لإطلاق الرصاص المدوي فيهلل صداه عبر الجبال الشامخة. حذار من العدو. واتق أكثر منه شر القرمزيات اللعينة، إنها تلسع بجوار الوديان إذا ما اقتحم الفجر الحليبي وجوهنا المنحوتة نحتاً إلى الأبد. يا لها من حرب شعواء لا زهور فيها ولا أحلام. وكذلك النبالم المتصبب علينا من قبل تلك الحشرات الفولاذية التي تدور وتلف وتحوم حولنا فتعج في السماء عجاً، فتحلق فوق الشواطىء والسبغات والهضاب. كنا نبرز من الظل ومن الشمس بغتةِ فنضرب ضربتنا قبل أن تبتلعنا الغابات والرياض المطوقة بالصبيحات الخزامية اللون. ويؤون أوان القيلولة الندية والزحف من جديد بين الفلل والأوهاد على حافة الهضاب والمرتفعات. فغالباً ما كان يصعب التفرقة بين الشيء وظله والغنيمة والعدم. فكان لا بد من السهر على عدم تبذير الذخيرة وإهمال الأمور وعدم التهرب من العمل الشاق. حتى إذا ما عدنا إلى نفس القرية كنا لا نجد لها أثراً وقد كان العدو قد دمرها فمحاها عن بكرة أبيها محولاً إياها إلى كومة من الحجارة والحديد: بضعة ملابس رثة وجثث مبقورة وجيفة كلب وهيكل حمار عظمي هشمته القنبلة فقسمته إلى شطرين متساويين وقد خرأ أحشاءه فأزرورقتها الشمس مثلما تم الأمر نفسه لأشلاء رضيع مبهوت لم يكن ليفهم ما طرأ له فمات ووشمه الحديد فتمطط جسده وانتفخ بطنه تحت تأثير

رائحة أشجار الفلفل والعرعار الفواحة. ومن حين إلى حين وبعد مجزرة أو مذبحة كنا نجد عجوزاً تتوضأ بدم بقرتها المبقورة وفيها من الجدية والوقار بحيث يستحيل الظن بأنها لا تتمتع بعقلها ورصانتها...). أما ذاكرتي فقد فكت أعنتها ورفعت حواجزها فوضعت من جديد على سكة الزمن الواقعي.

عاد أبي فزارني من جديد بعد أيام. كان حليق الوجه، ثابت السريرة، بعد أن فشل فشلاً ذريعاً في محاولته إفشاء سره والتهكم بي فيغرق في نوبة من الضحك الجنونية. جاء وبيده زهور، رافلاً في بدلته الزرقاء، مسترجعاً مشيته التي اشتهر بها عند مومسات الصقع كله قبل سقوطه في الفخ الذي كان قد نصبه له سي عمر والذي أفقده احترام ومحبة طغمة الهامشيين المنحرفين المتمردين المغضوب عليهم. فما كان لينسى تلك الإهانة فحاول المستحيل لنسيان تلك القصة الرهيبة، فزار الساحرات والمتشعوذات والعرافات بدون ما جدوى. ومنذ ذلك الحين راح يحمل خفية حرزاً كانت قد أعطته إياه امرأة ماهرة في التبصير وما كان ليجرؤ على إبرازه أمامي وأمام شرذمة شركائه. جلس أبي جحا وقال: «لا أتحمل الفتل حتى بذبابة هزيلة، فما بالك وممارسة الجنس مع امرأة؟ أواه.. أواه.. لا ما كان بإمكاني قط إحباط إنسانة ضعيفة على الإطلاق». ولما لا يعرف كيف يتحكم في الأمور راح يثرثر ويثرثر، ويبصق من حين إلى آخر تلزجات مسلول دبقة ثخنة في منديله الحريري الخام،

مكشراً عن أسنانه، مازحاً، مستهتراً، هازاً رأسه زهواً وعنجهية. وهكذا كان يتوغل في محاولة يائسة لاستجلابي وافتتاني. لكنني أبيت أن أمد له يد المساعدة بعدما سمح لنفسه الإقدام على مثل هذا العمل الشنيع وعلى ما مضى عليه من أعوام وتعاقب سنوات. عبثاً حاول أن يشرح لي موقفه الذي وقفه آنذاك. مبرراً إياه بما فطر عليه من اشمئزاز من نكهة العساسين الكورسكيين ورتيلاء الزنزانات فما كنت لأقبل منه عذراً ولا أي حجة بل كنت أهزأ به ضاحكاً لسذاجته وقلة ذكائه. لماذا عمد إلى التزام الصمت ساكتاً أمام تهجماتي؟ لست أدري. وإذا به يأخذ فجأة بالتسبحة مشهراً سبحته العابقة برائحة العنبر. ظننت أن في ذلك حيلة يلجأ إليها فيجد إلى الترفيه عن نفسه سبيلاً، فلم أر أن أقص عليه ما عشته من كابوس أليم في الأمس.

فكان إزاء عنادي وإصراري يحاول مشاكستي فيسألني عن نادية مستفسراً عن موقفها. وعبثاً حاول فقد رحت أوبخه: «كيف قبلت صفقة سي عمر؟» فلا العناكب ولا نكهات الحراس ولا شيء يبرر ذلك. ولشدة ما كان جباناً فقد كان يعترف بذلك مصرحاً لي بأنه سوف يغير شيئاً من سلوكه. . . «أترك الشجاعة للرجالة. تحب ولا تكره، أنا هكذا ونبقى هكذا. . شاءت الظروف. . والنظام الفلكي».

كان جحا يزعجني كل الانزعاج بتربيعته وإصراره على طوي منديله بكل وسواس واهتواس. وعند إسدال الليل سدوله راح الظل يكسو خده الأيسر فخلته كبشاً غث الصوف كثيره

وما عتم أن تبين لي أنه شخص آخر. يصمت. وبدلاً من أن يرد على السب بالسب وشتمي إياه بالشتم راح يشهر أمامي سبحته العنبرية اللون الفواحة الرائحة. ثم يقبع جامداً برهة من الزمن بعمامته الثلجية وشاربه الصوفي ومشموم ياسمينه. وإن أنا أكره فلا أكرهه مثلما أفعل إذ أراه يحاول تقمص دور الضحية المسكينة. يا للجبان! (مثله مثل ذاك الكبش الذي أتى به سي عمر في فترة عيد الأضحى، فتركه بين أيدينا نعبث به في صخب وضجيج. فنركض وراءه نلاحقه إلى أن يرمي نفسه من أعلى السطح فيسقط على سقف الترامفاي عند مروره في شارعنا. وإذا بنا نتتبع من أعلى الدار مسار المقذوف الرائع ثم انفجار الحيوان المسكين الذي تبعثر ألف ألف جزء فتقاطر دماً ودسماً ونخماً، راشاً وجوه المارة رذاذاً أحمر غريباً. وإذا بالفقراء يغتنمون الفرصة فيأخذون حظهم من هذا المن النازل من السماء فيذهبون ينهشون قطع اللحم والشحم فيما راح الآخرون يستغلون الحادثة لامتطاء الحافلة الكهربائية مجاناً وخلسة قائلين للقابض وقد أخذه الدوار أنهم دفعوا له ثمن التذكرة قبل حدوث الكارثة (أو وقوع الجريمة؟) مستشهدين بالله وبرسوله وبالأولياء الصالحين، متخاصمين فيما بينهم بحثاً عن أفضل مقعد وأريحه، بارزين فرحتهم لركوبهم الترامفاي للمرة الأولى ربما في حياتهم، معترفين بأنهم ما كانوا ليجرؤوا على وضع ولو رجل واحدة فيه، لولا هبوط هذا المن الرباني المتمثل في كبش يستطيع الطيران هكذا

في الهواء... أما نحن فمكثنا في أمكنتنا وجهاً لوجه أمام هذا المشهد الرهيب، مذهولين لما طلي الجو به من لون وصبغة حمراء قرمزية، بما فيها من درجات في الاحمرار ممكنة، فيما راحت عصا الترامفاي الكهربائية تلوح يمنة ويسرة بدون ما انقطاع وكأنها فقدت حس الاتجاه...) أما جحا فقد كان يتعنت مصراً على التعاظم والتفاخم. فأفهم إذاك أنه عاجز وهو على هذه الحالة عن أن يصبر طويلاً بعد أن سمر جسمه تسميراً على المقعد لا تفارقه السبحة قيد أنملة فيبدو وكأنه مهرج هرم أحيل على التقاعد نهائياً فاقداً بالتالي جمهوره الوفي الأمين. فقد كنت أنا على علم بأنه يخشى مفارقتي لا لشيء بل لأنه يخاف عبور البستان الغاص بأرواح المجانين وشق كثافة الليل الحبرية... ولذا استغليتها فرصة للعودة إلى الكتابة على دفاتر الحزن الأليم والبكاء المر المرير.

علاوة على دور التعذيب لقد ورثنا أشياء كثيرة أخرى لا تحصى ولا علاقة لها أبداً بإشاعات المداح الذي راح يهذي حول البرد الذي تساقط في فصل الصيف والطوفان الذي عم الأصقاع بجميع أرجائه والزلزال الذي زلزل مرة كل عشرين عاماً، بل أشياء أخرى تفوقها أهمية. قال جحا مرة: «لقد انصرفوا وحسناً فعلوا..» هذا هو المنطق، هذا هو نظام الأفلاك وكر الأيام. لكن لماذا هذه التركة المسمومة؟ لما خرج الصناديد من البلاد واتفقوا على تهديم كل شيء: فركزوا قنابل البلاستيك في كل مكان وحتى في أست حمار جحا نفسه. ذاك الذي كان في عونه لنقل صناديق السردين من الميناء إلى السمّاكة مما جعل الحمار يستغني عن التبن والشعير لمدة عشر سنوات مكتفياً بتلك الشحنة من الطاقة الهائلة التي دست فيه ولم تتفجر. كان جحا يحب حماره فيدلله ويذهب إلى الهمس في أذنه

اليمنى التي كانت أرق من اليسرى مما حدا بأصدقاء أبي المزعوم المحبوبين أن يغاروا منه لامتلاكه حيواناً سحرياً كهذا وقد حاول الكثيرون الاستيلاء عليه أو اختطافه بدون جدوى خاصة وأن الحمار كان قد اعتاد كلما واجه خطراً ظرط بضعة غرامات من البلاستيك منذراً صاحبه سليمان الحيلة. وكان الرجل يتشدق طوال النهار قائلاً: «يجب استغلال كل ما تركوه شراً كان أم خيراً. وحتى قنابل البلاستيك أليس كذلك يا إخواني؟ لنفعل ما فعله جنود الرجل ذي اللحية الحريرية..» وما كان أحد يفهم ما كان يدس جحا من دسائس ما عدا الحمار الذي كان يأخذ في تحريك أذنه اليمنى بسرعة فائقة. وكان رواد سماكة جحا يتمتمون فيما بينهم أن الحيوان إنما يبالغ في الخنوع مفرطاً فيه وأنه أحمق كـ... الحمار. ويأتي صبي فيتهكم من الكبار لكونهم لا يفهمون ما يقوله جحا ولا يفقهون. أما أثرياء القوم وكبار التجار فقد كانوا على حذر منه: «سليمان ـ الحيلة يحب توسيخ شرفنا والاعتداء عليه.. يحسبنا بلهى». إلا أن أحداً لما يكن يفهم بعد حكاية الرجل ذي اللحية الحريرية وإذا بجحا يمل فيقول: «إنهم يستعملون حتى الفوهات التي تحفرها قنابل الماركان فيحولونها إلى أحواض يربون السمك فيها..» مما كان يثير القهقهة وإذا بجحا الملقب بسليمان ـ الحيلة يغضب ويحزن. لكنه لم يجرؤ على الإفشاء بسر قنبلة البلاستيك التي دست في

مؤخر الحمار إذ هو عارف بأنهم لن يصدقوه... وكان الناس على علم بأن ما أصاب الرجل هو مس من ذاك الجنون اللطيف والدروشة الطريفة وقد ضربت السياسة أطنابها في عقله فحولته إلى مشوش سياسي من أكبر المشوشين. من يثق به؟ وأمام هذا الجدار من اللامبالاة والتهكم على الثورة الكونية التي كان يؤمن بها ويبشر بحلولها يأخذ جحا في الإرتكان إلى حماره موشوشاً: «ما تخافش يا خوية.. غير يحكم البلاستيك عشرين سنة أخرى وتشوف.. كلك فائدة يا حماري وما نخسر عليك حتى كيلو ڤرط. وصحاب المال والدراهم رايحين رايحين كما راحوا الفرنسيس.. واللي ما يحبش يروح نسلخولو جلدو..» ثم يقهقه جحا وهو يتخيل تلك الثورة العارمة ويدغدغ بدون قصد أذن الحمار فيطزطز هذا الأخير بضعة غرامات من البلاستيك تعبيراً منه عن سوء مزاجه أو بعض التوتر في أعصابه.. «كلهم كلاب.. هاد الأغنياء.. كلاب بنين كلاب. ماشيين ويترفهو على ظهر الشعب.: كلاب بنين كلاب». يبصق جحا على أرضية الحانوت فيما يذهب الآخرون يقهقهون ساخرين منه. ما هذه الخرافة الجديدة؟ خرافة الفوهات التي سببتها قنابل الماركان في بلاد المرزات والتي تستعمل أحواضاً لتربية السمك. يا لك من مجنون يا جحا.

ولم يكن ليثق به أحد ولا حتى أولئك الذين يجتمعون

في حانوته كل صباح للاستماع إليه وهو يقرأ عليهم صحف العالم أجمع محاولاً في نفس الوقت ـ خلسة ـ تدسيس أفكاره الشيوعية في عقولهم وفي قلوبهم. كان يتململ ويجلجل كلما رآهم يرفعون الشفة العليا حاملين على سماتهم آثار الشك فيما كانوا يبرمون السيجارة تلو الأخرى متعمدين التباطؤ والتأني فيضجر ويفقد برودة أعصابه هو من اشتهر بذكائه فسماه بعض أصدقائه سليمان ـ الحيلة والبعض الآخر جحا الخبيث، يهوج فلا يبالون بل يستمرون في برم السيجارة ببطء متماطلين ثم يحشرون في أفواههم اللفافة المشحونة بمسحوق التبغ الأسود، بين الأسنان والشفة السفلى متنفسين الصعداء. أما إذا ما خانه الأحباء فمن ذا الذي سوف يتفهم مواقفه السياسية؟ لقد أذهل جحا زمرة المغضوب عليهم، لأنهم رفضوا خرافة الفوهات في بلاد الأرزات رغم نزعتهم الفطرية إلى الحنو نحو كل ما هو هذيان واستعصاء. لقد جن جنونه. اغتاظ الرجل غيظاً. لكنه أبى أن يهزم، فراح يبحث في أدراج مكتبه عن قصاصات الجرائد ومقالات الصحف الصفراء ليبرهن لهم عن صحة ما يقوله لهم. ثم إنه يستطرق إلى الاقتصاد الحربي ويبعث في الأجواء بأرقام تدل على نمو وازدهار تربية الأسماء في الجمهورية الشيوعية الخضراء (ج.ش.خ). لما في الفوهات من فوسفور وسلفات فترتسم على الوجوه الصديقة علائم الدهشة والوجوم. أما أثرياء القوم الذين كانوا يترصدون تجارة الأسماء المتفاقمة يوماً

بعد يوم في حانوت عدوهم اللدود فكادوا يغشون من الضحك مما آل بهم الأمر إلى تصدع بطونهم الضخمة المزخرفة بالساعات الذهبية والسلاسل الألماسية حتى إذا ما غمرهم الفرح شرعوا يرقصون على وتيرة متثاقلة فسرعان ما يتوقفون وقد أعاقتهم ضخامة أجسامهم المتخمة. لكن هيهات أن يقبل سليمان ـ الحيلة بالهزيمة فلا يعدل عن موقفه السياسي بل يستمر في سرد الأرقام والوقائع. كان عليه أن يقنع هؤلاء المتجمهرين أمام دكانه بأنه من واجب كل منهم أن يحول العائق إلى فلاح: «لولا دهائي وفطنتي لانفجر كل الحي ونسف عن بكرة أبيه.. ألم أبلل شحنة البلاستيك الذي كان يحمله حماري؟».

كان يحاول بيع روث حماره إلى الأثرياء الأغنياء الذين كانوا يسعون إزعاجه ومضايقته بأسئلتهم الخبيثة حتى يتعثر ويتناقض في أقواله ومعتقداته. أما حماره فقد كان يعيش في مؤخر السماكة وسط الحثالة ورهط أولئك الذين لفظتهم المدينة بلا شفقة ولا رأفة: من شعراء فقراء، ومومسات هرمات طردن من المواخير البائسات، وفتيات هاربات من عسف أرباب العائلات، وثوار مختفين وراء نظاراتهم السوداء مستورين اتقاء شرطة الناسك الأكبر اللعين ذاك الذي راح يطاردهم وبلا هوادة يلاحقهم، وعازفين فاقدي البصر والبصيرة منذ حين، ومتشعوذين سقطوا في براثن البوليس السري فأرغموا على الوشاية والتجسس مكرهين، وكتاب عموميين كسدت سوقهم لرفضهم استعمال

الآلة الراقنة مما أدى بالزبائن الأميين المتزاحمين أمام عمارة البريد إلى مغادرتهم هاملين، وأدباء يعانون من أزمة الانتاج فلم تعد تختمر أفكارهم بل تجمدت الهاماتهم فراحوا يسوقون أقدامهم وهلوساتهم وكسلهم مجرجرين، فأصبحوا يتقيأون لمجرد النظر إلى ورقة بيضاء تحمل كل كآبة العالم سائمين، وشرطيين من فوج الأعضاء السريين وكأنهم في فترة كفارة عند المشوشين أو في دورة تربص أو استهتار عند العدو الأسطوري خاصة وأن الأعضاء يعرفون عن دراية أن سماكة جحا إنما هي المحل الوحيد الذي يمكن أن يتوفر الطعام والشراب فيه أثناء شهر رمضان المعظم دون حرج ولا خوف من انتقام الجماهير وتعصبها ومن ديماغوجية الناسك الأكبر، وفئات الكتع الدراويش المنتمين إلى حزب تحرير المنطقة الباقلية وراء مبسط السماكة الشهيرة معتصمين وداخل صالونات العواصم الأجنبية الفخمة متوارين، وطلاب عباقرة لم يطبقوا فخفخة طفاحلة الأساتذة الهرمين، ولصوص على أهبة الاستعداد لارتكاب سرقة القرن أو دخول السجن للمرة الألف أو الألفين، وأزواج عيل صبرهم وكرهوا مؤخرات نسائهم الشهيات، فأتوا إلى الحانوت لتدبير خطة جهنمية تخلصهم منهن لاجثين، وحشاشين مصرادين ذوي الرؤوس المحلوقة والأحلام المشققة المشحونة بمواء القطط وطقطقة الأثاث وتمييع الخوارق محتشدين، وخطابات وقوادات مدودات آتيات إلى هنا سعياً وراء بعض النصائح من جحا الملقب

بسلمان ـ الحيلة، وذلك لشدة ما عاث الكساد في مهنتهن فقضى عليهن لفرط ما غطس الشعب في عالم الورع والتقوى آمين، وشبان أبرار أتوا من الخدمة العسكرية هاربين، ودراويش مرتكبي المحارم وفي المحرم واقعين، وعرافين لمستقبل الآخرين متعصبين، ومحتكري الأموال والأملاك وقد أبهرتهم العقيدة الثورية جاؤوا متفقدين، وثقل الإنسانية ذوي الأرجل النتنة والرائحة الكريهة، وثمالة العالم تعبق نكاهتهم برائحة الصوم الأبدي، وعازفي القانون خارقي تقاليد الموسيقى البالية، وعلماء الموسيقى المتحمسين للتواشيح الأندلسية وانحرافاتها، وساحرات حرم عليهن الحمامات العمومية حيث عثن فيها فساداً وفجوراً، ومبدعين مصابين بالعقم، وثرثارين دوزنوا الفصاحة حسب مقاييس مجهولة، وفلاسفة ذوي الأوجه الذميمة والطرق الماورائية القبيحة، ومعوقي حرب السبع سنوات، ومرضى هاربين من ألف مرسطان، وسكارى مدمنين متغطرسين في الدفاع عن حق كل مواطن في النشوة الكحولية، ومتعاونين أجانب أصابهم الغثيان ووخزهم ضميرهم أمام جشع زملائهم، ومعلمين مذهولين قد غرقت وجوههم في لحيهم، ودكاترة مختصين في فن الديماغوجية الحديثة إلخ.. والمحتكرين الذين اقتنعوا من صحة القضية فلا يبدون كثير نفور ولا تماطل. علماً بأن صاحب المحل كان قد قدم شروحات ضافية عن المزايا العجيبة التي يتمتع بها الروث البلاستيكي، وقد راح يبالغ ويغالي مؤكداً قدرته على موازاة

أعجب الأسمدة فتعطي أجمل ما عرفه العالم من زهور وأحلى ما عرفته الإنسانية من أنواع الفول، هذا وحتى إذا زرعت البذور في أسفلت الطريق السريعة المؤدية إلى المطار الدولي.

وما كان من هؤلاء الأغنياء أن اقتنعوا أخيراً بخرافة الأسمدة العجيبة لكنهم رفضوا متعنتين حكاية الفوهات التي تستعمل أحواضاً لتربية الأسماك: «لا بد من تحويل المعاق إلى أسباب الفلاح». كان جحا يردد هذا الشعار الثوري على ما تيقن من أنه كان يضيع وقته وهو يقوم بدور المبشر الذي يحاول بث التوعية السياسية أمام صحراء أذهان أولئك المتسكعين القاحلة والعاجزين عن استقطاب وميض من الذكاء أو بصيص من الوعي. فقد كان يتمرد ويثور في وجه أولئك الطفيليين السقطاء وقد أقر العزم منذ زمن بعيد على إرغامهم على العمل. فكثيراً ما كان الكرب ينتابه فيغوص في عالم أسود حالك خاصة بعد إدراكه بأن ابنه المزعوم قد اكتشف فضيحة الزواج المزيف وجبنه واشتراكه في الجريمة التي اقترفها سي عمر فراح يهذي هذيان المضطهد (عقدة الذنب) ولعله كان يشك حتى في نزاهة ابنه فيتهمه بالتزوير والكذب والتصنيع مما كان يحمل جحا على عدم الإيمان بخرافة الانتحار هذه. إنه على دراية بالصبي ولكن من أين له الحل؟ لم يكن أحد ليستمع إليه، ما عدا حماره الذي لم يكلفه أي نفقة مالية بل وقد كان يساعده في عمله ويغدق عليه الأموال نتيجة الروث البلاستيكي القادر على

حد زعمه، على إخصاب الصحراء. وفي الواقع فقد كان راضياً عن نفسه مسروراً من قدرته على التلاعب بأذهان الأغنياء البلهاء، على أن هذه الإمكانيات كلها لم تقه من أزمة العيش والقلق. اليقظة ثم اليقظة يا رجل! أما لحيته فقد كان يحملها على غرار قرون الحيوانات فيعرف عن كثب من أين تهب الرياح وما مصدر الخطر. كان يسبر الآفاق السياسية البعيدة المدى ولا ينقطع عن زيارة ابنه في المستشفى ولا يكف عن تشمم الجو والفلا، على أنه وعلى ما كان عليه من حيلة ودهاء فإنه لم يجد للتخلص من الحثالة إليه سبيلاً تلك التي عشقت في سماكته بغية امتصاص دمه والتطفل عليه والتشاجر معه والإدمان على السكرات الجنونية والتعليق على الأوضاع السياسية السائدة في الأصقاع والتعقيب على افتتاحيات الصحافة الرسمية واغتصاب المومسات المسكينات لتعزيتهن على تجاعيدهن وترهل أجسادهن المنتفخة. وما كان جحا الملقب بسليمان ـ الحيلة ليكف عن قراءة مصاحف القرآن ونظريات ماركس.

وإذا ما تحسن الطقس خرج جحا وحماره للتنزه وإياه ولتغذيته سراً من الحشيش الطري والأزهار البرية. حتى إذا ما أطال الشجن إقامته في قلبه بات في الخلاء تحت القبة المرصعة بالنجوم فلا يعود إلى المدينة إلا بعد أن يكون حماره قد شبع فأكل إلى حد التخمة. وإذاك تهتز الشوارع الحديثة لهذا المشهد وهي ترى الرجل شاداً حماره بحبل

طويل.. ويا له من ازدحام مهول من سيارات فخمة وحافلات مكتظة في شارع سده جحا وحماره. ويمضي هو في طريقه لا يبالي وبالضوضاء لا يكترث فهو عالم بأن هذه الناحية من المدينة ليست من نصيبه بل هي من نصيب الأجانب وعملائهم، وإذا بشعاع الشمس ينعكس على واجهات المغزانات الكبرى فيجلف عيني الحمار الذي يغرق في نهيق طويل متقطع هائل فيزيد من تفاقم الضجة ومن الازدحام ازدحاماً فتسود الفوضى صخب هذا الهيكل المعماري الزاخم. وكأن المدينة ظهرت له امتداداً غريباً لكابوس طالما نغص نعاسه فها هي تنبجس ببنيتها المتقطعة المتفصلة المفرومة المرقنة والعاجة بملايين الإشارات والتأشيرات والإيماءات المركبة شاقولياً المتراصة أفقياً حول الرافعات المتكرشة والملفافات الضارية محطمة خطوط البواخر المستديرة المتناعسة الواهنة وقد قطعت البحار والمحيطات شاحنة سلعها من البلدان النائية وقد كان له هو جحا أن زارها في أيام شبابه قبيل أن يمضي على ذلك العقد الشيطاني مع سي عمر وأن يكابد أفظع إذلال عرفه إنسان بقبوله تغطية اغتصاب فتاة لما تناهز السادسة عشرة من عمرها ذاك الاغتصاب الذي أقبل عليه إقطاعي طاغية ملتحف بجبروته يدعي الورع والتقوى ومخافة الله. أما البواخر فلكم تبدو تافهة المنظر والحجم إزاء الحركة السرمدية المتواصلة العتيدة وغير المنقطعة على أرصفة الميناء خاصة إذا ما فقدت تلك البواخر رافعاتها التي ترتفع

خارقة بأذرعتها الأجواء المنبجسة خلال الأشجار والنوارس منطلقة نحو المرتفعات المطلية احمراراً صلصالياً والمرصعة بهياكل ناطحات السماء تلك التي أقيمت هنا دونما فائدة وفي غير مكانها، في مواجهة صارخة مع الحريق الشمسي الذي يثقل الجفون والتلوين السرمدي الذي يهشم العضلات ويحزز البشرات والمآقي. لم تكن الصلصالي والأحمر والبني ألواناً مصطنعة بل كانت طبيعية تتدفق تدفقاً وتعج عجاً. وتذبذب ذاك الرجل الذي راح يحدث نفسه في حوار داخلي خفي كأنه أصيب هو بدوره بالرعن الفظيع فتوغل الهذيان فيه توغلاً. فلم يعد يتمكن جحا من رؤية الأشياء وقد طغى عليها ضباب الغازات الخانقة ودخان الأزقة الملتهبة وسحاب اليمِّ الخفيف المتصاعد من البحار. ولكن لا هو ولا حماره يريان شيئاً البتة. ذلك أن هذا التراكم البنياني الذي يسميه الناس مدينة إنما يحرف كل شيء. فها هو جحا ينظر إلى القطارات تتقدم متهادية تهادي البواخر لتتوقف حذرة محتذرة على سككها الحديدية بجوار الميناء جنباً إلى جنب منه. كان عبور المدينة بالنسبة إلى جحا شاقاً ومرهقاً. فقد راح الناس يتجمعون حوله ساخرين متهكمين معتبرينه أبله فيما هو راح يهدىء نفسه متمالكاً أعصابه وهو يعرف تمام المعرفة أنه هو حارس الصقع الأمين. لكن العزلة فما أقساها...

وما أن عاد جحا إلى محله حتى راح يطرد المتسكعين عنده وشرع يشرب قارعاً الزجاجة تلو الأخرى. وهكذا فلم

يبق في الحانوت سوى جحا وحماره. وهيهات أن يكون قد استرجع هدوءه بعد مغامرة عبور المدينة تلك. ها هو ذا الآن وحده يشرب ويبكي ويصلي ويثمل ويقرأ أشعار عمر وكأنه يترقب شيئاً ما: الموت أو الكابوس الذي كثيراً ما راح يراوده فيحلم أنه ينزل بآلاف الزنابير اللزجة تقتيلاً. كان ينسى كل شيء ويتناسى أن شهرته كانت كبيرة عند سكان حي القصبة. لكن كيف يمكنه أن يمر مرور الكرام على محاولة الاغتيال التي قام بها ابنه؟ كم من المغامرات والمصائب تجتمع معاً في يوم واحد. إلا أن الشعور بالذنب ما زال عنده قائماً يحزه حزاً ويؤلمه كل الألم، فلا تزيد في حدة الحز والألم إلا حزناً وكآبة. كيف لا وهو يعلم كل العلم أنه أخفق في كل مساعيه. يا لها من أزقة مؤلمة أزقة الكوابيس والسكر والسخرية تلك. حبق أزرق. هنا يتوقف ضجيج المدينة ويشعر وكان الموت سوف يباغته في مكانه وينقض عليه انقضاضاً فيحيط به من كل جانب. أين الرفقاء؟ هناك من هو في السجن، ومن هو في المنفى، وهناك من اختفى عن أعين البوليس. أما سي عمر فهو هنا وما فتئت أعماله في تحسن دائم مستمر وأرباحه في تصاعد مطرد أبداً. لقد ماتت سالمة. فحاول مهدي أن ينتحر على أثر ما أحيط به بأن جحا لم يكن أباه. لا شك أنه اخترع كل تفصيل من تفاصيل أسطورة الفتاة المفتونة وخرافة الدم المرشوش الذي رشه على وجهها ذاك الزنجي الهرم وقصة غرقها في البحر. غريبة تلك الرواية التي

تخيلها مهدي! أما الممرضة فهي لا تجدي نفعاً بل لا هم لها سوى تعقيد الأمور ومضاعفة الفوضى وإرباك صاحب القلم الذي لا يلبث أن يغرق هو بدوره في تفاصيل ودقائق متناقضة متباينة. عندها يقول جحا: «غدوة يعمل الله تويل ويفرج ربي... لكن الانتحار فلا يمكن أن يكون حلاً... لا لن يكون. علينا أن نجعل لهذا النزيف حداً. وشرفي أنا وسعادة ابني، فإن الصقع لفي حاجة ماسة إلى الفلاسفة!».

لم تكن دور التعذيب هي جل ما ورثناه من الأجانب. لقد ورثنا منهم آفات أخرى كثيرة. بيد أن المداح كان لا محالة مبالغاً إذ راح يقص على جمهور الساحة، أنهم تركوا لنا تركة الزلزال والكوارث الطبيعية. ويضرب على طبله بشدة وعنجهية. وإن هو راح فإن جحا لم يرف له جفن. الآن استفاق سليمان ـ الحيلة من سكرته فراح يتجول في الأسواق القديمة ورغم نكهة الكهول المحمضة الفواحة من فيه فهيهات أن يتوقف عن لذع الانتقادات. لقد كان يتسلل بين المداحين يباغتهم بأسئلته الجهنمية يسخر من حللهم المزخرفة وقد التفوا فيها بوقار وأبهة، يكذب أحد العميان وهو يقص سيرة النبي محمد وصحابته، فيعمم الفوضى ويصبح فجأة هو المداح مما يحمل الناس على التحلق من حوله. لكنه لم يجرؤ على فتح فمه مخافة أن يدرك القوم حقيقته فيكتشفون أنه سكير متعربد ليس إلا. فيتردد قليلاً خشية أن يخيب آمال المعجبين به. إنه يتقي شرهم وهو لا يجهل أنهم لن يتورعوا من شنقه لو راودهم الشك ثانية بأن

صاحبهم لم يراع حرمة يوم الجمعة. ولا تفتأ الحلقة تتوسع وتكبر حوله، مما يثير غضب الدجالين والمشعوذين والخرافين عليه، فيذهب إلى التظاهر بحسن الجوار واحترام الطقوس فيطأطئ برأسه ويسلم عليهم. ويغتنم البطالون الفرصة فيطلقون العنان لضحكهم غارقين فيه غرقاً. وفي الحقيقة فإن الجمهور لا يعير أقاويل جحا اهتماماً ذا قيمة فهو هو الوحيد الذي يرفض الصدقة. لا فائدة من الدخول في الشرح والتفسير خاصة وأنه لم يجرؤ على مهاجمة القضاة والمشايخ إذ أن اليوم هو يوم جمعة... فلا يشتم كذلك الأغنياء والملاكين والمحتكرين إذ الشعب ما زال محتفظاً بمقدساته ويرفض أن يشتم رجال الدين يوم الصلاة الكبرى.

عودة ثانية إلى الدكان حيث وقف كل متسكعي المدينة على بابه مترقبين رجوع جحا إذ لم يجرؤ أحد على عبور عتبتها والحمار واقف لهم بالمرصاد. وها هو سليمان ـ الحيلة يهلل ويذهب باحثاً في جيوبه عن المسبحة العنبرية وقد نسي أن نكهته تفوح رائحة الخمور التي قرعها البارحة. وما أن يعثر عليها حتى يشهرها في وجه الحثالة متصنعاً التدين لمخادعة الشرطة التي تسرب أعضاؤها في مجموعة معارفه والمقربين إليه ولا تنفك تراقبه ليلاً نهاراً وترى فيه مشوشاً سياسياً خطيراً منتظماً وحزبياً ماهراً ورجلاً دساساً يترقب الفرصة السانحة للانقضاض على الحكم فيستولي على زمامه. أما هو فيسرع في قراءة القرآن بصوت

جهور عالٍ طالباً من الله المغفرة عن الذنوب وعن معاصي المتسكعين أصحابه أولئك الذين يأويهم ويمذهبهم خلسة. ولا تلبث أن تعود الأمور إلى مجراها الطبيعي وكأن شيئاً لم يحدث قط. وما أن يدخل سليمان ـ الحيلة سمّاكته حتى يضع المسبحة جانباً ويأخذ في تلقين الفقراء الدروس السياسية العليا وقراءة الجرائد على الأميين وتحليل الاقتصاد الوطني مستعيناً بالصور الشعرية والبلاغة النثرية بشكل لا مثيل له قط.

انصرفت نادية مصفقة الباب وراءها فيما راح أغلبية المرضى يوجهون إليها نظرات ملؤها الاحتقار، منهم الجالس على الفراش أو المدد أو الواقف عليه. فكنت في مثل هذه الظروف أشعر وكأنني استرجعت عقلي واستعدت الحياة وكنت أغوص في خضم الواقع بكل ما فيّ من همة ونشاط فيخال إلي من جديد أنني أعيد ترويض هذا الواقع كما تتروض العصافير على الرغم مما في الأشياء من مضاء يجلف مقلتي ملتهباً كل ظل يعترضه في طريقه. فإذا بي أصبح إنساناً آخر. وهكذا فقد كان في غضب العشيقة المكظوم ما فيه الكفاية لأطفو من جديد إلى عالم النور المنقذ فأسبح في جو دافىء مريح يبعث فيّ الحياة فآخذ في استنشاق الهواء ملء رئتي على وتيرة واحدة مسعورة. كانت الممرضة قد جاءت ثم راحت مغلقة الباب على مصراعيه بكل عنف وهياج غير آبهة بما يلحق بها من سخرية واستهزاء من شأنهما لو انتبهت أن يقضيا عليها لتوه، لعلنا

نتخلص منها دفعة واحدة وإن كنا بفقدانها نفقد ما يحملنا على التسلية. ولكم كانت تثير فيّ الضحك العصبي فيستولي علي استيلاء خاصة وأنه قد انتهى بي الأمر إلى الانفلات من دوامة هذا العالم الضبابي الذي عشت فيه لفترة طويلة منذ نقلي إلى المرسطان حيث مكثت فيه طريح الفراش مستسلماً إلى أيدي تلك المرأة الشكسة التي سرعان ما أصبحت عشيقتي لشدة ما كانت تتماوت سأماً وغماً وسط هذه الحثالة من المرضى الذين فقدوا كل جنس من الظرافة والطرافة. فلم أكن لأتغزل بها وما كتبت قصيدة بل عمدت إلى نقل قصيدة من ديوان أحد الشعراء الكبار مدعياً أنها من وضعي كما أنني لم أصرح لها بأنها هي التي ألهمتني في صياغة هذا الشعر وقد أخذ جمالها ونعومتها مني مأخذهما. وما انفكت منذ أن دخلت هذه القاعة الجماعية الملعونة تكرر هذه الجملة نفسها: «إني أشتهي الرجال وأرغب فيهم بدون ما تحفظ... هكذا بالجملة. شريطة ألا يكونوا طاعنين في السن وأن لا يكونوا حاملي قضبان رخوة وعظام ناتئة...» وكنت قد لاحظت للوهلة الأولى أنها صاحبة بشرة ناعمة وشعر أسود يميل إلى الحبر كما كانت على الأخص ذات نهدين فاخرين تغلقهما داخل بزة ضيقة باعثة منها شرارة الهلع والشبق والرغبة في سراول جمهرة المعتوهين المجنونين وقد سمروا على أسرتهم تسميراً بقطع النظر عن تلك الأدوية التي ما كانت تفتأ تزرعها في أجسامنا وقد أتقنت غرز الإبر في مؤخراتنا المسكينة.

ورغم ما كان يجتاحنا من غضب في كل سانحة فإن ما كان يميز علاقاتنا إنما هي الرغبة والتميع. أما الباقي فقد كان ضرباً من المظهر والمخاتلة لا غرض منهما سوى رش شيء من البهارات على حياتنا الكئيبة. أو بالأحرى فقد كنا نفتقر فيما نفتقر إلى عامل الوجد. ولذا كانت نادية تحاول تنشيط هذا الوجد وإثارته بينها وبيننا. أما مسلسل ذاك المريض الجديد الذي كانت قد أدخلته مقصورة العقاقير والمكانس فلا هدف لها منه سوى إثارتنا ولا يمثل إلا جزءاً يسيراً من المعركة الطاحنة التي كانت تخوضها لإنقاذ ما تبقى لها من شهوانية تعيسة ظناً منها أن تلك الشهوانية هي أهم شيء في الدنيا وما فيها. على أن الرجل وهو آخر من سقطت في غرامه ما كان ليتذوق أساليب نادية الجنسية فراح يلقي عليها خطبه ومواعظه مركزاً فيها على ما في واجبات الممرضات الدينية والروحية في الجمهورية الديمقراطية من أهمية قصوى. وإذا بها تهرول مخبرة إياي عما ولدت غطرسة هذا الرجل فيها من انزعاج وانتفاضة لمعاناة هذا المسكين من عقدة الاضطهاد الضارية وقد راح يقسم ويحلف مستشهداً بالأنبياء مصرحاً أن حماته قد سحرته بعد موت زوجته وذلك أثناء الوضع وبالتدقيق في اليوم الثالث من رمضان، فوجد نفسه بين ذراعيها مكبلاً مسبباً مسحوراً. وإذا بنادية تغتاظ من جراء ما شاهدته في سلوكي إذ أنها ما لاحظت عندي وهي تثرثر أي شعور بالغيرة وقد أدركت أن مسلسل غرامياتها هذا لم يستلفت

انتباهي فما كان منها أن اكتظ قلبها بالحقد فراحت مهددة بفضحي أمام الأعضاء السريين (أ.ع.س). بتهمة إظهار العداوة للدين الحنيف. ولكنني لم أبال إذ رأيت في المسبحة التي أهداني إياها أبي المزعوم حرزاً منجياً واقياً. حتى إذا ما بان في الأفق أحد الوجوه المجهولة المقطبة المشبوه فيها سرعان ما رحت مشهراً السبحة كما لقنني سليمان ـ الحيلة الملقب بجحا العظيم ذلك... فكنت إذن أشهرها صراحة مسبحاً بسرعة هائلة وبافتعال ظاهر مبين، فيظن أصحابي ورفاقي أنه قد مسني فجأة مس من الورع والتقوى فيغادرون أسرتهم بمشقة شاقة وجهد جهيد ويلتفون حولي متجمعين، مهنئين، مستبشرين خيراً من هدايتي إلى الطريق المستقيم وتعصبي النير فأزيد في سرعة التسبيح تسبيحاً. خاصة إذا ما اقترب مني أولئك الأعضاء السريون المختفون وراء مظهر من تاه عقلهم وفقدوا وعيهم، على أنهم في الحقيقة لم يكونوا إلا مندوبين عن العصبة ومفوضيها وبيادقها، لا غرض لهم سوى حراستي بعد أن جابوا البلاد طولاً وعرضاً باحثين، ملاحقين ظلي منذ ذلك اليوم الذي أتيت فيه بسامية إلى ذلك الضريح المعزول على شاطىء البحر حيث ما كان الزنجي المتعبد ليترك لنا أي مجال للانفراد وهو يسرح هناك في ذهاب وإياب مستمرين، وكأنه في حركة سرمدية قد انتابت أطرافه، فيما كان الضريح المستدير والمقبب يحطم بهندسته المستديرة المقدسة تضاريس الخليج الرائع حيث كان القط الأبيض لا

يكف عن تربص الحوت الصغير منقضاً عليه مبتلعاً إياه في أقل من لمح البصر ولا يلبث أن يقفل راجعاً نحو صاحبه الزنجي في متعة وتلذذ وتلمظ واضح... أما هؤلاء فمن هم يا ترى؟ أأقارب المرضى هم أم هم أعضاء سريون متنكرون في مظهر السذاجة والبلاهة؟ إلا أنهم لم يروا بدأ من الاندماج مع زمرة أصدقائي كلما اعترتني نزوة من التنسك والحمية الدينية. لكنني كنت أرفض مصافحتهم مما كان يثير استغرابهم فيحارون في أمرهم ولعلهم ذهبوا ضحية الضجر فتعتريهم رغبة شديدة في نزع أقنعة الخنوع والتخلص من شواربهم الاصطناعية وإبراز بطاقاتهم فيشهرون عن هويتهم لكونهم عناصر خفية من الشرطة السرية، فيعمدون إلى إلقاء القبض على المرضى وسياقتهم إلى دور التعذيب الموروثة من عهد الكابوس الاستعماري الذي دام مائة وثلاثين عاماً ـ لكم طال هذا العهد بحسب ما يراه جحا ـ ولعل أولئك الأعضاء السريين يترددون بعض الشيء فيقررون ضبط أعصابهم وتحمل اتهاماتي والاستمرار في وجه تهجماتي وتهكماتي فيلاطفونني ويداعبونني أو بغتة يجهشون في البكاء ويتوسلون متضرعين سائلين أن أباركهم. وإذا بي إزاء هذه التصرفات يساورني الشك فأسائل نفسي فيما إذا لم أكن قد أخطأت في ظني إذ اعتبرت أولئك الأبرياء في هذه القاعة أعداء لي وليس أولئك الآخرين وهكذا. فما كان مني وأنا أواجه هذا القياس الأقرن وهذه المعضلة العويصة أن أتمادى في الابتهال والتصوف فأنهمك

في قراءة القرآن بدون ما انقطاع آماد الليل وآناء النهار فلا يعتم أن تسري العدوى بين المرضى وتهتز القاعة بصخب القراء وهم في تكرارهم وترتيلهم ـ نكاية ـ يصيحون بأصواتهم العالية لا لشيء إلا لإزعاج الحراس المختفين وراء الأبواب مما يؤول الأمر بأعصابهم إلى التوتر وهم أعجز من مهاجمتنا وضربنا بعصيهم الغليظة فيخمدون تمردنا، مخافة أن يعترض بعض الأقارب محتجين، أولئك الذين أتوا في زيارة مرضاهم وهم على دراية بما يعمل به من قوانين في المرسطان. أما بعض الأشخاص ممن كنت أشك فيهم فإنهم لم يعرفوا ولو حرفاً واحداً من كتاب الله العزيز، فأراهم يحاولون إغرائي: يفتحون أفواههم ويغلقونها على غرار أفواه السمك إذا ما اصطاده الصيادون، وقد كانوا على يقين بأنه بإمكاننا القضاء عليهم حتى آخر واحد منهم إذا ما حدث أن انتابتنا أزمة من أزمات الجنون العاتية. فما كان مني أن أشفقت عليهم وقد أصبحوا في حالة يرثى لها بعد سقوطهم في المصيدة التي نصبتها لهم فيبدون مكفهري الوجه، متلعثمي الألسنة، مرتجفي الأجسام، متمتمي الأفواه، يتصببون عرقاً، لا يفقهون من القرآن شيئاً وهم إياه جاهلون وإلى الوقت يفتقرون إذ لا يمكنهم تعلم شيء أياً ما كان منه وهم يقضون وقتهم في مطاردة كل من وسلت له نفسه اقتحام عالم المعرفة والتفكير والتمعن في الأمور. يا للجهالة! بيد أنني ما كنت لأقوم بأية محاولة لتبليغ رفاقي عن هويتهم الحقيقية وبدلاً

من ذلك فقد كانت تنتابني نوبة من الضحك لا تلبث أن تنتقل شيئاً فشيئاً إلى المتواجدين في القاعة أجمعين بما فيهم الأعضاء السريين أنفسهم. آمين.

وما أن تنتهي الزيارة وينصرف الزائرون حتى تأتي نادية موبخة: «هذا عيب، إنني أعرف أسماء المسيرين بينكم ومدبري الفوضى ولسوف أقدمها إلى أعوان الأمن... عيب عليكم. لقد قضي علي وعلى سمعة هذا المستشفى وشوهت شهرته من جراء تصرف بعض المشوشين بينكم». كانت وهي تخطب فينا تتجنب النظر نحوي أو نحو صديقي العملاق المجرم. فاستطردت توبخ قائلة بأن المدينة برمتها تراقبنا وأنها تعلم أننا من سلالة المتطفلين على الشعب وعلى الدولة التي تنفق علينا الأموال الباهظة، وأننا علاوة على ذلك من فئة الثوريين الخطيرين، لا مذهب ولا ملة ولا دين لنا... أليس هنا من هو سفاك للدماء فظيع؟ أليس هنا من هم لصوص شرسون؟ أليس بيننا... وفيما كانت تتحدث وتتحدث إذا بصمت رهيب يخيم علينا ويسودنا، على أنها لم تكن لتجرؤ على مجابهتي قط. وهكذا وفيما هي في هيجانها ترغد وتزبد إذا بالسفاك ينحني صوبي ويوشوش في أذني فيقص علي حكاية غرامه، زاعماً أنه هو أمرؤ القيس حقاً لكونه حفظ كل أشعاره عن ظهر قلبه وبالأخص غزلياته الشهيرة تلك التي وضعها عن حبه لليلى. لكنه وفيما كان مسترسلاً في الكلام يتفوه بصوت خافت وفيما راحت الممرضة تصيح زاعقة صاعقة، فاته أنه ذبح

حانوتياً مسكيناً يوم باغته في إحدى الليالي القارسة فغرس خنجره في رقبة هذا المسكين الذي كان قد استفاق من نومه العميق مذعوراً فلا هو ينقطع ولا الممرضة، هي تستمر في خطابها وهو يتابع روايته. أسمعها تردد مكررة أننا كلنا متمارضون منافقون لا هم لنا سوى التهرب من المسؤولية فحسب (هل نسيت المشرفة المحترمة أنه لم يكن طول عهد لخروجنا من تلك الحرب الشرسة التي دامت أكثر من سبع سنوات استشهد فيها خيرة الشباب بيننا فذهبوا تقتيلاً وسفكاً وذبحاً وتعذيباً وسحقاً ومحقاً وجزراً وإبادة على يد جنود ذاك الجيش الأجنبي العرمرم وما حوى من عساكر ومقاتلين واختصاصيين في علم النفس وعلم الحرب...؟ هل نسيت الممرضة الكريمة أن بيننا عدداً لا بأس به من المجنونين كانوا يعملون في المعامل الفرنسية حيث كانوا يعانون من أنواع الإذلال والاحتقار والتعسف فجن من جن وهام من هام بين متاهات المترو ودهاليز مدن القصدير، بين ورشات البناء ومعامل الحديد حيث تحملوا آلام العنصرية المعملية من قبل أولئك الذين هم أنفسهم من أصل إيطالي أو بولوني وقد كانوا يعانون هم أيضاً ما يعانون من قبل سكان البلاد الأصليين ذوي الحساسية المرهفة والاحتذار والافتخار المرط لمجرد كونهم ولدوا فيها وكأن). وأننا نملأ مستشفيات الجمهورية الديمقراطية التي ضاقت بنا ذرعاً. كانت تبالغ في الحقيقة وتضخم أخطاءنا للترويح عن نفسها لا غير، خاصة وقد كان كلنا

يعلم أن لا شيء يفيدها لحملها على تملك أعصابها إلا ولوج فرجها ولوجاً فيه من الغيظ والعنف بحيث يتصبب جسمها صبوة وعرقاً. كما كنا نعلم أنها ما كانت تشتهي أن يشعل أحدنا في بطنها وأحشائها حريقاً هائلاً فيغدق فرجها ريقاً ولعاباً وماءً فاتراً يخيل إلينا أنه فراشة مجنونة أو جعو قد حوصر بين مطر خريفي مهطال وبرد صيفي مدرار، فيؤول بها الأمر إلى أن يكوى عضوها كوياً ويوسم وسماً ذاك الذي يمكنها من الغرق في نشوة التلذذ والمتعة الجنسية العارمة، فيمكن إذاك طرحها على فراش ولف عانتها بعشرات المناديل الواقية لئلا تنجس بدمها القذر ملاحف المستشفى المنشاة. ولعلها تصبح امرأة طيبة الأخلاق، لطيفة المزاج رصينة ذات حياة عاطفية وجنسية طبيعية فتتقن مهنتها وتضطلع بمسؤوليتها كمشرفة على الممرضات أحسن الاضطلاع وتكف عن نشر البلبلة في أذهاننا واتهامنا بأفظع المعاصي وتهديدنا بتسليمنا إلى الأعضاء السريين ظناً منها أننا نود الحط من سلطتها وكرامتها ومن منزلة الطبيب ذي النظارات الشمسية والأجنبي الجنسية والمنتمي إلى تلك الفئة من المتعاونين الذين طغت عليهم الأبوة رغبة منهم في إذلالنا واحتقارنا وإرضاخنا ولعله هذا الطبيب قسيس من القساوسة الإنجيليين المتنكر في زي طبيب، فيبث فينا دعوته الدينية وينشر بيننا مذهبه هذا.. لكن ما لها ترهبنا هكذا؟ لو أجابتني عن سؤالي هذا لسمحت لها آنذاك بأن تحدثني عن الوضعية الاقتصادية والحالة السياسية وعلم

التحليل النفساني وروائز غورشاوش والحبوب المسكنة وسيرة الرسول، وحكاية أبي الذي ليس هو بأبي وقصة أمي التي دخلت في حالة الاحتضار منذ مدة طويلة ولعلها لاقت حتفها الآن، وعن حادثة الاغتصاب على عشب البستان بالقرب من البئر وقد أصبحت الأرضية عبارة عن صفيحة صقلتها الشمس، وعن فضيحة تسويق اليد العاملة وتصديرها إلى بلاد ما وراء الصقيع، فتحشر في مدن القصدير هناك بعيداً عن العواصم المتخمة. «أواه... أواه... كاين المليح وكاين الدوني.. احنا نحب نطهر البلاد من المركانتية أمثال سي عمر... راك فاهم يا مهدي؟» كان جحا يردد مثل هذه الجمل كلما زارني. أما رئيسة الممرضات فقد كان صوتها يجلف الأجواء ويثقب الآذلان. وإذا بي فجأة أرفع صوتي صائحاً فيها: «كفاية يا عيني. كفاية يا روحي.. عليك بحمام حار..» وإذاك تصفق الباب بعنف وتمضي. طراك! فعقبت: «الله! الله!».

كل مرة يأتيني جحا زائراً كنت أسأله عن سياسة التصنيع هذه تلك التي تتحدث عنها الجرائد الراضخة والإذاعات الخانعة فيرد على سؤالي قائلاً: «طبعاً يا رجل. وأنت تعرف ذلك.. لقد رأيت كل المنجزات الصناعية وغيرها قبل أن تدخل إلى المستشفى، شفتها بعينيك يا سيدي. يا لها من آلات التنقيب الضخمة تعلوها نيران النفط المستخرج من بطن الصحراء.. ويا لها من مركبات صناعية هائلة وأنيقة (يملني بتحسسه الجميل) تلمع لمعاناً.

لكن يا ولدي الآفة هم الأعضاء السريّون (أ.ع.س) تلقاهم في كل مكان يتجسسون ويقودون للدولة. نكراهم يا أخي.. أكرههم.. والدين. آه الدين.. أعوذ كسرونا راسنا به.. يقولون إنه دين الأسلاف.. دعاية باطلة. إنما استغلال لعفوية الشعب وطيبته وسذاجته.. الأغنياء لا يصلون بل يرشون الأئمة والقضاة ورجال الدين. كله عملية الهاء وصرف الناس عن السياسة.. صدقني.. كرهنا يا ابني..».

كانت نادية لأتفه الأسباب تخلق وابلاً من الضجة والصخب. ومصدر ذلك هو هذا الالتباس الذي طغى على علاقاتنا. لم أكن أرضى منها أن تقول بأنها سارت على نزعاتها هذه وشواذها الجنسية أثناء الحرب البطولية، حرب السبع سنوات حيث ذهب أثناءها العديد من الضحايا والمحروقين بالنابالم والأطفال الأبرياء المشدوهين من جراء دوي الطائرات النفاثة وقد.راحت تلاحقهم محلقة فوق سطح الأرض، فتحطم المنازل شاطرة إياها إلى شطرين تهشم الأشجار وتسحق القطط التي لجأت إلى الأعالي لإنقاذ نفسها من الهلاك. حتى إذا ما تخيلت أنا ما عانت نادية من المصائب والآلام وما عاشت من فواجع، أحببتها من جديد إذ كانت تمثل جانباً من جوانب الوطن المقتصر في قطرة من الألم يحدث أن تتناساها ذاكرتي المهرولة وإذا بي أتخيل الدبابات فجأة فأراها تنبجس من كل حدب وصوب فأغطس في كوابيس مزعجة مصدرها صورة أمي

وهي جالسة وراء زجاج نافذتها تعري نهديها أمام سائقي تلك الدبابات فتغريهم. فلا أتورع أنا وقد كنت مختبئاً وراء إحدى الشجيرات من قنصهم الواحد تلو الآخر بدون ما تردد أو وخز ضمير.

(لقد صفقت الباب وانصرفت).

لم أكف اليوم من التردد إلى المرحاض. إسهال؟ بواصير؟ أم رغبة طبيعية في الانزواء؟ كنت أحب مطالعة الكتب والمجلات وأنا جالس على عرش دور المياه. كانت أمي وأنا صغير تستغرب إقامتي طويلاً في المرحاض. على أنني أجد الهدوء والسكينة في مثل هذه الأماكن. أنعزل. أفعل ما أشاء دون أي احتياط، خاصة وأنني سئمت معاشرة أصدقائي وجوارهم المتداوم واستغلالهم مواهبي الكتابية وطيبة خاطري ومعاملتي اللطيفة لهم كل الاستغلال. فقد كانوا يلحّون على استشارتي في شتى أمورهم ومشاكلهم، يمتعونني بتصرفهم هذا عن الكتابة. يا لهم من أغبياء. لقد نسوا أنني حريص كل الحرص على موهبتي هذه وأنها أهم ما أملكه في الحياة: الكتابة. يسمونني صاحب القلم ويمزحون. لكنهم لا يجرؤون على مصارحتي في الأمر قائلين: «أواه.. لماذا كتابة الكتب يا رجل.. بلا، إن تدبيج وتدوين الرسائل أحسن لك ولنا..» لماذا هذا التصرف؟ علماً بأنني كنت أنفر من كتابة رسائلهم خاصة وقد كنت أعلم أنها مملوءة كذباً وسماً ودناءة وخسة. وكانوا قد تعودوا كلما أرادوا مني حاجة أو إفشاء

أسرارهم السخيفة، تعودوا الاقتراب مني بحذر ولطف واحتشام. حتى إذا ما ابتدأوا بعد التحية والتمجيد في الإفصاح عن مشاكلهم الحميمة، رأيتهم يسقطون تحت رحمتي وفي قهضتي. أمسك بهنم وأضحك في أعماق سريرتي. فيفقدون بسرعة كل استهتاراتهم ومزاحهم واستهزائهم فيرمشون بأعينهم ويسترقون النظر تحوي من خلال أشفارهم وهم في حرج وقلق وغباوة. قبل المجيء يترددون هنيهة سائلين أنفسهم هل يفشون لي بأسرارهم هذه القذرة. أبتسم ما استطعت إلى ذلك سبيلاً حتى لا يغضبون علي لكنهم كانوا يخشون أن أستغل حكاياتهم الغريبة فأوظفها في رواياتي التي أزمعت على كتابتها. وكثيراً ما كانوا يتماطلون فتثور إذاك ثائرتي وأكتب كل ما يخطر في بالي في الرسالة. وما أن تمر لحظات معدودة حتى يخرجوا من وجومهم وينهالون علي شتماً وسباً، لكن سرعان ما يتوقفون وعلى ما تفوهوا به نادمين. إنهم تحت هيمنتي. إني ذو ثقافة واسعة وشهادات عالية. إنهم يعترفون بذلك فلا يلبثون أن يعودوا إلى إجلالي ومجاملتي واحترامي. وهم يظنون أنني ذو قدرة شخصية على صنع الخوارق والقيام بالمعجزات. لذا كانوا يهابونني ولا يجرأون على تقديم صورهم (الملتقطة في بستان المرسطان على يد مصور قصير القامة، هزيل الجسم ومتقدم في السن. كان يحمل آلته مفككة أجزاء متقطعة في سلة لمخاتلة الحراس وغشهم متحيلاً على العساسين. حتى إذا ما دخل المستشفى ركب

آلته في أقل من لمحة بصر. أما عن هذه الصور، فقد كانت مهتزة مضببة رديئة ولا غرو فقد أكل الدهر عليها وعلى هذه الآلة وشرب، إلا أن هذا لم يمنع المصور الخبيث من اختلاسه من الزبائن أثماناً مرتفعة فيغشهم ويحتال عليهم من حيث لا يدرون.. فيغتنم أيام الأعياد والاحتفالات الدينية فيأتي هذا الماكر برفقة صبي هزيل رافعاً فوق رأسه لوحة كبيرة رسمت عليها رسوم أسطورية تمثل الفردوس بغاباته وجناته الفاتنة وأنهاره الجارية وحورياته المتعرية وبوراقه الهاربة وقد خط اسم الله بخط كوفي جميل مزخرف متعربس. كما أنها تحمل على الجانب العلوي شمساً متسربلة تبدو وكأنها تسيل سيلاناً من فرط ما كان القماش قديماً رثاً وما أن يصل حتى يتهافت المجانين عليه تهافتاً، فينظمهم جماعات جماعات متوازية ويجعل اللوحة من خلفهم قائمة في مواجهة جدار أملس أمرد تزحف عليه بعض العظايات تعب الشمس عباً ويأخذ في التقاط الصور الواحدة تلو الأخرى.. يا للداهية الدهياء.. كما أنه اعتاد على تأبط صندوق محشو ملابس لما أحيط به علماً بتقزز المرضى من أزياء المستشفى. وإذا بالأصدقاء يتنكرون بها فيصبح هذا مملوكاً من مماليك الباب العالي في عهد الحكم العثماني، يبدو مشهراً شارباً كثيفاً مقوساً وخنجراً مهولاً وعلماً أخضر زخرف عليه اسم الله، والآخر يتقمص بأحد المظليين بزيهم المفهد بارزاً في منظر مخيف وشكل سفاك مغال فيه، وذاك يتنكر في لباس أحد السجناء

المحكوم عليهم بالأعمال الشاقة المؤبدة، وقد بدا مشطب الوجه بشطبات حمراء رسمها عليه هذا المصور الشيطان مستعيناً بإصبع من حمرة الشفاه. إنه صبور صبر أيوب لا يميل ولا يمل بل يعمل على مداعبتهم وملاطفتهم وما أن يكفوا عن التحرك حتى يضغط على الزر فتئن الآلة أنيناً حزيناً وقد قيل عنها إنها قديمة يعود عهدها إلى القرون الوسطى أي قبلما تخترع المصورة الأولى بما لا يقاس.

وإذا بأصدقائي يجمدون وقد فقدوا نوبات الضحك المسترسلة وروح الفكاهة المتسربلة، لا لشيء إلا لأنهم فهموا في هذه اللحظة بالضبط أنهم سيبقون مسمرين هكذا، مطبوعين على هذه الصورة إلى الأبد، مثلهم مثل الجماد والصخر وذلك بلباسهم المضحك ووضعيتهم الهزلية المثيرة وسط هذا الديكور الفردوسي الرث بغاباته وحورياته المتعرية العاريات السمينات الممدودات على أقدامهم متوسلات وإذا بهم، وهم على هذه الحالة، يشعرون بالقلق يغمرهم إذ تتسرب إلى صدورهم حصرة مضطربة وقد فهموا فطرياً أنهم منذ الآن فصاعداً سيكون هناك صنو لهم أو شبح أو مرادف طبع على قطعة من الورق المقوى البراق يتبادله أقرباؤهم وأصدقاؤهم ويمررونه من يد إلى يد، قائلين فيما بينهم مقهقهين: «يا له من بهلوان. وهذه الملابس المطرزة البراقة الفضفاضة من أين له ذلك يا ترى؟ إنه لمجنون حقاً. فليبق في المرسطان فهذا المكان مكانه الطبيعي...» ثم يعيدون الكرة ثانية مستهزئين مازحين

لكونهم لاحظوا تفصيلاً ما كانوا قد انتبهوا إليه من ذي قبل فيعقبون عليها وإذا بالصورة تمر من جديد من يد وسخة إلى يد دبقة... إنهم يعيشون حقاً في كابوس من الحسرة والضيم. وها هم أصدقائي يتحلقون من حولي حلقات حلقات فأحدس ما بهم، فيطلبون مني أن أكتب على ظهر الصورة اسمهم واسم المستشفى والتاريخ وكلمة تذكارية للأحباب والعائلة، فيما راح أحدهم يقول: «أواه اشحال قبيح أنا». فيغرق في الضحك المتصنع ضحكة الخيبة والقهر. فلا تفوتني نواياهم. أحدس ما فيهم من عزلة وعذاب وشعور بالتفاهة واللامعقول.. على أنهم لم يتورعوا من الدخول في اللعبة وذلك قبل مجيء المصور فتخالهم أطفالاً عشية إهدائهم ألعاباً وحلوى. إنهم يعلمون ما أنا عليه من نفور وتقزز أمام أية صورة تمثلني. فلا أطيق أن تلتقط لي صورة أطمس فيها حقيقتي وأعزي نفسي وأغش أصدقائي. ذلك أن الصورة لن تتغير قط بعكس الإنسان الذي لا ينفك في تغير دائم متواصل تكبر قامته وتقصر ويتضخم جسمه أو يهزل، يسود شعره أو يبيض... كيف يمكن الإنسان مواجهة صورة جميلة وأنيقة التقطت له فيما مضى من الأيام الغابرة وهو الآن على مر الأعوام تغير فقد شاخ ونحل وقد طبع الحزن بصماته النهائية على محياه بعد دخوله مستشفى المجانين وقد أصبح طريح الفراش، فيما الحياة تواصل دورانها في الخارج بتدفقها وحيويتها الصاخبة؟ كيف يمكن تحمل هذا الوضع المذهل ونحن

مستترون وراء هذه الجدران الشامخة؟ لقد مر المصور الماكر وها هم رفاقي في هياج ومواج مما زاد على ارتباكهم ارتباكاً، فحكم علي أن أكتب لهم كلمات تذكارية يملونها علي، فأهنئهم على صورهم هذه الملعونة: «أنت جميل حقاً. رائعة هذه الصورة أنت تصواري..» ولكم كانت تروق لهم هذه العبارات: «تصوراي..» يحبونها. يشغفون بها. فأذهب باحثاً عن اسم أحد الممثلين المعروفين كي يقتنعوا من أقوالي هذه، عن ممثل يشبههم بعض الشيء. ولا يخالفني إلا أسماء ممثلين هزليين قبيحي الوجوه، ثقيلي الروح، حولي الأعين. فيتميع مزاجهم ويتظاهرون بالتشكك: (لا أنت محتال يا مهدي.. لا، لا.. أعوذ بالله أنك تجاملنا. إن ذلك ضرب من باب المدح والمداهنة فأجيبهم: «بلى، بلى، حقيقة أنت تشبه شيكوكو.. فولة وانقسمت على اثنين.. كأنك صنوه.. صدقني يا أخي..») كانت الصور صفراء على قفاها، ذات الوجه البني ومطبوعة علي ورق قديم اختفى من الأسواق منذ عشرات السنين. إنها تذكرني فيما تذكرني بصور عائلية (صورة جدتي مثلاً، جدتي السمينة والشرسة، كانت قد أمرت أن تؤخذ لها صورة أثناء احتضارها تخليداً لهذا الحدث. فتربعت على السرير وواجهت عدسة المصور وهو رافلة في حلل كانوا قد ألبسوها إياها على جناح السرعة مخافة أن تموت قبل التقاط الصورة، فظهرت وعلى رأسها تصفيفة مخروطية الشكل، عنابية اللون تظهر من خلالها

ضفرتاها السوداوان مثل ضفرتي صبية صغيرة على ما هي عليه من كبر السن، ومن بصمات الموت التي بدأت تتسرب إلى عينيها الشبه زجاجية. أما وجهها فقد احتفظ بشراسته المعهودة وبوقاره المعروف وبتلك السلطة التي لم ينافسها إياها أحد طيلة أيام حياتها، فيها شيء من الغطرسة ممزوجة بشيء من الغرور أو الرخاء الذاتي. ولكم تعذبت أمي من جبروتها في أيام عزها. ولكم هي غريبة تلك الصورة التي صورت ساعة احتضار الجدة بوجهها الشاحب فقد طلبت هي بنفسها أن يحضر المصور تخليداً لرباطة جأشها فتكون مثلا يقتدى به من قبل الأحفاد ونموذجاً للشجاعة يحتذى به...) كثيراً ما شاهدناها أنا وإخوتي وأبناء عمي لما كان يخرجها أمام أعيننا الكبار ويشهرونها فتتلقن معنى الشرف والاجتهاد والعزيمة. أما أصدقائي المجانين فما كانوا يحلون عني فيمضون في دخول وخروج دائمين، طالبين مني أن أدبج لهم رسائلهم يرسلونها إلى عائلاتهم الحزينة، يطلبون ملحين لأن أكتب على ظهر الصورة جملة تذكارية مع ذكر التاريخ واسم المستشفى (قبلات حارة من... سلامي وحناني... متى الزمن يسمح يا جميل؟ وحشتي يا ليلي...).

سوف أقضي اليوم كل أوقاتي في المرحاض. ما خطر ذلك في بالي من ذي قبل. أتذرّع بالإسهال والبواصير. أبحث عن فسحة من الراحة والهدوء فأتمكن إذاك من القراءة والكتابة وممارسة العادة السرية مستثيراً نفسي بصور

النساء العاريات، والتخمين والتأمل في الماورائيات، فأتخلص هكذا من كتابة الرسائل للمختولين، مخاطباً أناساً لا أعرفهم. خاصة وأنني أنا سهل الانقياد بتيار أفكاري الخاصة فأستقطب مشاكلي وحالاتي فأعكسها على غيري مازجاً بين قصتي وقصص الآخرين فيختلط بالتالي الحابل بالنابل. أراجع الرسائل التي أدبجها لإخواني الأميين فيتضح لي ذلك ولا أعود أفهم ما هو نصيب الاستيهامات والأساطير الشخصية الخاصة بي وما هو نصيب الواقع الذي يعيشونه وقد كان مفروضاً علي أن أسجله. أما هنا، في هذا المرحاض المبارك، فسعيد أنا... وسط ذلك الجو الفاتر إلى حد ما، العذيبي الدبق بعض الشيء، والفائح رائحة الجبن المتعفن والخميرة الآسنة. أكتب وأقرأ وأفكر في أحوال العالم والروائح تحيط بي من كل جانب على اختلاف أنواعها حسب ما صفق من سبقني في هذا المكان: روائح مقززة تعوض عنها فوراً رائحتي أنا والتي تتغير مع نوعية الطعام الذي تناولته البارحة والأدوية التي تجرعتها قبل النوم. ولكن لا قيمة لكل هذه التفاصيل إذ الجوهر المفيد هو شعوري بالراحة فأستريح بعيداً عن بقية العالم والبشر. أسخر من حيرة نادية وهي تبحث عني في كل أرجاء المستشفى فلا تجدني (ماذا يفعل؟ ماذا يدبر هذا المعتوه؟). أما أنا فإني هنا هادىء. لا أضجر ولا أمل ولا أزعج أحداً وأحد لا يزعجني. أقرأ قصائد عمر وقد

أتاني بها أبي سراً إذ أن السلطة منعت أعماله من الانتشار في البلاد. أكتب وسط هذا المحيط المبطن بسبيخ الصمت والعدم، أكتب فأملأ عشرات الصفحات. ها إني قد استرجعت وظيفتي الأساسية: الكتابة في هوامش الدهر والدمار. أستهلك الكثير من الورق فلا يلبث أن ينقصني بسرعة. نشوة ووجد وشطحة. أترنح ويتساقط لعابي من فرط المتعة الوجدانية. تدب في الاستثارة وأنا جالس على عرش المرحاض الذي يتصاعد منه كل فتور الكون فيتغلغل في مناخيري على شكل صفيحات شبه ملولبة، فأستريح وأطمئن على نفسي. أصبح لي الآن قدرة على الحلم. لا أتذكر جسد سامية وقد بدأ شبحها يتقلص في ذهني ويذوب، لكنني أتخيل بسهولة أكبر صوتها المبحاح وفيه جشة وصلحة لذيذتان. لا لن أنسى صوتها الذي طالما راودني وسحرني بسحره. لكن المفيد هو الكتابة والخربشة وصريف القلم على الورق. ألف صفحة. ألهث وأنا أدوزن قصة احتضار أمي واعتراف خالتي وهي توشوش في الغرفة وقد زحف عليها الغروب وغزاها. حتى إذا ما سئمت من تصفيف الحروف وترصيع الجمل تركت ذلك وعوضت عنه بقراءة أشعار عمر مرة ثانية أو رسالة الغفران، فأتألم مع أبي العلاء متململاً. يا له من عبقري. لكن كيف اختار جهنم وترك الفردوس للبلهى؟ فلا بد من أن يكون الفردوس مملاً. أسترجع حريتي أيضاً وكأنني دخلت في بطن مبطن

حيث أكتشف شيئاً مما كنت عليه في ما قبل ولادتي حيث كنت أسبح وأنا جنين في بطن أمي ولما لم يفت على اغتصابها إلا أيام قلائل.

حتى إذا ما طالت إقامتي في المرحاض شعرت بشبقي يستثيرني من جديد، فينتفخ قضيبي وتغمرني الرغبة الجارفة رغم كل الأدوية المسكنة التي كنت قد تجرعتها قسراً. وإذ أنا على هذه الحال تبرز فكرة ممارسة الجنس مع نادية هنا في هذا المرحاض عينه. أذهب إليها مصارحاً ولشد ما فوجئت إذ لم أرها تغضب بل تجيب بكل هدوء: «أجننت يا مهدي؟» فقط. هل احمر وجهها وأنا أقترح عليها مثل هذه الأمور الداعرة؟ قليلاً، قليلاً... مسحة لا تذكر. لقد راودتني هذه الفكرة الجنونية من فرط ما أقمت في دور المياه حتى أتمكن من الكتابة والقراءة والتعبد. وإذا بي أباغتها في أحد الأيام فأحدثها عن رغبتي معللاً بأنني سئمت تلك المقصورة الضيقة التي تفوح منها روائح العقاقير المختلفة حيث تعودنا الاختلاء فيها، موضحاً لها أن هذا المكان إنما يقززني ويمنع عني بلوغ المتعة، لذا ألححت عليها مقترحاً لها أن يتم التجامع في دورة المياه حيث سأمنحها لذة لم تعرف لحدّتها منذ ولادتها لها مثيلاً. أتذكر تلك المقابلة وقد أخذتني الرعشة وأنا أنق وأقرق من فرط الحرج، كما أني أتذكر كيف أجابتني: «هل أصابك مس من الجنون يا مهدي؟ مهبول أنت». لكنني لاحظت وأنا مستمر في افتتانها وإقناعها أن شفتها السفلى قد

انتفخت إلى حد ما وأن جسمها ارتخى وجسدها ارتج وأبرقت نظرتها، ففهمت إذاك أن حظي كبير في إغرائها فتابعت حديثي ولغوي واسترسلت أصف لها كل المتعة والسعادة اللتين سوف تظفر بهما وذلك للمرة الأولى وكلانا منفردان منعزلان هناك حيث لا يمكن أحد أن يعثر علينا، فنتخلص عندئذ من كل أشباح الماضي ونخوض في بحر الشبق والرغبة ذينك اللذين لم نتمتع بهما قط من قبل، رغم أننا كنا لا نفتأ نحملهما كجرح معفن أو سرطان مقرظ لا نجرؤ حتى على التحدث عنه ولا نعترف به أمام الآخرين. كنت أتكلم وأسهب في الكلام وأكثر من التفاصيل إلى أن ثمل ريقها وتعسل واجتاحها تدريجياً فيندي ثيابها ويبللها، ثم لا يلبث أن يسيل سيلان الوديان فيتدفق تدفق الطوفان. فتسرع وتجري نحو غرفتها مهرولة حيث تغير ثيابها الوسخة وتعود نظيفة الجسم براقة الثياب، هادئة الملامح وكأنها تخلصت نهائياً من ذلك الانغلاق والتبليج الذي عودتنا عليه فركبت من فوقه نعومة وبشاشة ولطافة جديدة... ثم عاودت الكرة شارحاً لها، مستهوياً ذاتها، ملحاً على الطاقات الجنسية التي يمكن تفجيرها إن هي تبعتني إلى المرحاض حيث يمكنها الاستغناء عن نزع ثيابها بكاملها إذ يكفي تشمير زيها الأبيض فنربح وقتاً ثميناً، فألجها إيلاجاً مبرحاً ومبيناً يساعدها على اختراق السماوات السبع من فرط ما تذوق من الاستمتاع. كانت سمات الاحتشام ترتسم على وجهها فيما كنت أغمرها

بالجمل والكلمات والحروف والإشارات والتمويهات.
لكنني لم أنبس بأدنى كلمة عن موضوع نهديها إذ هنا تكمن نقطة الانشقاق، وتورم الخوف ينحصر في هذا المستوى فلا يزعجني ما كنت قد لاحظت من فارق غريب بين ضخامة النهد الأيسر وهزالة النهد الأيمن...

وإذا بها تقبل باقتراحاتي. كانت هي على وشك البكاء وأنا على وشك الإغماء عن الوعي من شدة الخوف. كنت أخشى أن تفشل هذه العملية على غرار سابقاتها خاصة وأنني أترقب بفارغ صبر هذه العودة إلى جسد نادية، كما كنت في نفس الوقت أخشى تخييب ظنها وقد كان الشبق قد تملكها وتآكل وجهها وهي في انتظار تلك الفرصة المشهودة. هكذا بدأنا. لمسات مؤلمة وجسمانا يقرعان على الجدران، جدران المكان الضيق تطفو في أجوائه رائحة نصف طازجة ونصف حامضة. كنت أريد اقتحامها بأعنف الطرق حتى تسترجع المسكينة وظيفة فرجها الأساسية والتي لم تستغلها قط كما يجب إلى حد الآن. ولكن ما أن شمرت عن زيها المنشى وعرت ذلك الركام المنتفخ المتورم الفوضاوي الأحرش الرخو في آن واحد، والمزغب الملوز، والمجعد الأمر، والأغمر الأحمر، حتى تملكني الذعر والغثيان. وسرعان ما فقدت البصر وسقط الليل في أحشائي، لكنها حاولت أن توجهني بيدها نحو ذلك الانتفاخ الرباني المبلل كما ينبغي، المرتعش من فرط شدة الرغبة المقذعة المحرقة، ففهمت آنذاك أن فرج نادية سوف

لا يهدأ جنونه إلا إذا ولجته ذهاباً وإياباً خروجاً ودخولاً.
كانت نادية تلاطفني وتشكرني على اهتمامي بها وتطمئن لحركاتي وما أقوم به من مساعٍ وجهد ترمي كلها إلى منحها رغوة اللذة وزبد المتعة وخلاصة الابتهال. لم تكن لتئن ولا لتتحرك. كانت وكأنها في انتظار منٍّ سماوي أو هجوم بشري يضربها في صميم الفرج فيصدع جسمها تصديعاً لمدة لا يمكن تقديرها. أما أنا فقد كنت على غرار ما اعتدت عليه، أستنجد بذاكرتي ومخيلتي للخروج من هذا المأزق. كنت أبحث عن صور ذهنية شهوانية تساعدني على اقتحام هذه الصعاب وتغذي رغبتي. ولكن: لا شيء. وكأن الزمن توقف من لف تلافيفه الحلزونية وكأن روحي كانت على حوافي الدناءة تتحسس طفاوة القمر والشمس وضواحيها. وكان فمي بمذاق النحاس والحديد يتضرص... كيف أسترد مرارة ولذة أول امرأة ضاجعتها وأنا مراهق؟ لا شيء إذن. لكنني ما ادخرت جهداً وما توقفت عن الحركة والتموج والالتواء. العرق يتصبب على جبيني. رائحة المرحاض الكريهة تمقط أحشائي. الذهاب والإياب (دخل خرج ربي يفرج... في أي ماخور سمعت هذه الجملة؟) لا يجديان نفعاً. أما نادية فكانت تستمر مستلقية على الجردل، ملثلثة فوق المرحاض، فيما كانت ثيابها مشمرة إلى حد ذقنها ولوزة فرجها الزغبة متبعثرة في الفضاء، تلتهمه التهاماً. كانت تنتظر عبور الأجواء وبلوغ الفردوس أو نار جهنم. ولا شيء من كل ذلك يحدث قط. وفجأة

أتوقف عن حركة الولوج، فإذا بها تغضب وتثور وتفور وتتململ يمنة ويسرة وعندها جلب نظري وعاء هناك كان قد وضع بالقرب من الجردل وقد تكدست فوقه أكياس من الورق المقوى كتب عليها باللون الأزرق شيء غريب. فأترك نادية على الفور مرتبكاً، فيما هي راحت تختنق غيظاً شاتمة كافرة بعد أن خيبت آمالها للمرة الألف. أما أنا فلم أعد أعير الأمور أي اهتمام ما عدا ذلك الإناء الملعون. كنت أريد معرفة إلى ما يصلح وما سبب وجوده هنا داخل الكابوس الذي كنت أنا فيه. لم أجرؤ على طرح السؤال عليها بينما كانت الممرضة المسكينة تصلح ثيابها والدموع تنهمر من مقلتيها على وجهها وهي صامتة واجمة. وأخيراً أخذت أحد الأكياس وقرأت:

اجعلوا القطنة في هذا
الظرف وضعوها هي الأخرى
في الإناء المخصص لهذه
الغاية. حذار. لا ترموا بها
في المرحاض خشية أن يسد.
إن ورق هذه الأكياس
قد استعملت في صناعته
عقاقير مضرة فلا تدخروا
فيها أي نوع من المأكولات.
شكراً. •

Introduisez vorte garniture

hygiénique dans cette pochette et déposez celle-ci dans le récipient installé à cet effet. Trés important: Ne pas jeter dans les W.C. qui risquent d'être obstrués. Le papier de cette pochette comporte une composition chimique néfaste à l'introduction des produits alimentaires. Merci!

For keeping sanitary towels etc. After use to be put in the pail destined for it. For the removal will be taken eare of. No to be thrown into lavatories. Thank you!

Zum ablegen von hygiene. Binden und anlichem. Nacht benutzung in den dafür bestimmien eimer zu deponieren für entfernung in wird sorge getragen. Nicht in die toilette zu werfen. Dank echen!

كان الأمر يتعلق بدعاية لمناديل الطمث التي ورثناها مع ما ورثناه من دور التعذيب عند نهاية حرب السبع سنوات. وهكذا ومرة أخرى رحت غارقاً في هوس الدم الذي ما انفك يطاردني. فلا راحة لي إذن ولا مفر منه

يرجى حتى في المرحاض حيث اعتدت المكوث فيه طيلة النهار قارئاً كاتباً مختلياً مع نفسي. وإذا بآفة الدم هذه لا تتركني، بل تنبىء بالأفظع، فأسقط مرة أخرى في الوسواس والهواجس الدموية؛ حتى في خلوتي أسقط وأنا أنكح نادية محاولاً ضخ مثقال ذرة من اللذة الجنسية في فرجها المترهل المسكين أسقط، وإذا بي عند قراءتي الدعاية هذه يأخذني الهذيان والغثيان فتموت روحي وينتفش قضيبي وتتجمد أطرافي وأتقيأ صفرائي ويكتظ عقلي بصور المذابح الجماعية والإبادات الفظيعة التي يرجع تاريخها إلى سنوات الجمر والجليد، سنوات الحرب السبع. وها هي الآمال تضمحل من جديد. ويرتج الكون تحت قدمي وأنا أقوم بمحاولة أخيرة للخروج من أخطبوط الدم وطقوسه وتضاريسه بعد أن أدركت أن الأمر كان يتعلق بهلواس عصبي توغل في صدري وتحصن في وعيي المرهق، إذ أنني لم أقدر على تحمل صلابة الواقع وجروحه المقيحة وعنفه المتكسر الذي حطم كل طاقات الحلم فيّ. لا شي. وهكذا أقذف هناك بعيداً عن الخيال ولا يمكنني حتى الطواف حول حواشيه وأطرافه. أما نادية فها هي تنصرف بعد صفق الباب بعنف. لقد فقدت ملاذي الأخير. لقد انصرف الأجانب الأشاوش الصناديد حقاً، لكنهم تركوا لنا تركة فظيعة: مثل قنابل البلاستيك والعبوات الناسفة والألغام المغروسة في التربة ودور التعذيب وأيضاً وخاصة تلك الأكياس الرهيبة حيث يوضع فيها دم طمث النساء

المسكينات، فيسيل على وتيرة منتظمة بين تعاريج منامي. كنت متيقناً أنهن سوف يمتن كلهن من جراء ذلك التصريف الدموي المهبلي الخبيث، فأضطر أنا إلى تكديسها (الأكياس) ووضعها جانباً، بعيداً عن أنظار الأطفال فلا يستدب فيهم الخوف الأدبي. انطباعات ملونة مرتجة. شمس مغروسة في السماء كمدية مغروزة في جرح أزرق يعج بحشرات قميئة تحاول إنقاذ نفسها والخروج من الكلم المتقيح محركة قوائمها الرهيفة الهزيلة على وتيرة مهتاجة. طقوس الدم وتضاريسه. وإذا بالذكريات تتدفق تدفقاً فيظهر لي شبح سامية وقد رش وجهها بدم الماعز الذي ذبحه الزنجي الهرم تمشياً مع تقاليد الدين والشريعة. ما لنا وكل هذه الدماء، الآن؟ وإذا بي أدخل من جديد في دوامة الأيام الملطخة بالجروح، فأتقيأ وأعرق وأشبع شراشف فراشي بتلك الرائحة الحامضة الحامزة. سوف لن أترك امرأة تقترب مني: «إنك تفوحين رائحة الدم والطمث... سبيني لحالي!».

أما أصعب ما في الأمر فقد كان العودة إلى القاعة. فشحوب وجهي سوف يلفت أنظار رفاقي: فهم لا يفوتهم شيء البتة مما يطرأ على أعضاء المجموعة خاصة وأنهم على استعداد دائم لإغاثة من هو في حاجة إلى المساعدة. دخلت. كان الأصيل قد تأصل في أرجاء الغرفة الرحبة وطلاها بسويداء ما وراء الواقع، فيما راح المهاجر المصاب بالنسيان يتلعثم محاولاً شرح الظروف التي أدت به

إلى فقدان لغته، رافضاً تلك الكارثة التي ألمت به، حانقاً، ولم تكن هذه الأصقاع قد حصلت على الاستقلال إلا منذ فترة قصيرة، بعد سبع سنوات من الحرب مهولة، سبع سنوات من التذبيح والإبادة والتهويل. فانبثق الصقع من جديد على الرغم مما خيم عليها من ظواهر العدم والفوضى والتركة الملعونة، من خلال واقعه الوميضي، مفتوحاً على البحر والفيافي والصحاري وقد آن الأوان لفك ألغاز سرابها الذي طالما استهزأ به الأجنبي تطيراً وتحاشياً لجاذبيته الرهيبة. كان المهاجر يتطاوس بين الأسرة متمتماً مجلجلاً شاهراً ذراعيه فيما راح المرضى يحدقون فيه وقد فهموا من خلال إشاراته وبقبقته وزقزقته ما يريد إفهامهم إياه، حتى ينفذ صوت المؤذن ويتفجر فجأة بعد أن توغلت الظلمة في القاعة فيستفيق من كان قد وسن وتدخل الرهبة قلوب الآخرين. كان المصاب بالحبسة قد انفلتت منه لغته مثله مثل الذبابة التي فقدت دفئها أو الجذرة التي فقدت تربتها العتيقة فراح يمشي بين الممرات شاحب الوجه متلمساً الأثاث والأشياء والوجوه وكأنه علاوة على لغته كان قد فقد بصره أيضاً. ثم يسدل الليل سدوله وينبجس بغزارة من خلال عتمة زجاج النوافذ فلا يساعد محبوس اللسان ولا يغسله مثلما يفعل المطر لقلقه النفسي وتثميمه العضوي. ثم بغتة يتوقف الجريان الذي كان يسيل في أعماقه فيبقى الرجل صامتاً مشدوهاً... بينما أدخل أنا القاعة خلسة دون أن ألفت انتباه أحد، فأستلقي على الفراش والغملة

الجهنمية تصدع رأسي وتلف فيه وتدور: (اجعلوا القطنة في هذا الظرف وضعوها هي الأخرى في الإناء المخصص لهذه الغاية. حذار. لا ترموا بها في المرحاض خشية أن يسد هذا. إن ورق هذه الأكياس قد استعملت في صناعته عقاقير جد مضرة، فلا تدخروا فيها أي نوع من المأكولات. شكراً). شكراً على ماذا؟ سوف لن أدخل في المراحيض المخصصة للنسوة... فهنالك الخطر، هنالك خطر كبير يهدد صحتي العقلية.

سيمر زمن طويل ولن تظهر نادية في قاعتنا. كما أنها سوف تكف عن نشر دعاياتها ضدي. بل بالعكس فسوف تكون في المستقبل حريصة على وقايتي من الأعضاء السريين وموظفي المستشفى المبالغين في حراستهم بغية الحفاظ على مناصبهم وصيانة قوت عائلاتهم المتكاثرة (يرفضون كل وقاية نسلية. حفظهم الله). كما أنها سوف تمارس ضغوطاً شديدة على أولئك الذين يتهمونني بالإلحاد والزندقة. لقد بلغت الآن مرحلة حساسة تجعلها قادرة على مشاركتي في كل إثم وذنب قد اقترفه. وهكذا سوف يمكنني قراءة نظريات ماركس دون أن أخشى عنجهية أولئك المشتبه بهم من قبل المتبخترين ليلاً نهاراً في أرجاء المستشفى، فأستغل الفرصة لمذهبة العمال المهاجرين والعائدين من فرنسا وحثهم على تكوين الطليعة الثورية للطبقة العاملة خاصة وأن البلاد كانت قد دخلت طور التصنيع بسرعة هائلة. إذن سوف تغير نادية تصرفاتها تجاهي وتترك حقدها

متخلصة من تلك العادة الكريهة التي تحملها على صفق الأبواب إذا ما غضبت. فرصة أغتنمها لقراءة رسالة الغفران بتأنٍ. فالذنب ليس ذنبي إذا ما ورثنا من الأجانب تلك الدعاية الفظيعة: «سيدتي اتركي تريباكس يدبر أمورك...».

كان القط يستنشق ظله ويتوارك داخل مساحة كأنها راحت تتقلص تحت وطأة الحر. كما كان يتجنب الاقتراب من الجدران المرقوشة بشرائح الكلس الأبيض وقد اجتاحتها آلاف الرقاقات والشقيقات التي لا يراها المرء من كثرة رهافتها رغم تكاثرها واندماجها داخل المادة نفسها. حتى إذا ما تصاعدت الشمس إلى أوجها لا يتمكن أحد من الوقوف في وسط اليفناء خشية أن يحترق جلده وسط روائح النعناع اليابس ومعجون الطماطم الجاف وقد بدأ يتعطن في أطباقه الخشبية، والقديد المفلفل المنشور على حبال الغسيل المتراكمة شاقولياً فتسدي صبغة غريبة على الفضاء المشرح من شدة القيظ. ولذا فلا يكف الضيون الماكر عن محاولاته تخلصاً من ظله الذي راح يلاحقه منذ أن بلغت الشمس سمتها. كانت هذه هي طبيعته، فلا يلفت انتباه أحد ولا حتى تعاطف الشيخ الهرم الذي كان قد جلس متربعاً في صدارة الفيناء، لا يبالي بما يحيط به ولا يظهر

في عينيه المصابتين بالرطوبة المائية شيء وما كانت الشمس لتبقى في مكانها مما حمل القط على الانزعاج فحار في أمره أمام هذه الظاهرة الغريبة قابعاً في مكانه متكاسلاً، متمططاً، متثائباً، ولم يفهم أحد في الدار شيئاً عما انتاب هذا القط المجنون وهو يحاول عض ذيله فيما كان الشيخ الجالس على فروة خروف قد راح يترقب وقت صلاة الظهر. فلا تغير الحرارة من عاداته شيئاً. فما أن تدرك ذروتها حتى تتصاعد الروائح في وشائج مختلفة. كان الجد يتمتم مفكراً: «إن العام الماضي كان عاماً رهيباً إذ سلط الله الجراد على قريتنا». لقد أكل كل الصوف الذي كان يجف في وسط الدار حتى ذعر الأطفال فأخذوا في البكاء. بينما انتابت سالمة نوبة من الضحك. لا دواء للجراد سوى البيض الذي كان يضعه المصريون القدماء في طريقهم كلما غزى البلاد. أما مليكة فقد خافت والتجأت إلى غرفتها حيث كانت تسمع الجراد يقضم كل شيء على وتيرة غريبة: غز.. غز.. غز. أما الجد فقد كان يتذكر آفات وكوارث أخرى كانت قد انقضت على القرية وقد كانت أضر من غزو الجراد فتكاً. كان الشيخ لا يكف عن التسبيح ولا يجلس إلا في الشمس قائلاً أن الجراد يمثل الآفة الثامنة فقط: وذلك تمشياً مع ما تركه الأسلاف وقد فطروا على جانب كبير من الحكمة والمعرفة والتجربة. (اثنتا عشرة آفة بالضبط يصعب إحصاؤها وعدّها واحدة واحدة) كان الشيخ لا ينفك يتذكر ذاك العام الذي أخذ الأطفال فيه يضعون

الغرابل على الجراد المتهاطل فيقبضون عليها في أفخاخ من اختراعهم. وكان ظل أسلاك الغرابيل المتداخلة المتشابكة ينعكس على وجوه الأولاد فكانت تبدو وكأنها طبعت بها نهائياً، مثلما يطبع الفراش المزخرفة حصيرته على وجه من نام عليها أثناء القيلولة. كانت سالمة تهزأ بعنتريات القط وبهلوانياته وعبثاً كانت تحاول استقطاب اهتمامه فتأخذه في حضنها. وبين الظل المدرار والشمس التي تغلي في السماء غلياناً كانت هناك مناطق متوسطة يعرف الضيون الماكر استيطانها مؤقتاً ريثما تغيب الشمس وراء إحدى شجرات التين في الحديقة، صوب الغرب، أو ريثما تنتهي الخادمة العجوز من تبريد الغرف الداخلية بصفق عشرات الأسطل من الماء البارد الذي أخرجته من البئر المشؤوم (حيث اغتصـ.. لكن لا طائل من نبش الذكريات الرهيبة وطحنها.. بل كانت تغني..) المحاط بطحلب ناعم أخضر بالقرب من حاشيته وبالعشب اليانع بالقرب من الأشجار المثمرة. كانت الخادمة متصعصعة متعصبة لكل ما يمس شؤون المنزل وترتيبه وتنظيفه ولكل ما يمس الدين من قريب أو من بعيد. لا ترحم ولا تشفق ولا تغير من رأيها في أي شيء قط. وكأن تزمتها لا يكفيها فلا تتورع من منع الأطفال من وطء المنزل بعد غسله بمياه باردة متدفقة تجف في أقل من لمحة البصر لحدة الحر وشدة القيظ. كانت متهلوسة إلى حد يثير الاستغراب فلا يجرؤ أحد على تحديها أو عصيانها بما فيهم القطط المذللة التي تقضي

سحابة نهارها في تسلق الأشجار والمكوث فيها متربصة متأهبة على الانقضاض بغتة على العصافير المسكينة. أما الكهل الضرير فما كان يبالي بهذه التفاهات. كان يحب أكل الفول والمكوث تحت الشمس الساعات الطوال لا يتحرك إلا إذا حان وقت الوضوء فيختفي إذاك وراء التوتة الكبيرة ويتوضأ بعيداً عن أنظار النسوة وقد تعودن ممازحته على إفراطه في الاحتشام وعلاقاته المتقلبة مع زوجته، تلك الجدة الوعرة المزاج والتي كانت قد توفيت فتركت صورة تخلد ساعة احتضارها كي تدخل الرعب فينا وتقدم لنا مثلاً عالياً في الشجاعة والنبل كان لا بد لنا نحن الأطفال من أن نقتاد به ولما نعرف بعد من هو أبونا الحقيقي. هل هو سي عمر؟ هل هو سليمان ـ الحيلة الملقب بجحا؟

أما القط فقد كان يستمر في تحركه يتلوى وينط كالمسعور فيئن ويموء ويلحس أرضية الفيناء المحرقة فيستدير ويلف ويتشامخ وكأنه أصيب بمس من الجنون. فتضحك سالمة لهرجه هذا ومرجه: «يا لك من قط أبله. تعال لعندي، هنا في الظل..» كانت سالمة وهي جالسة في إحدى زوايا البهو تعبق الجو بحسية جسدها الرائع المتدفقة في الفضاء وقد كانت الشمس قد أشعلت في عينيها حريقاً مهولاً مما زاد في لمعانها وحورها، خاصة وإن شفتيها اللحيمتين كان قد أصابهما ارتخاء لشدة الحر المفرط فأضفتا على وجهها مزيداً من الشبق والإثارة. وقد اكتظ سراولها القطيفي الفضفاض بأنوثتها الرائعة كما

اكتظت صدريتها بثدييها المتورمين الثلجيين فيما راحت عانتها تعج وتتموج في الجو الذي كانت تعبره بكل نزاهة وعفوية فتشبعه عبقاً برائحتها العنبرية. كانت تقهقه وتداعب القط وهو يدور في مدار الشمس ويدور: «تعال هنا حيث الظل. وإلا احترقت قوائمك يا أبله.. هيا تعال..» كما كانت في نفس الوقت تلف وتدور حول الجد الضرير وهو جاثم لا يتحرك فيبقى جالساً متربعاً مكانه على فروة الخروف فلا ينهض إلا لقضاء صلواته الست. لقد كان الشيخ قطبها الأساسي فلا تكف عن الاعتناء به ومداعبته في علاقاته الغرامية الصاخبة مع زوجته القنطريرة السيئة المزاج والتي كانت تحمل على رأسها ليلاً نهاراً تصفيفة صلبة كانت تعبر عن شراستها وكبريائها، وكانت سالمة تتذكر أيضاً عام الجراد وكيف كان قبيل أن يجف قد أكل الصوف والكسكسي ومعجون الطماطم واللحم المقدد في المخزن، وكان الجراد قد حط فأكلها كلها. في أي عام حدث ذلك يا ترى؟ لم تعد تميز بين الأعوام جيداً ولا حتى بين الأيام. لا بد أن غزوة الجراد المشهودة كانت قد حدثت في أواخر الصيف وأوائل الخريف. أضغاث أحلام وتعريضات كوابيس. كل الفصول تتشابه وتختلط في ذهنها. لكن سنة الجراد كانت بمثابة العينة.. لن تنساها. قال الكهل الأعمى: «آفة الجراد هي القرح الثامن حسب طقوس الأسلاف..» لن تنسى تلك السنة التي هاج الأطفال فيها فراحوا يتراكضون وراء الحشرات دون ما جدوى. أما سي

عمر فما كان ليضطرب ولا يتحرك له ساكن. كانت ضيعاته وأراضيه الخصبة مضمونة ومؤمنة ضد الجراد والجفاف والبرد والحريق إلخ.. عندما كان يريد الكهل النهوض كان يستنجد بها: «الله، يا سالمة، ساعديني على الوقوف.. لقد حان وقت صلاة العصر..» فما أن تنتهي من مساعدة الجد الضرير حتى يأخذ القط في ملاحقتها والجري وراءها ومناوشتها وعض تلابيب تنورتها. فكانت هي تمضي لا تأبه لاستفزازات القط اللعوب بل كانت تأخذ بيد الشيخ وتقوده نحو البركة كي يتوضأ مستتراً وراء أوراق التوتة العتيقة. فيشعر عندئذ بوخزة الندم وتكبيت الضمير. كان عليه أن يتدخل في القضية. عشرون سنة مضت. ثم يعود إلى جلوسه تحت أشعة الشمس فتلتهب جفونه المقروحة وتلين شعر لحيته. كان على علم بالمصيبة. لم يغفر أبداً لابنه هذه الجريمة النكراء. لكنه أصبح الآن عاجزاً وضريراً.. اغتنم ابنه الفرصة واستولى على أملاكه. لم يحتج الكهل. تركه وشأنه وقد أنهكته الشيخوخة وشعر أن جسمه قد بدأ بالتفسخ والتفكك.

كانت الحياة تعود إلى قلب سالمة كلما ترك سي عمر القرية وسافر إلى المدينة لقضاء شؤونه التجارية فتخلق حركة وضجة من حواليها ولا تتوقف عن الضحك واللعب واستثارة الأطفال ومداعبة الكهل واستفزاز القط فلا تكل ولا تمل. أما الجد فقد كان يترقب تساقط الغسق وأذان المغرب ليجن جنونه ويبتهل ويصلي الركعات الإضافية

ويدخل في متاهات التصوف مدة طويلة من الزمن، فيما كانت القطط تقبع في أعلى الأشجار تنصب الكمائن الغادرة للعصافير المبهورة، وفيما كانت الخادمة العجوز تعد أكلة العشاء برفقة خالتي مليكة التي كانت تترك المطبخ من حين إلى آخر وتصعد إلى غرفتها حيث كانت تستسلم إلى البكاء من فرط ما كانت تعاني من مقط وكآبة وإذلال وقهر، ثم تعود لاستئناف شغلها دون أن يفيق أحد لصعودها ونزولها.
كانت سالمة في تلك الساعة تحرس الأطفال وتسليهم في وسط الحديقة حتى حلول الليل فتلجأ معهم إلى داخل المنزل حيث يصل إلى مسامع الجميع صئي الكناريات وتغريدها فلا يجرؤ أحد من الأطفال على الخروج مرة ثانية للاستمتاع بغناء العصافير مخافة السقوط في الحوض العميق حيث يسبح الحوت بشتى أشكاله وألوانه على وتيرة سرمدية مستديرة في بهجة وابتهال. كانت تصمت سالمة في بعض الأيام وتفقد حيويتها فتقترب خلسة من حاشية البئر وتأخذ في الدوران جائمة الوجه مثلجة الأطراف وكأنها تبحث عن آثار الجريمة التي راحت هي ضحيتها هنا على العشب الذي حرقته الشمس والذي ما لبث أن نما من جديد وهذا أكثر من عشرين مرة على التوالي. فتراودها آنذاك فكرة الانتحار من جديد. تريد الارتماء في الجب الذي إذا ما ارتمت فيه يتعطن في جوفه جسمها ويطهر من آثار الدعارة والفسق. ثم يأتي رجال المطافىء بعد أيام ويخرجون جثتها المزروقة المفلعة المقشعرة. وإذا بمليكة تبعث ببرقية لابن

أختها، ذاك المعتوه الذي سافر إلى العاصمة ليقيم فيها ويدرس الفلسفة: «أمك مريضة. نقطة. الرجاء العودة حالاً. نقطة. الإمضاء: مليكة. نقطة». حتى إذا ما استلم البرقية فلن يستغرب الخبر وقد كان على علم بكل ما جرى بعد أن قصت عليه خالته كل القضية كما كان يعلم أن مليكة ما كانت لتقبل بهذا الأمر المقضي، بعد أن أصبحت أختها المسكينة عشيقة زوجها ومحظيته.

كان المرض قد قضى على سالمة بضع سنوات قبل غزو الجراد للقرية وكان قد أكل حتى الصوف الذي كان يجف في الفناء. لكنها رفضت البقاء في الفراش فأخذ الكهل يراقب حركاتها ويتجسس عليها. فيخاتلها في بعض المرات ويدخل حجرتها بغتة متحسساً وجهها كما يفعل الأعمى عادة. وما كانت تضحك سالمة مثلما كانت تفعل في فترات الهدنة، بعد انصراف سي عمر إلى المدينة الكبرى. كانت سالمة تترك الشيخ يتلمس ملامحها لشدة شغفها به فلا تنبس بكلمة ولا تقوم بحركة. أما جبينه فقد كان مثقلاً بالهموم وقد غرزت فيه تجاعيدها المتراكمة عليه فيتشمم جسدها ثم يخرج إلى صحن الدار ويأخذ في تداعي الأموات والأسلاف اعتقاداً منه أن أرواحهم في هذا المنزل هائمة وقد أدخل سي عمر عليه تغييرات عصرية شتى ورممه ترميماً حديثاً بحيث أن الجد ما عاد يعرف شكله وحجمه وهندسته وما فيه من غرف وأسطحة. فقرر الشيخ استدعاء المعزمين بشكل دوري حتى يفرج عن حالة سالمة التي

أصبحت في تقهقر مستمر يوماً بعد يوم، فتسترجع عقلها الذي راح يتيه في أصقاع ما وراء الدنيا. وهكذا تضبب المنزل بروائح البخور.المدوخة ودخان الكوانين الملتهبة.

كانت سالمة قد حاولت في البداية إخفاء حالتها الصحية ساترة خطورتها مكررة أن كل ما في الأمر لا يتجاوز صداعاً في الرأس لا يلبث أن يزول. ولذا فقد كانت تعصب رأسها لاجئة إلى أخمرة مزخرفة جميلة. كان أفراد العائلة يثقون في أقوالها ما عدا الشيخ الضرير فلم يرتح إليها. ثم أصابتها تلك الشعلة التي بدأت تلتهم عنقها وراحت تتضخم بالتدريج يوماً بعد يوم وتتصلب على مر الأيام، مثلها مثل الملزمة الضاغطة تخنقها فتمنعها من التنفس بصفة طبيعية. وما أن أصيبت بتضخم الدرقة حتى صرحت أنها قبيحة فلازمت فراشها فلا تغادر غرفتها ولا تقول للقط الذي كان يستنشق ظله ويتشممه: «تعال يا غبي. هيا الجأ إلى حضني..» كما أنها كفت عن إطعام السلحفاة التي تعودت التطاوس بحرية مطلقة عبر المنزل فتدسدس بخرشومها تحت الأسرة، منقبة عن فتات من الخبز تأكله أو ورقة من الخس تنحتها وإذا دخلت إلى الغرفة الفوقية الملتهبة تحت سقفها الممدود صفائح متموجة راحت تزحف بين المؤن المخزونة من الكسكسي الجاف ومربى الطماطم واللحم المقدد.. وحدث أن تمردت سالمة في هذه الفترة من الزمن على عشيقها الشرس فازدادت منه تقززاً ونفوراً ولكن ما أن ظهرت السلعة الذرقية على جيدها حتى تمنع

سي عمر عن مضايقتها وملاحقتها فغادر البلاد وسافر إلى أمصار نائية لأعمال تجارية على ما ادعى قاهرة. (القاهرة 12/ 3/ 1950. عمر الجزائري).

وما كان من الشمس إلا أن راحت تزيد الأمور والنزوات احتداداً وضراوة وقد حل فصل الخريف وحلت معه جحافل من الذباب التي أخذت تجلف عروق الصغار وتوتر أعصاب الكبار. ولم تعد الخادمات يعرفن كيف يتصرفن وغرقت الدار في تيار من الفوضى الجامحة فلا يستطيع أحد أن ينام ولا أن يتحمل أهل المنزل ذاك الجو من الصمت الرهيب المهيمن على الشخوص والطقوس. فاغتنمت الهررة الماكرة الفرصة وراحت تتصيد العصافير بشكل جنوني، تلتقطها في الحديقة فتبتلعها وتعود والشوارب ملطخة بالدم البريء وتلحسها نكاية بالحاضرين وبعنجهية فاخرة أمام الملأ أجمعين لا تجزع ولا تخاف من العقاب. وكان أن تفاقم مرض سالمة مع ازدياد التذبذب والتشوش وما عتم أن كسا القلق والاسوداد سحنتها فراحت الأمور تتهامل ومظهرها تتهاتر ولم تعد تعير الدرر والأنغار الضاجة في أقفاصها اهتماماً والتي كانت قد اعتادت أمي على ترويضها وإطعامها وتنظيف ديارها المنحوتة المزخرفة. أمي التي كانت في الأمس تستفيق باكراً لتعلمها الغناء والتغريد. أمي التي عودتنا مثل هذه الشطحات اللطيفة. أمي التي كنت وأنا صغير أتجسس عليها فأراها، في تلاطفها الطيور الملونة المدللة، تستيقظها بعطفها ولطفها

المعهود وبمهارتها المأثورة على ما كانت عليه الطيور من عبوس في مظهرها وانتفاش في ريشها - معبرة عن غضبتها - وحدة في مناقيرها وهي على استعداد لتنقير أيدي سالمة، أمي التي كانت تعمل على التهدئة من روعها فإذا بالطيور تتنافس تغريداً وتبلبلاً فتملأ بزقزقتها الأرجاء وتشنف بسحرها الآذان فيرقص المنزل الهادىء الغارق في سباته العميق طرباً وتهليلاً فيما كان أزيز البئر بجرارته يخرق الفجر الحليبي ولم يمر على حلول الصيف سوى أيام قلائل وقد تلفلف في ورق متعربس مزخرف بألوانه البنفسجية الرائعة. إنه الجد الأعمى وهو جدي أنا الذي كان يسبب هذا الأزيز وكان قد نهض للوضوء قبل الضوء وراح يستخرج الماء من البئر العتيق، البئر الذي كانت هي قد.. كانت سالمة أمي تروض الدرر والأنغار وتعلمها الموسيقى في سمفونية الصباح فتعاتبها إذا ما راحت تغالي في بثها أمواجاً من الضجيج في الأثير في ساعة الاستيقاظ المبكر، توبخها بصوتها الخافت فيه من الرخامة بحيث أن القطط المتناومة في زوايا الدار لا تسمعها والتي تنام ملء جفنيها بعد قضائها النهار كله في مطاردة العصافير المتنطنطة والفتك بها (يا للسفاحة!) هنا في الحديقة وهناك في مخزن بائع الزيت القريب، في المخزن الملتصق بجدار البستان. هذا المخزن هو هيكل الفئران السمينة يعج بالفئران المشعرة الرمادية المتثاقلة مع بطنها المتورمة الملساء، بما فيها الإناث الحبلى التي كانت تكنس الأرض بأظافيرها

بضروعها الرهيفة الوردية المقززة. فكثيراً ما كنا نشاهد المعارك الضارية الطاحنة التي كانت تنشب بين القطط والفئران، قطط تنازل معشر الفئران والجرذان الضخمة التي كانت تتغذى من الزيت الفاخر من زيت الزيتون المسمن. فكنا نقف على سطحية الدار، نتكئ على الدرابزين متفرجين، وقد سوس الزمن والندى خشبه؛ كنا نقف إذن متفرجين متلهفين، فتخاف النسوة علينا، يخشين انهيار الحباك القديم تحت أقدامنا، نتفرج ونحن على وشك الإغماء علينا وفقدان وعينا لمشاهدتنا هذا الاقتتال الدموي الدامي المميت بين القطط والجرذان السمينة ذات الأعين الضيقة اللعينة وسماتها الخبيثة. كنا نتحيز لقططنا، نشجعها بصوتنا، برمينا الجرذان بالحجارة بدون ما جدوى فقد كانت القواضم تتغلب على آل الفرو تفترسها تحت أعيننا فنبقى هكذا محدقين بأبصار باهتة مشدوهة وقد اغرورقت بدموع الغيظ وعبرات الأسى فإذا بأطرافنا، من حيث لا ندري، ترتجف وقلوبنا ترهف فيسيطر الغثيان على صدورنا أمام هذه المجزرة الشنعاء. حتى إذا ما انقلبت المعركة فصادف أن تغلب أحد الهررة على يربوع ضخم يهزم، رحنا نملأ الجو تصفيقاً وهتافاً فتأتي النسوة ويأمرن الضيون المنتصر بالعودة إلى الحديقة فينصاع إلى الأوامر وينط متبختراً مظفراً ناصراً.

جربنا كل الأدوية وأتينا بكل الأطباء ولم نأل جهداً لمعالجة سالمة فباءت محاولاتنا بالفشل. فعندها غضب

الشيخ ولم يتمالك من توجيه الشتائم إلى الإله الأعظم بعدما بدت توسلاته وصلواته وتسبيحاته عاجزة لا فاعلية لها البتة. إذاك دخل جحا بدوره في المعمعمة فما كان منه إلّا أن بعث بعشرات الحروز فذهبت كلها أدراج الرياح. بل راح الشيخ الضرير يزور العرافين والمشعوذين مستشيراً وبعث برسول من قبله إلى تونس ينوب عنه بحثاً عن طبيب قيل إنه أمهر ما وجد على وجه الأرض أو عراف من أقدر العرافين أو دجال من أحذق الدجالين. فتكون النتيجة هي هي نفسها وكما كانت متوقعة تأتي النتيجة سلبية. واستمرت السلعة في التضخم والتصلب مما حدا بسالمة إلى العدول عن كل نشاط وعن الفوه بكلام. وكان الشيخ يدفن خلسة صبيحة كل نهار درة أو تونجياً أو كنارياً في قعر البستان بعد عثوره عليها في قفصها الرائع ميتة. أمن الشجن تموت الطيور أم من الجوع أو العطش؟ وأخيراً يذهب الكهل الأعمى تحت وطأة اليأس إلى التقرير باستشارة طبيب مشهور ذاع صيته في البقعة. وكان أن شفت سالمة بسرعة، ولكن سرعان ما انتكست وعاودها المرض من جديد. فقبعت أمي مكانها ولم تعد تذهب إلى الحمام وانغلقت على نفسها أيما انغلاق، فما برحت سالمة تساير نفسها في تحاور مبهم عنيف اعتقاداً منها بأنها مع أرواح الأموات تتحاور وشبح أخيها تخاطب ذاك الذي كان قد استشهد لسنوات خلت، هكذا تعتقد سالمة...

وحدث أن عيل صبر الشيخ فعمد إلى ذبح ديك أسود

قرباناً لله. فأذعنت العائلة ولم تعارض. ولم تعارض سالمة هي التي ما كانت لتدري إلى أي حالة تردت حالتها ولا تدري ما تقول. فجيء بسحّارة من أمهر الساحرات ولم تقبل على الذبح فوراً بل اشترطت ظهور البدر كاملاً وقد كان البدر هلالاً هزيلاً تطوقه سحابتان كثيفتان. فما كان من العملية أن أجلت ريثما يكبر الهلال وإلى بدر مستدير كامل يتحول. حتى إذا ما تحقق الأمر تردت الأحوال الجوية مما زاد في الطين بلة. وما كان من السحارة أن استلمت مهراساً وملأته ماءً وراحت تنهال على الماء بضربات من المدق تبديداً للسحاب. وعبثاً حاولت. لا بل تمادى الطقس في رداءته فيما بدأ الديك يفقد صبره وقد أغلق عليه في قفص الدرر التي ما عتمت أن ماتت كلها حتى آخر درة منها بعد ما مرضت سالمة... ماتت الدرر حزناً وكآبة. حشر الديك في القفص فظهر بمظهر سخيف مزرٍ وهو في انتظار أوان الذبح فيما بقيت القطط قابعة تحت القفص الصغير مترقبة أول فرصة سانحة للانقضاض عليه والفتك به. كان الديك غاضباً متشنجاً يتبختر يتطاوس يسردك، وقد كان القفص أضيق من أن يتسع لجسمه الفخم وريشه الأسود اللماع وقنزعته الحمراء وعينيه المتغطرستين.

وغضب الجد أيضاً لمجيء السحارة الشمطاء فاختلى في قعر الحديقة حيث راح يتشمس طوال النهار وكأن جسده الهزيل يضخ الشمس ضخاً فلا يشبع منها، فيبدو مصراداً أبداً حاملاً على وجهه آثار البرد المختزن في جسمه

وبشرة وجهه الضامرة. المسكين الذي قضى كل هذه المدة في البستان فألفه وذهب يواصل فلا يفوت فرصة إلا وأظهر استياءه وأتى التعاطف مع السحّارة الشكسة حتى أن انتهى به الأمر إلى الإشفاق على الديك المسكين الذي قضى كل هذه المدة في البستان فألفه وذهب يواصل صلواته وتضرعاته وتسبيحاته مصرحاً بأنه لا يؤمن بكل هذه الخرافات التي تقول بها السحارة حدا بالشك أن تسرب إلى ذهنها فبدأت تتذبذب أمام يقينه ووقاره ورباطة جأشه. وإذا بالعجوز تقرر فجأة أن نجاح العملية السحرية إنما هو منوط برضى هذا الرجل الضرير، فراحت تلازمه فلا تكف عن مجاملته وإسداء المديح والثناء والتملق عليه وتقبيل كتفه الأيسر إجلالاً وتبجيلاً مثنية على الكهولة وحكمة الشيخوخة. وكان هو يضحك خلسة من كل هذه التصرفات فيعاتبها بصوت عالٍ: «تروحي للجهنم تكلك أعضامك... يا ستوتة. إن الله يكره الكافرين...». وكان يلح على إطلاق سراح الديك وإقامة الكفارة وإطعام كل فقراء القرية مائة يوم بلا انقطاع. وعبثاً حاول فالتقاليد تفرض على الناس أن يذبح قرباناً لله وتباركاً به وذلك كلما ألمت كارثة أو آفة أو مرض عضال أو إفلاس بأحد. وهمدت إذاك عنجهية الديك وبدأت قنزعته تفقد لونها الفاقع على مر الأيام وتفقد شكلها المتعجرف الصارخ. وراح الأعمى يلغو ويهدر غارقاً في البربرة وكأنه يبغي كسر الحصار وطوق اللعنة والمصيبة تلك التي حلت بهذا المنزل الذي شيده

أسلافه وأسلاف أسلافه، والذي طفح به الحداد والصمت والوجوم. وتقلص الزمن في حجرة المريضة متجمداً بينما ظل الديك يتململ ويئن وقد دخل مرحلة الاحتضار. والمنزل يشكو من الخمود والخدر تحت سطوة الخوارق والمؤذيات أما خالتي مليكة فكانت تتبعثر في جملها وتتشابك في عباراتها وتتلعثم في نطقها بشكل يبعث على الشفقة وكأنها بتصرفها هذا إنما كانت تود مواجهة ثبوت الأشياء ومشقة الشيخ الضرير خاصة وقد حدست أن المؤامرة المحاكة حول سالمة والديك والضرير ليس فيها ما ينبىء بالخير. أما السحارة المحترفة فقد راحت تذوب الرصاص وتضرب الخفيف وتقرأ المستقبل في هيكل المعدن المذوب بعد أن كانت قد غطسته في مهراس ملآن ماءً بارداً. كان الطقس حاراً وكان المطر يهطل حيناً ويسقط البرد حيناً آخر فيحول الحديقة إلى مكان طوفاني فيما نال الانتظار من الجميع بما فيها النباتات والحشرات وراحت السلاحف تئن تحت وطأة الصمت الواجم والمطر الهاطل فتتزلق على أرضية الحديقة المغطاة وحلاً والمنحدرة نحو الأراضي الخصبة الشاسعة التي هي ملك سي عمر الذي ما انفك يصول ويجول ويقطع الأمصار ويجوب فيها فيبعث من حين إلى آخر ببطاقة بريدية من هنا ومن هناك ومن كل البلدان مكتفياً ببعض العبارات الساذجة والمتفائلة أبداً وكأنه ما هرب وما غادر القرية على جناح السرعة متذرعاً بأعماله التجارية ولا يستفقد سالمة ولا يسأل عن

أحوالها ولا ما يحزنون. (بغداد 12/ 3/ 1946. عمر الجزائري).

وكان الجد الهرم يقضي أوقاته يحمي الديك من شراسة القطط التي جنت جنونها وعيل صبرها فأبرزت مخالبها في محاولات يائسة للاستحواذ على الديك المسكين فراحت تنط وتقفز قفزات هائلة. وما أن يرى الدجاجي شبح قط يتسلل تحت القفص حتى يرتجف خوفاً وهلعاً فيفقد ريشه وينهق صائحاً صيحات الذعر فينهض لها سكان القرية جميعاً ويترجرج القفص من جراء ذلك ترجرجاً. مما يدفع بالشيخ إلى الانزعاج لما يحل بالديك من مآسٍ وما ينتاب النسوة من هلع ويعم المنزل من تراكم التطيرات: «هذه مهزلة، لا يمكن الاستمرار على هذه الحالة.. لننته بشكل أو بآخر..» على أنه كلما وافق على ذبح الديك تأخذ السحارة الماكرة في تمطيط شفتيها فتؤثر المماطلة قائلة أن العجلة من الشيطان وأن خير ما في الأمر انتظار قدوم الخريف وقد صار على الأبواب. ولا هدف لها في الواقع إلا إحراج العائلة وخلق الأسباب المؤاتية لنجاح عمليتها السحرية. فكانت تجلس هكذا في ضوء النهار شاحبة الوجه مشدوهة المسامي وقد تآكل الضوء ذقنها المترهل والظل خدها الداكن فتقضي آناء النهار والليل وكأنها في سكونها العجيب تنتظر تدفق الأحداث عليها. وتمر بعض الأيام فيغتاظ الشيخ غضباً وينتصب مهدداً فيعبر

عن استعداده لذبح الديك بيده إذا ما طال الأمر متذرعاً بإصابة الحيوان بمرض عضال سوف يقضي لا محالة عليه، فيثرثر ولا يسكت وينهال على الساحرة توبيخاً بصوته الضعيف المرتعش ووقعه المرتعد: «متى تخلصيننا من قربانك الملعون هذا؟ اللهم احفظنا من سلالة المشعوذين والمدعين الكافرين». فيفقد الرجل صوابه فما عاد يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يتوضأ ولا يصلي ولا يسبح. وإذا به فجأة ينطلق نحو غرفة سالمة وقد كانت صحتها قد تدهورت وألوانها فترت وانهارت قواها فيقبع إلى جانب فراشها متفرساً فيها شاخصاً في وجهها كالمذهول المشدوه فيما راح القيظ الخارجي يفور فوراناً فيجف الضرع وييبس الزرع ويحرق العباد والجماد وذلك على الرغم من تساقط وابل من المطر بين الفينة والفينة مما يملأ الجو من رائحة التمر المتعفن من فرط ما نضج تحت تأثير الرياح الرملية العنيفة الشهباء وكانت قد هبت على وتيرة متواترة صافعة أوجه المارة فتتنابهم نوبات من السعال لشدة القحط والجفاف وما يصفعهم من رياح شرقية عاتية حاملة معها شيئاً من الطراوة والبرودة. «إنه صيف نهاية الدنيا». وكان الشيخ يردد هذه الجملة بصوت واهن وكأنه أصيب هو أيضاً بالسبخ، بعد أن أرضخته السحارة إلى شراستها وركاكتها وطغيانها وقد صممت على الانتظار وربح الوقت ريثما يؤون الأوان. أما المريضة فبدأت تشك من صفاء أختها وتهدد سي عمر

بالقتل. وأمام تدهور الأحوال هذه فما كانت السحارة تحرك ساكناً بل ذهبت تطأطىء رأسها وترسم ابتسامة المحتالة المختالة على محياها وفمها الأدرد وكأنها تود الحفاظ على اتزانها أمام هذه الفتنة القائمة والهيجان الصبياني، فيما كان سكان القرية في ذهاب وإياب إلى المنزل متواصلين مترددين عليها متوسلين إليها طالبين منها راجين أن تغادر منزل سي عمر فتأتي وهي الغسالة الوحيدة لغسل موتاهم في القرية فنظراً للحر الشديد كانت الجثث تؤنتن بسرعة فائقة مما جعل الموتى في حالة يرثى لها.

وفي صبيحة أحد الأيام وبدون سابق إنذار إذا بالسحارة تنطلق مزغردة صائبة صائحة، وراحت الخدامات والنساء يقلدنها مولولات صائحات: «الحمد لله.. الحمد لله..» كانت الفرحة تنضح من وجهها الكتوم المنتفخ المبلل عرقاً كثيفاً دبقاً. فبهت الشيخ وتسمر مكانه لا يصدق أذنه. وإذا به يكف عن التبرك والإيعاظ إذ ما كان يتوقف عن التفوه بـ «الله أكبر. الحمد لله». وسرعان ما هاجت الدار وماجت وأطلقت العجوز العنان لأوامرها. فجيء بالمريضة، فألبست ثوباً كتاناً، فدهن شعرها بزيت الزيتون، فطليت أطرافها بشحم القديد، فأسندت إلى الحائط بوسادتين، فأوقظت من غفوتها فصيح في أذنيها أن الله هو الأكبر، فأوقدت الكوانين، فقرقع الجاوي والملح والشب والوشق والداد واللبان إلخ.. فكحلت عيناها

بالكحل، فخضبت على طريقة عرائس الطوارق فأجبرت على ترك خبلها. . فخضت بلطافة، فعوتبت بصراحة، فأخرجت من سباتها، فأجبرت على ترك خبلها. . وإذا بالسحارة تأخذ بزمام الأمور فتخرج الديك الأسود وقد ارتعد خوفاً وقد انتفش ريشه انتفاشاً وإذا بها تدكه بين أفخاذها وكادت عند رؤيته أن يغمى عليها فها هو يتخبط ويقوقيء ويحاول الفرار ويتهدهد على قوائمه المشدودة بحبل صلب وعبثاً حاول فقد سيطرت السحارة على الموقف واكتظ وجهها الغث بابتسامة جاءت بها من وراء جدار اللامعقول وذهب جسدها يتلوى ويتعرج ويهتز تحت وطأة التخمر العصبي والهيجان العضدي وكأني بالدار تنتفض وتدور على محورها عشرات المرات وكأنها هي انزعجت من هذا الخمول الذي ألم بها منذ عدة أسابيع ومن ذاك الصمت الذي خيم عليها لأيام خلت، أي منذ انتكاس سالمة ووصول العجوز الداهية تلك التي تحترف الشعوذة وتعاشر الشياطين وتغسل الجثث وتخطب الفتيات وتسمسر على حساب المومسات، خاصة إذا ما تكسد السوق، سوق السحر ويسايرها سوء الحظ حيثما ذهبت، عبر البلاد الشاسعة الأطراف، متنقلة من قرية إلى أخرى وقد فقدت لمدة معينة كل خوارقها وطاقاتها الشيطانية. . . كانت سالمة تكاد تموت هلعاً وقد أخذت منها الرعشة وتأصلت في أطرافها؛ فبدت شاحبة الوجه هائمة العينين، لا تفهم ما

طرأ عليها بعد أن قذف بها خارج سباتها المريح وغفوتها الناعمة اللذيذة فأجلست قسراً على رخام الفيناء وفسخت فخذاها وأحيطت بالكوانين الوهاجة بدخان البخور وتوقطت بالخادمات الزنجيات وأعضاء العائلة أجمعين بما فيهم أختها مليكة وحموها الشرير. هيهات أن تكون قد خرجت من متاهات التعتعة والاختبال فراحت تغطي وجهها بيديها الثلجيتين. أما عن الديك الأسود الذي زاد في هيجانه فراح يكشط الأرض وينقر لحم السحارة وهي لا تبالي بل تقهقه فرحاً وغبطة، ويغرز منقاره في الفضاء الضيق حيث حشر بين فخذي سالمة، فيما عكف الجد على تدوير مقلتيه على وتيرة سريعة وسط الفضاء المشمس والملتهب وقد صار الخريف على الأبواب وقد دخل التمر والرمان في طور النضوج وقد اكتظت الحديقة بأشجارها ونخيلها بعد أن تركتها القطط المدللة وتحلقت حول سالمة والديك بين ساقيها يتخبط في ريشه والقطط على استعداد للانقضاض على أول قطرة دم تسيل من الضحية، وعندها تطاردها الخدامات ويجن جنونها وتعود إليها غريزتها القديمة وهي من فصيلة السنوريات المفترسة فتهد الأرض هداً وتتراكض ركضاً وتموء مواء على وتيرة واحدة إلى أن يقتحمها الغضب البنفسجي فتقرر الانتحار وتذهب إلى مخزن بائع الزيتون حيث تترك الجرذان الضخمة تلتهمها التهاماً.

كان القوم كلهم متخوفين من تدفق الدماء التي سوف

تلطخ الجدار - أوَلَا تكفي الأكباش التي تذبح بمناسبة عيد الأضحى! - فيتحتم بالتالي طليها من جديد بطبقات الكلس الأبيض المتراكمة على بعضها والغليظة المبهرة، فتجلف أعين الحاضرين مما تزيد الضرير عمى على عمى وهو لا ينسى قط أنه أنجب ابناً خبيثاً وفاجراً ومتلاهفاً على أملاكه وأمواله التي أصبحت كلها بين يديه، فقد سلطته بفقدان عينيه وهو يتمتم ويتحاور مع نفسه قائلاً إن سفك دماء المقاتلين الذين سقطوا في الجبال والسهول وسقوها بها يكفي، أجل فيه ما فيه من الكفاية... فلماذا هذا الديك ولماذا ذبحه ولماذا إراقة الدماء التي لا طائل تحتها؟...
يكفي دم الثوار الذي هدر في المرتفعات والهضاب العليا هناك في المراعي والسهول عامة والخصبة منها خاصة تلك التي كان قد استولى عليها المعمرون الجشعون... يتمتم الشيخ ويقول الضرير: لا بد من استرجاعها في يوم من الأيام وإرجاعها إلى أصحابها الأوائل، إلى أولئك الفلاحين الفقراء المشردين الذين لا يفتأ الجيش الأجنبي يلاحقهم مصراً على مطاردتهم بالسلاح فيما يروح الخماسون الهزالى يقذفون العدو بالحجارة مهددين إياه بقبضة أيديهم النحيفة يضحكون خلسة ويثورون عنوة وثكنات العدو يقتحمون وأنفسهم بالأسلحة يدججون وقد عيل صبرهم وما عادوا احتقار المعمر وأنانيته وعنجهيته يطيقون كما لم يعودوا تلاعب المواطنين وخيانتهم يقبلون أغنياء كانوا أم تجاراً أو ملاكين أمثال سي عمر ذاك الذي

اختفى عن الأنظار منذ أن دب المرض في جسم سالمة. يا للعار. ألا يكفيكم دم الثوار الممزوج بمياه الشلالات والوديان، يا ناس؟ ويستأنف الشيخ مثرثراً: ألا يكفيكم كل هذه الدماء الطاهرة يوم كان العدو يلاحقنا فيتهمنا بأننا عصابة من المجرمين ليس إلا (فلاقة. فلاقة)، فيما كانوا هم في الحقيقة قطاع الطرق مجرمين ليس إلا، هم الفارون من المعتقلات والسجون، هم الرعاع والحثالة على أراضي القبائل مستحوذون بعد أن تشتتت كلها وأبيدت وذبحت وأحرقت («كان الجنرال كفينياك يشرف على العمليات الحربية على الضفة الغربية من واد الشلف، في منطقة قبيلة السبيعات، فأرغم كل أفرادها على اللجوء إلى كهف كبير والاعتصام به. ولكن رغم إنذاراته المتكررة رفض أعضاء القبيلة المعنية الاستسلام... وأمام هذا الصمود الرافض قرر الجنرال إضرم النار أمام كل منافذ الكهف. فعلت الصيحات في الليل. سمعناها. سمعنا أنات الأطفال والنساء، سمعناها.. حتى إذا طلع النهار ولم نتمكن، نظراً لكثافة الدخان، من دخول الكهف إلا بمشقة شاقة، ويا له من مشهد رهيب اكتشفناه: اكتشفنا الذين كانوا هناك لاجئين، اكتشفناهم وقد قضي عليهم محروقين مخنوقين. وأحصينا منهم ما ينيف على خمسمائة جثة هامدة». (غزو الجزائر للكولونيل روسي. الجزء الثاني صفحة 22، 23) وما ذلك إلا لأنها رفضت القوة الغاشمة وتجرأت على مقاومة الغزاة المتوحشين... كان الشيخ الضرير مولعاً

بتاريخ بلاده أما الآن فقد أصبح عاجزاً لا حول له ولا قوة فيأخذ في الترتيل والتسبيح حتى يغفر الله عن ذنوب المتشعوذين المتطيرين... كان الديك لا ينفك يتخبط ويتعارك صارخاً منتفضاً صائحاً قافزاً يقفز في الفضاء الذي ضببته شدة الحر المتراكم شرائح وطبقات وإذا بالشيخ يأخذ في تلاوة الرسالة التي بعث بها سكان قسنطينة إلى الجنرال بيجو وقد حفظها عن ظهر قلبه نقلاً عن سلفه الذي كان يقص عليه التفاصيل بدقائقها مروياً تلك المذابح والمجازر التي ذهب ضحيتها العديد من الأهالي العزل. كتب سكان قسنطينة إلى بيجو قائلين: «تقولون أنتم معشر الفرنسيين إنكم تنتمون إلى دولة قوية جبارة وإننا على محاربتكم قاصرين فالأقوياء يعرفون العدالة ما معناها. أما أنتم فتريدون الاستيلاء على بلاد ليست بلادكم. ثم إذا كنتم أغنياء فماذا جئتم في بلادنا تفعلون؟ فليس لدينا ما نعطيكم إياه سوى البارود. إنكم تهددوننا بحرق زرعنا والسطو على قمحنا وشعيرنا لتغذية خيولكم. واأسفاه، لقد تعودنا منذ القدم مثل هذه التصرفات. إننا على سنوات القحط والجراد والمجاعة معتادون وإليكم لن نستسلم ما دمنا أحياء... لن نستسلم أمام غزوكم وجبروتكم...» (خيول الصحراء للجنرال دوماس. صفحة 102 ـ 103) ولم يكن الأعمى لينسى تلك الرسالة التي حفظها غيباً عن أسلافه... أما الآن فقد كان يرى أن التربة قد دمرت والدماء سفكت والجراد انتشر فراح يأكل حتى الصوف الذي نشرته النسوة

على بلاط الفينا لتجف. أجَّل أكلته الجراد خلال هذا العام المشؤوم... فأي فائدة ترجى من ذبح الديك هذا؟ وفيما كان مع نفسه يتحاور إذا بالسحارة تغرز مديتها في عنق الديك الأسود، تغرزها في حركة وميضة ارتسم وميضها في ذهن الكهل وإن كان أعمى لا يبصر فقد فهم أن الجريمة قد اقترفت، فأخذ الأولاد وأبعدهم عن المكان ونهر القطط وشتتها في البستان، وقطعت العجوز الشنعاء عنق الديك بدقة وخفة فراح الديك المذبوحِ يتفرس فيها بعين ملؤها البلاهة والذعر والهلع.

وما أن قطع رأس الديك حتى أخذ هذا يضرب بجثته الملطخة بالدم عرض الحائط المطلي بالجير الأبيض، فتبقع بقعات ضخمة من الدم الثخن المحبحب فيما راحت سالمة تصرخ زاعقة نادبة وكأنها استرجعت وعيها الذي كانت قد فقدته، استرجعته تحت وطأة الصدمة الرهيبة والمجزرة المخيفة. وفجأة أخذت الخادمات الزنجيات يرقصن ويتدحرجن ويتمايلن حول جثة الديك المبتور الرأس وهو لا يزال حياً يقفز قفزات مروعة ويخبط الأرض خبطات مزعجة فتحول لتوه إلى إسفنجة أشبعها الدم فاحمرت. ويأتي دور السحارة والنسوة فيهرولن ويفقدن شعورهن وتتلطخ شفاههن برغوة ريقهن ولعابهن وتجحظ مقلتاهن ويدخلن في دوامة الدوران والهيجان والاهتزاز. وما هي إلا برهة من الزمن حتى بدأن يغنين فيما أصبح عنق الديك عبارة عن فوارة زرقاء ينبجس منها دم خاثر سرعان ما جلب نهامة الذباب

والحشرات الأكولة الفتاكة، ويتقاطر وجه سالمة دماً وعرقاً. (أليست هذه الانطباعات هي التي ارتسمت في ذاكرة صاحب القلم، ذلك المعتوه الذي قرر تسجيل أحداث حياته على كراس بال في القاعة الجماعية للمستشفى (أم عيادة) (الدير؟) ولعله راح يزيد من عندياته فيتبجح ويصرح أنه فتن إحدى تلميذاته؛ قد رش وجهها هي أيضاً بدم ماعز، رشه رجل زنجي قبل أن يتركها تذهب وسبيلها وتغرق في اليم.. أليس كل ما في الأمر هو نوع من الاستطراد، إذ كان المعتوه قد حضر وهو ما يزال مراهقاً ذلك المشهد الرهيب، حيث رش أثناءه وجه أمه بدم ديك ذبح قرباناً وتطيراً؟ ألم يكن الأمر متعلقاً بمجرد تحريف بسيط أو مس خيالي جعل مدبج الرسائل يخلط فيما بين الأمور والأحداث ويخترع خرافاته؛ منها خرافة الفتاة التي زعم أنه فض بكارتها بعد أن التلجأ معها إلى داخل ضريح منفرد معزول على شاطىء بعيد هناك ناء عن كل شيء؟ هذا على الرغم من كل التفاصيل الدقيقة التي كان يقدمها برهاناً قاطعاً عن نزاهته: مثل شكل هندسة الضريح الذي كان يقف حاجزاً بين البحر والأفق بسبب استدارة قبته الضخمة، وتكاثر قنافيذ البحر بالقرب من الشاطىء، وخرافة زوجة الزنجي التي لقيت نحبها منذ زمن طويل، والشموع التي كانت تحترق داخل الضريح المعتم، فتتراكم من حولها شرائح من الشمع المتطابق، وتصرفات الزنجي الذي كان قد حضر عملية فض البكارة هذه، وهو يشاهد من وراء

الزجاج، زجاج الشباك الوحيد، كيف كانت الفتاة تتلوى من فرط ما شعرت به من لذة ومتعة وكيف كان دمها يسيل بين أفخاذها. وأمور أخرى كثيرة من هذا القبيل.. لا بد أن يكون حل اللغز كامناً هنا.. خاصة وأن الصدفة غريبة كل الغرابة والخرافة مبتذلة، فلا يقتنع أحد من صحة مزاعم المعتوه الذي لجأ إلى نوع من الإسهال اللغوي والثرثرة الكلامية، لا لشيء إلا لإغراء مستمعيه وخاصة المرضى المساكين منهم..) وهي واجمة في وضعية مضحكة لولا لوعة الآلام وغزارة الدماء التي لطخت وجهها الجميل وثوبها المطرز تطريزاً وفخذيها الثلجيتين. تائهة سالمة، وفياضة خائفة عاصبة، رائعة سالمة، فتشعر بنوع من الفتور المبلل يتسرب إلى فرجها وكأنه ينذر بمذابح آتية لا محالة عما قريب وبتكسير الضمير المفلج بسكين ملولبة شفرته. كانت تصرخ مازجة بين دمها ودم الديك (دمها ذاك الذي أهدره سي عمر وهو يغتصبها ويخترق بكارتها ودم الديك الذي لم يعد يتحرك له الآن ساكن وقد انتفش ريشه وتشبع دماً ذاك الذي سوف لا يفارق ذاكرتها ولن يفارقها، وكأن الذاكرة أصبحت منجوسة متقززة لمجرد لمس أي ريش أو زغب أو شعر، فتلاحقها الكوابيس ليلاً وقيلولة وأرقاً ونوماً، وتصبح حالتها أكثر خطورة وهي الآن على حافة الأشياء والأمور والأشخاص فيتوغل الغثيان في صدرها نهائياً ويسكنها إحساس يشعرها بأنها على وشك السقوط في هاوية اختلالها التي لا نهاية لها ولا قاع..) فتغرق فيه

وتخور إلى ما لا نهاية. كانت الزغاريد تحرق القبة الزرقاء وترقش المحيط وتخرق الأجواء، فتنبجس وسط ضجة وصخب كبيرين، فيما كانت السحارة تنتفض وتهتز وتجن جنونها إلى حد أن ابيض بؤبؤها وتفلجت شفتاها، وإذ هي على هذه الحال لا تفتأ ترقص وتئن وتشهر الديك الميت ولا ينفك ريشه يتقاطر من أثقاب مختلفة (فواهات؟) قد فجرتها العجوز من خلال ريشه، وتدوره فوق رأس سالمة فتقاطر شعرها من ذاك الدم المصبب عليها فيسقط على وجهها حبوباً ثخناً مروياً. وكان السائل الأحمر يتسرب إلى فمها على ما كانت تحاول لإغلاق شفتيها، فتتقيأ شيئاً أحمر، وقد كانت السحارة لها بالمرصاد فتجبرها على ابتلاعه وسط دخان المبخرات الداكن الكثيف وعويل الأطفال وتكالب القطط وتقاطر الدماء التي سرعان ما جففها الشلوق المحرق الذي هب من المشرق فألهب الأصقاع وأشعل فيها نيراناً وحرائق مهولة. كانت الخادمات يرمين من حين إلى آخر بحبات الملح الخشنة في الكوانين فتتفجر مفرقعة مما زاد في هول الوضع إثارة. أما الشيخ الضرير فلم يتحرك له ساكن هو الذي كان قد أعلن رفضه القاطع لهذه الطقوس السحرية التي يرفضها الله ونبيه وحتى الأسلاف والأجداد بل كان يهدىء من هلع رضيع قد لطخ الدم عينيه فيما كان الملح يتورم فوق الجمر ويفرقع بعنف، فيتمايل الفيناء وتقوى وتيرة هذه الرقاصات الوثنية وترات لا نهاية لها.

دخلت إذن سالمة في متاهة الجنون بأبهة وفخفخة وما عاد ينفعها شيء قط. لا الطقوس السحرية تنفع ولا الممارسات الوثنية ولا الابتهالات الدينية. تكلم الشيخ الضرير قال: «اتركوها تموت في سكينة وهدوء.. إنها لن تعبر فصل الشتاء الرهيب ذاك الذي سوف يجتاح البلاد هذه السنة..».

ورحت أكتسح المدينة وأمسحها ذهاباً وإياباً منهوكاً محموماً مهموماً مغموماً وقد توغل القنوط والبغضاء والحقد في أحشائي، رحت باحثاً عن الحبيبة ملاحقاً إياها راكضاً وراءها، رحت وقد نمت في ذقني لحية لم أحلقها لعدة أيام خلت وقد تسربلت بثياب غير لائقة وقذرة، رحت وقد نقصني النوم وتحت كابوس الأرق أتشاحب، رحت باحثاً عن الحبيبة وكانت قد اختفت وراء نافذتها تحمل في يديها مشايتها وهي على أهبة الاستعداد للانقضاض على جسمي الهزيل كما لو كنت حشرة أم الأربع والأربعين، وهي متأهبة للصراخ فزعاً من تفرسي فيها بعين مبالغ في حولها نكاية فيها في سبيل إسقاطها بين ذراعي. فقد كان عليَّ، وهذا شرط من شروط اللعبة، أن أترقبها وهي راجعة من الحمام العمومي فأتتبع خطاها متشمماً آثارها، في عبق الرياحين والمسك والعنبر بحيث أنه كان بإمكاني أن أسير في سياجها المعطر مغمض العينين فأصل إلى قعر عرينها

حيث كان الغول أبوها يترقب عودتها من الحمام وعيناه تحدقان في عقارب الساعة الحبيبة تحديقاً ما، فيه من شراسة وحقد وبغضاء لشدة ما كان يفزع عليها من زحمة المارة والمارقين فتتقاذفها أذرع الذكور ذات الشعر الكثيف لا غرض لهم سوى التحويم ليلاً نهاراً في أرجاء المدينة يلغون ويدورون حول سعادة الآخرين وهنائتهم وترفهم، مثلهم مثل الذباب المتزاحم حول نقطة من القهوة المشبعة سكراً، يعكفون عل التهمع لأتفه الأمور؛ ذوو العواطف الجياشة والشبقية المحدودة يحملون في جيوبهم المبعجة كتب الشاعر عمر والمناشير السرية، ذوو الآذان المكتظة بصوت أم كلثوم: كوكب الأقطار الشرقية وأفيون الشعوب العربية وهي أخطر ما وجد بالنسبة إلى شباب المدينة ذوي الأحذية المهترئة من كثرة جولها وصولها على أسفلت الشارع الرئيسي يتنقلون من رصيف إلى رصيف في هرج ومرج دائمين من فرط ما يعانون من أعباء الحيرة والعزلة والارتباك. وقد كان يصطحبني رفيق لا يفارقني. كان كئيب الوجه أبكم اللسان ممشوق القد يكاد رأسه لطول قامته ينطح السحب، يمشي بجانبي، يسايرني شاهراً ربطة عنق عريضة ذات ألوان صارخة؛ ويبدو وكأنه فخور بها وكان قد استلفها من أحد أصدقائه هو أقل منه فاقة وقد كنت على علم بذلك، فلا يتركني ولو لحظة واحدة، إذ أنه كان على علم بأنني تقاضيت نهارها أجرتي الشهرية كأستاذ في إحدى ثانويات البنات بالعاصمة، وما أن أضع في يده بضع أوراق

نقدية حتى يتغير مزاجه على ما كان يتظاهر به في أول الأمر من رفض مما يحملني على الإلحاح عليه، فيغلق قبضته على الأوراق فجأة متظاهراً بالتلعثم واحمرار الوجه، وما هي إلا دقائق حتى ينطق الرجل قائلاً: «إني مدين لك بكذا وكذا...» ثم ينطلق كالصاروخ شاكراً، باركاً، مثرثراً مسترجعاً لتوه فصاحته وفظاظاته، فأرتاح إلى أنه سيتغيب عن وجهي أسابيع معدودة حتى يعود إلي بالضبط في اليوم الذي سأتقاضى فيه مرتبي. فيزعم مدعياً أنه سوف يقدم هذا المبلغ إلى أمه المسكينة وهي تحزن لرؤيته يتخبط في براثن البطالة والفقر، وقد كنت على علم بأنه سوف يغزو أول حانة تعترض طريقه وهو في اتجاهه نحو المدينة القديمة فيبدد ما أعطيته في ساعات معدودة قلائل شارباً ثاملاً، وسط روائح النشارة والسمك المقلي اللذيذ فيأكل منه ويبالغ عمداً فيبرر بالتالي عطشه ومقارعة الخمر، فلا ينتهي إلا عند الصباح تحيط به زمرة من المدمنين، غير مبالين بقشور الحلازن التي كانت تتفرقع تحت أقدامهم غير آبهين للضجة المسيطرة على المكان وحتى لا لصوت المطربة الموهوبة وقد راحت تغرد نائحة باكية على حبيب العمر فيتناثر صوتها تناثر مجموعة من اللآلئ تتساقط على رؤوسهم وتنخر قلوبهم المحرومة وقد لعب الخمر في رؤوسهم؛ وإذا بهم يتشاجرون وتتكاثر استيهاماتهم ويدب الانشقاق في صفوفهم فتتعطن نكهة أفواههم وتبرز أوشامهم على وجه بشراتهم وتتصدع أخوتهم المؤلمة الحساسة فيما

رائحة البسباس المبلول راحت تعبق في الجو وقد قص إرباً إرباً ووضع في صحون صغيرة ملوثة ومشققة.. أما صديقي فقد كان يضجرني بإصراره على إغرائي مكرراً: «سوف أعطيها أمي، فهي في حاجة ملحة إليها، شكراً يا مهدي.. لقد كادت تموت جوعاً..». وقد كنت أعلم علم اليقين ما سوف يكون مصير تلك الأوراق المعدودة وكيف يستعملها في قضاء ليلته وهو يشرب ويثمل فيلح على رفاقه بدفع ما يشربه ندماؤه «هذه نوبتي.. دالتي..» ويقسم حتى أن صاحب الحانة كان يسجل على حسابه ما لا يمكنه دفعه لتوه إذ اعتاد عليه أن يقدم الورقة تلو الأخرى، بل ويزيد من سخائه فيهديهم صحناً ملآناً مرقاً حاراً يسبح فيه بعض الحلازن، حتى يساعدهم كل ذلك على تجرع عرق الصبير الخام، عرق يلهب الأحشاء التهاباً... ثم تعيد كوكب الشرق الكرة وتطحن الشجن إلى حد لا يطاق فتذرف الدموع مدراراً على حبها الضائع وينجور القانون الجو برقاقاته المتساقطة عبر هذه العربسة الصوتية المهولة ذهاباً وإياباً في أخذ ورد متواصلين، ثم تعاود نفس المقطع من جديد فتذوب قلوب محبي الشاعر عمر المجنون (ما أضيع اليوم الذي مر بي من دون أن أهوى وأن أعشق). فتترجح الحانة وتدور دورتها ونقرات العود تدغدغ آذان السكارى الرائعين المبهورين المتسنطين رغم ما كان في الأسطوانة القديمة من خشخشة تقزز آذانهم المولعة بالموسيقى ورغم السكر المفرط والنعاس الحزاز وجراد البحر المبتلع ورداءة

مظهر الحانة وجوها الدبق: «ميزرية كحلة يا خوية... ما عنديش حتى باش نخلص الترسيتي كل الأرباح تروح في جيوب البولسية... هذي الرشوة وإلا بلاش». فلا يكف الخمَّار عن التذمر رافعاً يديه إلى السماء. أجل إلى هذه الحانة، إلى هنا سيذهب رفيقي، إلى هذه الحانة، بعينها ويحاول إخفاء ما يشعر به من غبطة وفرحة أمام هذه الأوراق النقدية التي قدمتها له ظناً منه أن الأمر يتعلق بمحبتي له وشغفي به في حين أنني لم أفعل ما فعلت إلَّا تخلصاً من هذه العلقة التي انقضت عليَّ من السماء في وقت غير مناسب وقد أخذ السأم والتمرد مني مأخذهما فرحت أجوب المدينة ماسحاً شوارعها وقد قضم الحب قلبي فيما كان الواقفون يحملة ن بأعينهم الخسيسة حول سعادة الآخرين ونساء الآخرين. لا شك في أنه مائت عما قريب في إحدى حانات المدينة حيث يترك كل مرة قطعة من كبده المتفتت المتقرح وقد تآكله الجوع والخمر والصقيع (كان ينام عادة على مقعد في حديقة الاستقلال وهو يخجل أن تراه أمه التقية الورعة وهو غارق في سكره وثموله) وقد احترف عدة حرف منذ أن طرد من المعهد الإسلامي حيث كان يزاول التعليم. لا يمكث فيها أكثر من بضعة أسابيع ثم يغادرها دون أن يتقاضى أجرته كما كان ينصرف في بعض الأحيان من منصب عمله حاملاً معه الدرج الذي يخزن فيه صاحب الحانوت أمواله ويمضي فيبددها في ماخور مشهور قد أطلق عليه اسم طنان رنان: «القمر». لقد زاول كل

الأعمال حتى أدى به الأمر هو الملحد المعادي للدين على الاضطلاع بمسؤولية مؤذن في أحد مساجد المدينة. مؤذن ويا له من مؤذن! ضحك منه أصحابه وهو متنكر في لباس تقليدي متقلداً جبة فضفاضة وعمامة بيضاء وبلغة صفراء. فأصبح الرجل يتجنب زيارة الحي حيث كان قد ذاع صيته لفرط ما كان عليه من خجل وعار. يجاحف الجدران مختفياً وراء نظارات سوداء متنكراً أمام أصدقائه حتى إذا ما اكتشفه أحدهم راح يبرر موقفه هذا قائلاً أنه إنما يستغل النظام الديني ويتجسس على الأئمة ورجال الدين، رغم هزالة الأجرة، وقد أقر العزم على أن يحول المسجد حيث يؤذن وينام فيه إلى حانة بعد انصراف مصلي صلاة العشاء. على أنه لم يفعل شيئاً مما قال. وما لبث أن طرده الإمام بعد بضعة أسابيع لأنه سمع أن مؤذنه كان قد انخرط سابقاً في الحزب الشيوعي. فخلع عنه ثوبه الديني وراح ينتقد الدين ويكفر بالأئمة ويشتمهم ويسب الرسل والأرباب حتى قبضت عليه الشرطة بتهمة الإلحاد ومناوأة الإسلام الحنيف. ثم يطلق سراحه فيعيد الكرة ويعاد إلى السجن فلا يعرف للتوبة ولا للندامة سبيلاً. كان كلما زج به في السجن يضرب ضرباً مبرحاً ويعذب تعذيباً وتحلق له جمجمته فيعقب على الملأ: «ميزيريا يا الخاوة... يحرق دينهم ومشايخهم! ميزيريا يا الاخوان». إلا أن كلامه هذا ما كان يغري المقربين منه قط فقد كانوا يعرفون عن الرجل أنه مصاب بنزعة طفولية غريزية... وما أن يسكر حتى يأخذ

في تهديد الإمام الذي طرده، يهدد بقتله خاصة وأنه إذ كان يشتغل كمؤذن كان يحبذ القيلولة فوق الصومعة المظللة أيام القيظ. لكن كيف تمكن هذا المتعربد من مصاحبتي ومخالطتي، هذا ما لا أدركه.

وبعد أن تخلصت من خنوعه وتملقه رحت أطوف في المدينة ذهاباً وإياباً قاهراً نفسي، معذباً جسمي، محاولاً نسيان صديقي المدمن على شرب الخمر المتسكع، ونسيان حبيبتي التي لزمت البيت والتبدت وراء مصراع النافذة وهي على أهبة الاستعداد للصراخ طلباً للنجدة إذا ما... فأحوم إذن وألف وأخاطب نفسي، وتغريدة كوكب الشرق تنغرز في ذاتي إبراً وحزات ورقاقات وذلك كلما مررت بمقهى حيث يلعب الشعب فيها بالورق ويلعب فيها لعبة الدومينو (خربقة؟) وينفض الغبار عن يديه تاركاً السياسة لأهلها والحديث عن الأثرياء. أمضي إذن فلا أنفك عن المشي والجولان حاملاً في جيب سترتي الأيسر منبهاً ضخماً لا يفارقني كلما سافرت، فأخشى أن يدق جرسه فجأة أو يأخذ في التهام حصص الزمن بسرعة غير طبيعية، فيثير هذا المنبه غضب الشعب فسرعان ما يغير موقفه إزائي ويأخذ في مراقبتي بعين ملتهبة ملؤها التشكك وسوء الظن، كما كنت أخاف إذا ما دق جرس هذا المنبه بغتة من أن يتحولق من حولي الأطفال ويضحكون مني فيحسبونني مهرجاً هرب من سركه أو بهلوانياً يريد استفزازهم خاصة إذا كنت حقير الزي، رث الثياب، كئيب الوجه، شرس المسامات...

كانت الشمس تلتهب في كبد السماء وتصرع السياح القلائل فراحوا يضعون مناديل بيضاء على رؤوسهم إتقاء الحر فلا يمنعهم ذلك من أن تحترق بشرتهم فيصبحون وكأنهم من سلالة أولئك الذين يتلذذون تحت سطوة العذاب والتعذيب. . . كانوا يتموجون ويتنقلون من مكان إلى مكان، يلتقطون الصور، يبتسمون رغم شراسة القيظ: «Don't move please... Smile» لكن الصبي الأفاق يرفض أن يبتسم: «Achtung!» لعله خير لهم أن يغلقوا أغمدة مصوراتهم وينصرفوا. لكنهم يتعنتون فيتركون عربات الخيل ويشترون التين الهندي ويأكلونه دون تقشيره. فينزف الدم من أفواههم ويضرس الشوك ألسنتهم مما كان يثير قهقهة البائع الصغير متهكماً هازئاً منهم باللغة الشعبية وقد لا يعرف من الفرنسية إلا القليل ومن الألمانية لا يفقه فتيلاً: «Ya!Ya!». أين الصداقة بين الشعوب تلك التي تتحدث عنها المناشير الدعائية؟ ليس لها أثر البتة، بل ما أن يعود السياح إلى بلادهم حتى تتقوى عنصريتهم وتتضاعف. مثلهم مثل المتعاونين: «Smile boy!» لكن عدد السياح قليل وهذا أهون، خاصة وأن النساء الأجنبيات غالباً ما يتطاوسن ببشرتهن البندورية المحترقة ومؤخراتهن الضخمة المدكوكة في سراويل جد ضيقة، وهن يصعدن أدراج القصبة فيهيجن شبق الشعب الطيب الهادىء، فيخرج من سكونه أمام هذه الجحافل من السياح الذين راحوا يتدفقون على الحي العتيق، وقد برعت النساء بسمنتهن وتقنع الرجال بلبس

الثوب التقليدي وحمل الشاشية الشعبية. حر وقيظ وجفاف. «Hot! Very hot! Hot Dog! It is very hot...» (كـــلـــب سخون. كلب سخون يا مدام..) أما الشعب فكان يلتهم بأعينه كل هذه الخيرات الشهوانية وقد كانت السائحات نصف عاريات.. لو كان جحا هنا لقذفهن بالحجارة.. ماذا جاء هؤلاء يفعلون؟ لا بد أنهم يطمعون في قراءة الحفريات اللاتينية المتكاثرة على جدران سوق الجزارين ومبانيها. فهكذا تعلمون يا سادة أننا لسنا متوحشين على الإطلاق.. الحضارات نعرفها: اليونان والرومان والقرطاجنة والفيزيقوت والوندال والبيزنطيون وغيرهم وأيضاً وأيضاً. لكن لا تزعجن شعب الصائمين يا سادتي الكرام.. وشهر رمضان قد حل منذ أسبوع.. حرام عليكن أيتها السيدات (يا لها من مهرة هائجة: لا بد من ركبها يا مهدي..) صوت جحا يصلني من بعيد وأنا أطوف في الأزقة والطرق المسدودة وأنا أصعد الأدراج الملولبة المتكاثرة في قصبة قسنطينة واليوم حار والريح الشرقية كثيفة. الشعب: هزالة وانتشاق وتقشف. لو كنت مكان السياح لخجلت. فائض القيمة قائم حتى في الأجساد، يا سادتي الكرام. «Hot! Very» لم تتغير الأمور.. أذكر أيام الطفولة.. كنا نسخر من زوجات المعمرين وبناتهم: معروف عنا أننا مهلوسون بالنساء وخرافات الاغتصاب تملأ صحفهم الاستعمارية. حقاً إن الحرب دامت سبع سنوات، حقاً أنا ذبحنا الكثير من المعمرين الطغاة والعديد من

العساكر والشرطيين وحراس الغابات (قسنطينة: 20 أوت 1955. مذبحة رهيبة ذهب ضحيتها جزائريون بالمئات في يوم واحد.. سقطوا تحت رصاص المعمرين والمدنيين الأجانب، والجيش الفرنسي واقف من ورائهم لحمايتهم..) الشرسين، المدججين بأنواع الأسلحة المختلفة وقد حسبونا هنوداً حمراً فراحوا يلاحقوننا ويتراكضون من ورائنا. لكن الأوضاع تغيرت الآن فانقلبت رأساً على عقب.. لكن كيف يفهم السائح الأبله معنى التاريخ وانحرافاته؟..

أتذكر طفولتي فتتدفق الذكريات في ذهني المرهق المعتوه تدفقاً وأنا ما زلت أدور باحثاً عن الحبيبة (سامية؟) فيما كان المداح يخرق الزمن فينتصب أمام عيني.. كان يبهرنا ويمتعنا بقصصه وخرافاته فلا نشبع منها. كان هو أعمى (وقد توفي الآن الشيخ الضرير..) وكان وجهه ذو العظام الناتئة يتدحرج بدون تمهيد من فوق رأسه إلى أسفل ذقنه، فيضاعف هذا الانطباع من هزاله القصاص. كان محشوراً صيفاً شتاءً في برنس رث النسيج وفاتر اللون فيظهر لنا نموذجاً من الفقر والتقشف خاصة وأنه كان ينتعل حذاءً عسكرياً قديماً يفتقر إلى بريمات لشده، ولعله تحصل عليها أثناء حرب السبع سنوات وكانت آنذاك في أوجها. كان دائماً متربعاً مغنياً بصوت رائع مبحاح تتسرب إليه من حين إلى آخر رقاقات أزيزية خارقة، فلا تزعجه الرياح الرملية التي تجفف المناخير ولا زطيط الحشرات العاجة ولا الحرارة المجلفة ولا أي شيء آخر. وقد راح الشيخ

الأعمى يعايش الملائكة فلا يشعر بكبت الفقر والحرمان قط. أما الجمهور فكان يصغي مشدوهاً مسمراً في مكانه مبهوراً. وأما الكبار فيبالغون في تظاهرهم بالإرهاق والتعب ويشهرون أوجهاً صائمة رمضانية، وقد أوشك العيد على أن يحل. ولعلهم يتصرفون هذا التصرف حتى نشفق عليهم نحن الصغار ويعطف الله عليهم برحمته وسلوانه. كانت أوجههم مكفهرة، لكن ما أن يتلفظ المداح ببيت غزلي أو شبقي أو إباحي حتى تراهم يترنمون ويترنحون من فرط ما يسمعون إليه. «اسمعوا يا مؤمنين». لا يرفع من صوته قط لكنه لا يكف عن تحسس ماعزه الرابض بجانبه. ثم يعود إلى غنائه وعزفه، وكأن نعومة شعر الحيوان تطمئنه على أحواله وعلى أحوال العالم: (آه يا بلارج يا طويل القايمة، سبع سنين ما صليت، وكجيت انصلي انسيت السورة..).

وأحياناً يرتجي الجمهور ويسقط في حب السويداء القاهرة خاصة عند استماعه إلى هذه الأغنية الغزلية (لكن من يدري؟ لعل الأمر يتعلق بالحرب الضروس، حرب السبع سنوات التي ما زالت تدور رحاها؟ إنه لمن الممكن بمكان، تلك الحرب التي خضناها صارخين، مذهولين، مسعوري القلوب والتي راحت تدق دقات جنونية، خضناها خائفين، فزعين، متجرشين، متوزعين على أرض الأسقاع الطيبة، الغزيرة الخصبة، وكأننا اكتشفناها فجأة في جبالها الوعرة الواقية، في هواتها المدوخة، في انقصافاتها الرهيبة، في انتهاكاتها الغزيرة كما اكتشفنا هذه الأصقاع

المسلوبة من خلال الرصاص والبارود والقذائف المدفعية وسوائل النابالم والطائرات الجبارة التي بدت وكأنها جراد فخم وأزار عارم يرسم ظله بشكل صليبي فوق التربة السمراء، المبقعة المرصعة دائرات شهباء أو خضراء أو صلصالية). فيما المداح يستمر في نشوته وغبطته، فلا يفارقه الحذر وهو يخاف من مكر الأطفال القادرين على سرق ماعزه الحلوب، كما أنه يخشى نكهة الكافرين والسياح ورافضي صوم رمضان، وقد توزعوا وسط الجمهور المتجمهر حسب نظام استراتيجي محكم، متأهبين للفرار عند أي خطر أو طارىء (خاصة وهم يخافون من شراسة العساكر الأجانب وتعصب إخوان الصفاء). يمررون الزجاجة الإلهية خلسة، شاربين رحيق الفردوس مباشرة، واضعين أفواههم تحت عنق القنينة، إناء لا يمكنه إرواؤه البتة، متسترين ببرانسهم العريضة: «نتركه لكم رمضانكم هذا الذي به تتبجحون، يا كرام!».

كنت وأنا أتجول عبر شوارع المدينة وساحاتها أطحن شجوني تحت عظام ضلوعي وما كدت أتخلص منه حتى لسعتني السويداء القاتمة من جديد، عند سماعي أشعار المداح الغزلية. كان الرجل يتمتع بعطف ماعزه أما أنا فلا عطف أتمتع به ولا من يحزنون، لقد خدعتني الحبيبة وقد جاءت قسنطينة لقضاء العطلة في دار عمها حيث بها التحقت. قسنطينة، مدينة عجيبة وإني أعرفها كل المعرفة. لقد سبق وعشت فيها حتى السابعة عشرة من عمري، أتنقل

بين الثانوية الفرنسية ـ الإسلامية ومعهد ابن باديس حيث تعرفت على صديقي السكير وقد راح الآن يشتت رئتيه في إحدى الحانات المكتظة الغاصة بالرواد بعد أن اختلس مني بضع أوراق نقدية، حيث تزرع أزهار العرونقي في زجاجات البيرة وقناني الكحول، فتنمو وتكبر وتضغط على البلور حتى يتكسر رقاقات بأوراقها اليانعة الآجمة المتهيجة تشرب أشعة الشمس تشرباً، خاصة إذا ما حل الربيع فيذهل منها السكارى محملقين فيها، غير مصدقين ما تراه أعينهم، رافضين أن تلعب لهم زهورهم المحبوبة لعبتها وتشوش عقولهم، فيشعرون بوخز الخدعة تنغص ما تبقى لهم من ليل. . . لا شك في أنها خدعتني حبيبتي وقد وعدتني بمقابلتي والتفسح معي وسط هذه المدينة زاعمة أنها تتمتع بحرية التحرك المطلقة فتذهب حيثما شاءت وأينما أرادت وأن عمها إنما هو من ذوي الأفكار العصرية المتحررة. فطلبت مني الالتحاق بها فألحت بحجة أن الوضع هناك سيكون أهون وقد أصبح من المستحيل الخروج من دار أبيها وقد حلت العطلة الصيفية وأغلقت الثانوية أبوابها فلم تعد تقدر هي على دفع الرشوة للحارسة العجوز وشراء ضميرها فتتغافل عن جحافل المحرومين الذين سقطوا كلهم في حبال حبها وتآكلت الصبابة قلوبهم فمزقتها. . كنت أمر مراراً أمام نوافذ دار عمها بدون ما جدوى، بل ولعلها، إذا ما شققت طريقي نحوها، أنها تصيح صارخة تطلب المساعدة مستغيثة وذلك ليس مضرة بي أو إساءة لي، بل

لمجرد إغراء عمها وإبعاد الظنون عن ذهنه. وإني لم أحط علماً بهذه الحقائق إلا بعد أيام، أي بعد استلامي منها كتاباً حررته هي على جناح السرعة مذعورة مرعوبة مصرحة فيه أنه قد داخل عمها بعض الشكوك في أمرها وذلك من جراء تصرفاتي الصبيانية، على حد زعمها. فإذا بي أمل فأكره هذه المواقف المسرحية التافهة وإذا بالغيرة والحقد والعزلة تتوغل في أعماقي فأخذ جسمي يجف ويتيبس إلى حد أن تقيحت رئتاي فغضبت ليس فقط لخيانة سامية بل أيضاً لأنني عجزت عن لملمة ذكرياتي التي توزعت كلها في أرجاء المدينة الشاسعة. ما حل بها؟ هل تلك الذكريات تجمدت؟ وهل ذاكرتي تحجرت؟ لست أدري. لكنني لم أعثر على الشعور بالحرية ذاك الذي عرفته وأنا مراهق هنا في المدينة. فخابت هكذا أوهامي وقد كنت تخيلت قبل مجيئي أنني بمجرد ما أصل قسنطينة سأسترجع ذكرياتي الغابرة وانطباعاتي القديمة التي طالما حملتها فيّ طيات أحلامي، ظناً مني أن الماضي سيتدفق فيّ فيلقفني ويجعلني في حالة السرف في نشوة الترف والطرب. ولكن.. لا شيء من كل هذا يحصل. وقد سبق لي أن فكرت قبل امتطاء القطار أن رغبتي في العودة إلى قسنطينة لم تكن منوطة بحبي لسامية، لكن رغبة مني في استرجاعي ذلك الجو الذي عشت فيه وأنا مراهق خاصة وإني كثيراً ما أجلت زيارتي لهذه المدينة التي خلفت آثاراً وخيمة في ذاكرتي، وكأنني كنت أتوقع هذه الأشياء التي أشعر بها

الآن وهذه الخيبة التي قضت على آخر آمالي. وعندها فهمت أن خيالي لعب لي دوراً خبيثاً مرة أخرى وهز عقلي بشطحاته الجنونية المألوفة وهذيانه المفرط الميال إلى تضخيم كل الأمور. كنت قد عزمت على الاتصال بأصدقائي القدامى فور وصولي إلى هناك، فلم يسعفني الحظ وقد التقيت بزميلي في معهد ابن باديس سابقاً، ذلك السكير المتعربد، ذي المظهر المخيف، الغارق في صمته الأبدي، ذي القد الممشوق فيكاد رأسه ينطح السماء، فيتباهى أمامي بربطة عنق رائعة براقة مرقشة بأزهار زرقاء، يمشي ويتطاوس متبختراً.. وقد كنت على يقين بأن الربطة لم تكن ملكه بل إنه استلفها من أحد أصدقائه فأسلفه إياها.

لقد تغيرت أسماء الشوارع فعلاً، وما كان هذا ليضايقني، فما كنت أعرف يوم كنت في المدينة مقيماً أي اسم منها. وكان من عادتي أن أتجاهل أسماء الأنهج والأزقة، بل كنت أمشي وأتجه عبرها بعينة مغازاتها وعماراتها وواجهاتها وحدائقها. ما كانت تشكل هذه التغيرات بالنسبة إليّ أي عائق، بل فرحت بقراءتي الأسماء الجديدة، ومنها اسم صديقي الملقب بالعراف المولود فيها والمدفون بعيداً عنها، هناك بالقرب من البحر، دون كفن ولا شرشف، دفن بلباسه الذي كان يرتديه لما اغتاله أصدقاؤه أنفسهم (وكان صاحبي المتسكع يقاطعني كلما تحدثت عن «العراف» وعن ظروف ميتته قائلاً: «دعنا يا

رجل، أرخف علينا.. هذه قصة قديمة وعليك نسيانها.. ثم ضع حداً لاستطراداتك هذه المملة التي لا بداية لها ولا نهاية لها). لكن المفيد في الأمر أني لم أعثر البتة على أي أثر من آثار الماضي. لا شيء قط. لا صور ولا ألوان، لا روائح ولا أماكن، ولا أشداف ولا أشباح. كانت عملية البحث عن أوهامي هذه عقيمة للغاية ومؤلمة جداً، فلم أعد أسخط من هزالة ذاكرتي وضعفها بعدما وصلت قسنطينة، وقد عودتني ذاكرتي على حدتها وحيويتها وغزارتها، إلى حد أنني كنت أرتاب عادة من شدة ما كنت أميل إلى تضخيم الأحداث والظواهر وتحريفها وتشويهها.. أما الآن فلا إمكانية لي في استرجاع ذكرياتي التي عشتها في المدينة تلك المهزوزة المتشامخة على رعنها وشغفها وكأنها تحرس الطريق المؤدية إلى سطيف؛ وإذا برفيقي السكير يرجع فجأة سالماً مسالماً بعد أن قضى سهرته في الشرب آخذاً بالتهكم من مشاعري قائلاً: «لقد أصابتك ضربة القمر أو الشمس، كما تريد. وما هذا كله إلا لأنك عشقت فتاة.. يا للكارثة..» لكن يحاول في آخر الأمر مساعدتي على استرجاع ذكرياتي، فيأخذ يقص علي الوقائع التي عشناها سوية، مقدماً لي بعض زملائنا بالمعهد، وآخرين في المدرسة الفرنسية ـ الإسلامية حيث كان قيمها العام كرسيكي الأصل (كان قد لقب من قبل التلاميذ بالثانية عشرة إلا ربع، وأما هو فكان يقول: الثانية عشرة وربع.. نسي زميلي ذلك العهد البطولي.. لقد أضاع الشعور لتوه

من فرط إدمانه على المقارعة. مسكين هو! لقد اختلطت عليه التواقيت والأمور). لقد نسيت حتى مظهر هذا المدير ولقبه هذا الغريب. أما رفاقي الآخرون فلم أميز منهم أحداً. لقد تضخمت أجسادهم وارتخت مسامهم واعتلت النظارات الذهبية أعينهم وتكرشت بطونهم وكثرت ذريتهم وارتفعت مناصبهم المهنية منها والاجتماعية وابيضت شواربهم الكثة.. فكيف أتمكن يا ترى من اكتشاف زملائي في عهد المدرسة وقد كانوا مهرجين متمردين وأصبحوا اليوم شخصيات وقورة، ذات جاه ومال ومسؤوليات سياسية وإدارية وعسكرية عالية ومرموقة؟ فلا هم يتذكرونني ولا أنا أتذكرهم. فلا بد إذن من أنني تغيرت أنا أيضاً ولم أعر للأمر انتباهاً. أما عن المدينة فلا شيء. العدم ثم العدم.. خاصة وأنها انقلبت رأساً على عقب بشوارعها الجديدة، وحدائقها الجديدة وحمامها الجديد ومساجدها الجديدة وسكانها الجدد وقد نزحوا من الريف والجبل إلى المدينة في هجرة هائلة مؤلمة مخيفة، فخاف الأغنياء على أنفسهم وأموالهم وانسحبوا متجهين نحو الأحياء العليا وقد كان يسكنها الأوروبيون إبان الاستقلال.

ولكي أتجاوز تلك الخيبة التي أصابتني من جراء عدم مقابلة سامية وغياب الانطباعات القديمة التي فكرت أنها كانت قد ارتسمت إلى الأبد في ذاكرتي أخذت أتتبع خطى صديقي السكير الذي كان قد شغل منصب مؤذن سابقاً من بين المناصب الكثيرة التي احترفها، أنساق بانسياقه، خاصة

وأنه لم يعد يكسب ولو فلساً واحداً، وهكذا فقد الأمل في الدخول إلى إحدى الحانات من جديد وقضاء ليلته فيها.

ولما كنا شاغري العمل وفارغي الأيدي، أخذنا في التجوال والتطواف والتلفلف عبر أنهج قسنطينة وأزقتها. كان الرجل يحسب أنني سأسترجع الذكريات بالتدرج بهذه الطريقة المحكمة، فما علي إلا أن أتأبط بعض الصبر وأترك أمري للزمن فأتشبع من مناخ المدينة ومزاجها وبنيتها وجوها العام وحركتها وروائحها الفريدة من نوعها. لقد قبلت إذن مسايرة هذا الصديق لكنه ما كان يضع حداً لاستفساره على أحوالي وطرح نفس السؤال في كل ثانية: «هل استرجعت ذاكرتك؟ كيف الحال؟ داوم.. لا تقنط..» وكان يحدق فيّ بنظرته الكئيبة فيزيد في غمتي غماً وكأنني أصبحت في نظره مصاباً بمرض عضال أو بعاهة النسيان. كان طويل القامة، مكشرد الشعر، يكاد ينطح السحاب برأسه، مما يضطره إلى الانحناء حتى يتمكن من مخاطبتي: «والآن؟ كيف الأمور؟» فأختنق وأغضب ولكنني لا أقوى على مجابهته ومصارحته إذ أنني فهمت للوهلة الأولى أنه صديق نزيه ويعطف علي، يتضامن معي، يحاول جهده أن نسترجع معاً تلك الانطباعات والذكريات والوقائع التي عشناها سوية هنا في هذه المدينة، فنضحك أو نبكي حسبما تفرض الظروف علينا أن نفعل. والغريب في الأمر أن المدينة على ما طرأ عليها من تغيرات طفيفة أدخلت على عمرانها قد احتفظت

بمزاجها الخاص وبصخرتها الشامخة وبجسرها المعلق في الفضاء وبأحيائها المعليا، بمداحيها ومشعوذيها وحركتها وحيويتها تلك التي تجعل الناظر إليها يخلط بين الأشخاص والأشياء فتمتزج في نظره الأمور. أما رفيقي ففي حركة دائمة لا يكل ولا يمل بل يقودني من مكان إلى مكان، من ساحة إلى ساحة، كما يقاد الأعمى فلا يمانع ولا يتردد.

وهكذا نقف مرة أخرى على مداح طفولتنا بمظهره المتغابي المتغايب وهو لا ينفك يتلمس ماعزه الحلوب الوفي الذي يقوده فينتقل وإياه من بطحة الجمال إلى كوخه الصغير. كان الرجل على ما كان عليه في القديم ولم يطرأ عليه تغيير قط، باستثناء الأرغول الذي كان يعزف عليه وقد عوضه ببندير عتيق؛ ما لم يكن هذا الضرير هو ذاك المداح الأعمى الذي عرفناه ونحن نزاول تعليمنا في معهد ابن باديس. لكن صديقي تدخل باتاً في الأمر جازماً: «إنه هو هو نفسه الخراف». وإذا به يقص علي كيف حاولنا في أحد الأيام اختلاس عنزه ففهم هذا ما كنا عليه مصممين ونهض يضربنا بعصاه الغليظة، بطريقة عشوائية فناصرته جمهرة المستمعين موافقة وقطعت علينا السبيل عندما أردنا الفرار فنزل فينا بوابل من الضرب والشتائم: «ابنين الكلاب. بنين الكلاب»: كان رفيقي على حق وصواب. فتذكرت فجأة تفاصيل تلك الحادثة الخارقة وقد كنا نهلك تحت عصا المداح: «الكلاب حرام علينا نسرقلو معزه يا

خوية. . . لكن ماذا تريد؟. . الطفولة هي الطفولة». قالها صاحبي بشيء من الخنوع والتزلف وقد كان في السابق طالباً في علوم الدين الحنيف.

ثم هناك قلاع الأسنان: لا يمكن أن تنساه. ولكم كنا منه نخاف. صدق رفيقي. أنا لم أنس ذاك الرجل حقاً. كان يلف رأسه في شاش أبيض ناصع البياض على تناقض مع بشرته السوداء ومع سمانة وجهه الكلثوم وكأنه على وشك الانشطار. فكان يجلس المريض على كرسي أعرج ويأخذ في إلقاء الدروس حول مرض الأسنان وكيفية وقايتها، متجاهلاً المريض المسكين وهو يرتعد خوفاً إذا ما رأى الزنجي مشهراً كلاباً براقاً لامعاً لماعاً. ثم ما أن ينتهي من توبيخ المتفرجين على عدم اعتنائهم بأسنانهم حتى يأمرهم بتوكيلهم إياه مأور أسنانهم وأفواههم المتعفنة، فيأخذ في الاستعواذ بالله وبرسوله وفي تبخير المكان ثم لا يلبث أن يدخل كلابه في فم المسكين ويأخذ في اقتلاع السن المسوس، دون التوقف عن العتاب واللوم والتهديد والغضب على من سولت له نفسه أن يهمل أسنانه. كنا نموت ذعراً ونحن نشاهده غارقاً في عملياته الرهيبة، فيما كان المريض لا يعرف هل عليه أن يهرب فيلوذ بالفرار أم يصمد فيقاوم بالجمود، هل يغشى عليه أم يتصندد. لكن هيهات أن يفعل شيئاً والصحراوي لا يزال ماسكاً برأسه شاداً، فاتحاً فمه بعنف وخشونة، فتجحظ عينا المريض ويبلل جبينه عرقٌ بارد وكأنه على وشك أن يفقد صبره

وبطولته وكأنه يود عض يد الزنجي الدجال الذي راح يبالغ ويتطاوس ويخط في الجمع الغفير: «راكم شهاد. وراس النبي محمد ما نقول غير الحق... ما تجيوش بعد فوات الأوان... راني نبهتكم.. بلاكم!» فيخجل القوم السّذج وتتخلل أوجههم مظاهر الحيرة والخيفة، ويطرقون رؤوسهم تحت وخز العار وفصاحة الطبيب الأسود الذي كان يسترسل في الكلام ويزيد من عندياته متضرعاً لله زارعاً الخوف في رؤوس المتحلقين حوله. ويحاول بعض الشجعان الاستهزاء بأقواله فيأخذ كل واحد في فحص فم الآخر ثم يقهقهون ملء أشداقهم استفزازاً وأنانية وقد كان الدجال يتفاعل التغافل، خشية أن تنقلب الأمور عليه فيخسر زبائنه ويفقد وقاره: «شوفوا يا سادة، يا كرام... هذا الرجل ترقب كثيراً وها هو الآن يأتي لمعالجة أسنانه، لكن فاتوا الوقت... وإني رايح نقلعلو كل أسنانه...» فيوافق الجميع بشراسة على هذا الحل فيما راح المريض يتخبط محاولاً الانفلات من قبضة الصحراوي هذا الرهيب فيتلعثم قائلاً: «لا، لا سيدي سعد... اتركني يرحم والديك... لا يا سيدي سعد...» لكن الرجل المسكين الدجال يرفض ولما يدفع المسكين أجرته له بعد... «أنا أذكى من الذيب واش رايح تلعبها بي... أواه»؛ وهو هكذا يضحك ويحرك المقلاع في فم الزبون فإنه يقلع الضرس المتعفن ويشهره أمام الملأ كله افتخاراً بنفسه وتعالياً. فيصفق له الجمهور بينما يأخذ المريض في الصراخ

والعويل، فيعطف الجمهور ويصفق له بدوره اعترافاً له بشجاعته ورباطة جأشه... كنا نهابه إلى حد لا يتصوره العقل وهو يتطاوس بيننا، على الرغم من أننا كلنا كنا نأخذ احتياطاتنا فلا نقف في الصف الأول، بل نترك المقدمة الأمامية للمتلصصين الآخرين وقد كنا نبقى في المؤخرة على أهبة الفرار والنجاة بالنفس إذا راودت المصحراوي فكرة اقتلاع أسناننا بحجة معاقبتنا على كثرة ما كنا نخرج ألسنتنا نكاية فيه. نقف وراء جمهرة الناس وأعصابنا متوترة وقلوبنا متراكضة وقد شاهدنا المسخ المقلوع وراح جذره يفوح رائحة كريهة على مدار عشرات الأمتار.

وهكذا فجأة تذكرت الصحراوي الآخر. فهل بدأت ذاكرتي بالتفتح شيئاً فشيئاً يا ترى؟ وهل تدفق في ذهني كل الانطباعات والأحاسيس والأهازيج السابقة، فأسترجع بالتالي توازني النفسي مستعيداً شعوري وإحساسي بالزمن وقد أمحى وفسخ واضمحل داخل عتمة قاتمة لا تطاق؟ «قد يكون، هذا ممكن جداً». كان رفيقي يردد ذلك فغمره الفرح وقد رآني أنفذ شيئاً فشيئاً نحو الوعي والتحكم في الأمور خاصة وأنه كان قد بذل جهداً جهيداً. فأخذ يداعبني ضارباً على كتفي معبراً عن ابتهاجه لهذه النتيجة الرائعة. لم يكن الصحراوي الآخر بائع الحشائش من سلالة الدجالين أمثال مقالع الأسنان الخبيث، بل بالعكس، كان لا ينطق بكلمة ملتفاً في وقاره وكرامته وتنسكه. كان قد حفظ غيباً وأصبح اختصاصياً ماهراً في علم الصيدلة التقليدية

والأقراباذينيات الأصلية. كان عالماً حقاً. كان يجلس متربعاً وسط خيمة صغيرة محاطاً بحشائشه وعقاقيره يقضي وقته في مطالعة المخطوطات القديمة. وكانت خيمته تعبق بالروائح الطيبة من جاوي وداد وشق وشيح وشب وكبريت وقرفة وزعتر وخزان وأفسنتين وزيزفون ونعناع وحشي وقنة وحلتيت وزعفران وزنجبيل وسكين جبير وحرباء مجففة وأسنان الذئبة وهياكل السلاحف وماء الزهر وسحيق الورد وماء الياسمين المقطر ومسك وعنبر إلخ.. لكنه توفي هذا المسكين. أخبرني بذلك رفيقي مستطرداً: «لقد مات أثناء حرب السبع سنوات وهو يصنع القنابل اليدوية للثوار.. لقد استشهد الرجل. كان كتوماً ولم يعلم بسره أحد». هل أعطي اسمه لأحد الشوارع في المدينة؟ قال صديقي إنه لا يعرف ذلك. يسكت برهة فينطلق من جديد: «لكن عدد الشهداء كبير لا يحصى يا عمي. ليس هناك ما يكفي من شوارع وأنهج وأزقة، لإعطاء كل منهم اسم شهيد.. أين أنت يا أخي.. فين سارح؟ لكن يا خسارة ما بقاو إلا الخونة وأثرياء الحرب.. كان نحكم واحد في زنقة والله ما نتركو حتى يكح بعض الدنانير.. على الأقل ثمن لترين شراب.. تحب تشرب معاي؟ لو كنت مكانك لاختطفتها فتاتك هذه. صدقني.. رايح ترجع بخفي حنين وصفر اليدين. أعترف أنك تريد اختطافها آه؟ إنك تموت حباً حتى أنسالك غرامك هذا.. ذكرياتنا المشتركة.. ذكرياتنا الطفولية الطويلة من نوعها..» كان يتطرق إلى موضوع ثم يتركه

ويستطرق دون منطق ولا دقة. لكنه كان على حق هو رفيقي ذاك الذي لا يشفي أبداً غليله من خمر وبيرة وكحول، أبداً.

كانت حبيبتي تلك التي فقدت أثرها على شاطىء البحر الصغير يوم أصابني الرعن من شدة الشمس وحدتها قادرة على الزياط والعياط لإغراء عمها إذا ما اقتربت منها. وهكذا تتركني وحيداً منعزلاً أتلوع والحسرة في قلبي وأنا في تجوال وترحال، ماسحاً شوارع المدينة كلها بعد أن أخذ مني التعب مأخذه وبدأت الحمى تجلف جسدي المنهوك، كاسحاً بطحاتها وساحاتها وقد بدأت أسترجع ذكرياتي رويداً رويداً وأتشبع تدريجياً من جو قسنطينة الخاص الذي ارتسم في تلافيف ذهني منذ سن المراهقة ولم أفتأ أجرجره ورائي حيثما حليت وحتى أثناء سنوات المنفى والمهجر (لكن حذار من الحنين. أمقط شيء في الدنيا هو الحنين ولوعته.. كم عشية قضيتها وأنا أتململ تحت سطوة الوطان والكآبة مكركراً ورائي السويداء فيساورني الكرب والأزل. وأنا أتجول في عواصم العالم كله.. إنه لشعور رهيب هذا الشعور. كانت سيلين تعاتبني آنذاك: «مجرد تمثيل.. لا حنين ولا حنية.. تريد تركي! لقد سئمت حبي وروحي وجسمي: فقط». كانت ترفل أبداً في حلل مزخرفة براقة. أما أنا فكنت أخشى في البداية تقديمها إلى أصدقائي لما كانت عليه من جمال باهر وجسم شبقي هفهاف... «يا رب.. يا حـ.. فيـ.. ظ.. أين

أ.. تيـ.. ت ببب بها... مهرة.. واش هاذ الصد..
ر.. يا.. لـ.. طيـ.. ف». قالها صديقي اللجلاج
وتمضي برهة من الزمن وإذا به يتخلص من تمتمته إذ راح
يخاطب سيلين: إنها صدمة انفعالية ليس إلا. «أليس لها
أخت أو بنت عم أو حتى خالة؟ أنت تعرف أن فخامة
النهود وراثية». عيل صبري أمام كل هذه التساؤلات
والتوسلات. وكنت على وشك صفعه صفعة.. لو لم يكن
الرجل من قريتي وكلانا غريبان في مدينة أجنبية... كنا
نجمع الأموال لتدعيم الثورة التحررية. وزادني الحنين
والشوق مسالمة وهدوء الأعصاب وبرودة الدم. العراك مع
اللجلاج مستحيل. فقررت الانصراف فأترك له سيلين،
اللّهم إذا كان قادراً على افتتانها واستقطاب عواطفها. ففي
هذه الفترة كانت الغيرة قد انفلتت مني فانهارت قواي
التناسلية، لكن سيلين كانت متشبثة بي كل التشبث.
عاشقة. ولهانة. عسى أن يظفر بها هذا اللجلاج فيعرف
كيف يتملق إليها ويتقرب منها ويبهرها، بخطاباته الغرامية.
أما أنا فكنت منهوك القوى، منتفش الضمير. كنت أود
العودة إلى قسنطينة حيث قضيت مراهقتي بعد أن كرهت
هذه الحياة وسئمت الغربة وتمكن اللجلاج في نهاية الأمر
من اجتذاب سيلين إليه واستلاب حبها...) وقد قضيتها
متنقلاً من عاصمة إلى أخرى ولم يعد بإمكاني الآن التميز
فيما بينها. لقد كان لي مقياس فريد من نوعه لتنسيق هذه
المدن الكبرى: لون حافلاتها العمومية. تحدثت لصديقي

عن هذه العينة المغربية وقد راح يبحث عن صديق يعيره بضع أوراق يدخل بموجبها إلى حانة ويسكر ما شاء الله أن يسكر إلى حد الشمول، فأجاب قائلاً مقهقهاً: «أواه، لو كنت مكانك لبوبتها حسب حاناتها وخماراتها. ميزيرية كحلة يا أخي... لا فلس ولا قطرة خمر... ولكن في الواقع لقد غادرتني رغبة الشرب... أريد البقاء معك... لكن تخلص من كآبتك هذه. يا الله خلصنا!». يسكت لحظات ثم يعيد الكرة في موضوع لون الحافلات وقد أذهله ذلك وشغل باله: «لكن كيف تعرف إذا صدف أن كانت الحافلات في مدينتين مختلفتين ذات اللون عينه؟ كيف تفرز بناتهم؟» فما كنت قد فكرت في الأمر حقاً. لقد كان كل شيء يختلط في ذهني. برشلونة... أمستردام... موسكو... لاحظت آنذاك أن ركاب الحافلات كانوا كئيبين حزينين وراء زجاجها ونوافذها. لم يكن رفيقي مقتنعاً وقد داخله الشك حول هذه القضية وراح يمسك رأسه، حذراً متشككاً. المختصر المفيد هو أنني لم أقابل سامية وقد أغلق عليها في دار عمها... دائماً يغلق عليها، أينما كانت. صارحت صديقي السكير متنياً على جمالها الفاقع. فيجيبني «فمن الطبيعي إذن أن يحرسها قومها ويغيرون على حرمتها... طبيعي يا سيدي، إنما المجنون هو أنت... اخطفها وإلا فسوف لا تحصل عليها قط». كان متأخراً عن عهدنا نحن ذاك الذي نعيش فيه. كنت أحلم بامتطاء القطار والعودة إلى حيث أتيت. عبثاً أحاول فلا أقدر ولا أتجرأ على ذلك

قط. كنت أخاف من أن تنتابني الندامة فيما بعد وآمل أن تفلت الحبيبة من قبضة عمها. لكن، في نفس الوقت، كان من المستحيل أن أتمادى في هذا الوضع أكثر مما فعلت.

وإذ أنا على هذه الحال في تخمامي وتهمامي كان رفيقي غارقاً في الكلام يتنقل من موضوع إلى موضوع، دون تمهيد ولا تقدمة، فحدثني عن الصراع الطبقي في المدينة. قال إن الطبقة الغنية فهمت ما يحاك حولها فأخذت توظف أموالها في الصناعة الغذائية سعياً وراء الأرباح السريعة... أما الصناعات الثقيلة فتتركها للدولة: فاهم يا أخي... هنالك تقاسم الأعمال لكن الخبثاء لا يترقبون إلا شيئاً واحداً ألا وهو إفلاس المؤسسات الصناعية ومن ورائها إفلاس الدولة نفسها، فتسلم لهم مقاليد الاقتصاد بكامله. أما أبناؤهم فقد انسلوا داخل هيكل الحكومة مقنعين وراء شهاداتهم واختصاصاتهم الفنية لكنهم لا يدافعون إلا عن مصالحهم ومصالح آبائهم... ما رأيك؟ يسكت ثم يستأنف حديثه: «ما اعليهم غير خربوا... ميزيرية كحلة يا خوية... لا فلس ولا قطرة خمر. احنا مغبونين وهما راكبين السيارات الفخمة... الـ Mercedes والـ .B.M.W ثم يجن جنونه ويستغيظ ويأخذ في شتم الأغنياء وأعضاء العصبة السريين (أ.ع.س.) والأئمة القضاة». «الرشوة يا أخي، هردتنا الرشوة... الأغنياء فهموا اللعبة، يعملوا ويكدوا ويربحوا الملاير... بالسكات... أما أنا فالس وما عندي حتى صديق يسلفني

شوية دراهم... كلهم بطالين». وفيما أنا أراه على هذه الحالة كانت تراودني فكرة التبرع له بما تبقى لدي من مال ولكن كيف أشتري ثمن العودة في القطار؟ لكنني لست مغفلاً وقد فهمت كل استطراداته هذه وتمويهاته فهو لا يبغي إلا إغرائي وإثارة شفقتي: «ميزيرية كحلة، يا خوية!».

وبعد التجول والتجوال عبر المدينة للمرة الألف عدنا إلى نقطة انطلاقنا: أي تحت نوافذ دار عم سامية. قال رفيقي وهو يسترق النظرة نحو النوافذ: «يا لها من قحبة!»، مما أثار غضبي وصرخت فيه قائلاً أنه إذا ما شتم سامية بمثل هذه الخشونة والفجور إنما تجاوز كل حدود اللباقة واللياقة. ولكنه رجل طيب ولعله أراد مداعبتي. فعدلت عن الغضب إذ الأمر لا يستحق مثل هذا الغيظ ومثل ردود الفعل هذه التافهة. وإذا بأقدامنا ترسو بنا في نهاية المطاف في ماخور حقير حيث قص علي قصة عمار بو.

كانت القحبة الهرمة قد انتابتها نزوة من الشهيق لفرط ما ضحكت وقد راح رفيقي يقص عليها قصة عمار بو. كان شريكي قد ثمل على أنه ما فقد الخبيث وعيه وإذا به يستغل الفرصة ويأخذ في تقبيل العاهر الهرمة على شفتيها اللحيمتين فيمتصهما مصاً تشمئز له الأحاسيس. ويجن جنونه فيأخذ في قرص ثدييها باحثاً عنهما خلال الفستان الفضفاض المقور على صدرها العاري وقد قززته رخاوتهما بعض الشيء. وما أن تغرق العجوز في القهقهة حتى يوشوش المتعربد في أذني مصرحاً أنه يذوب رغبة في مضاجعته إحدى المومسات الشابات بيد أنه طفران لا مال له يساعده ولا جرأة لتجاوز الشفقة التي كان يشعر بها نحو القحبة المسنة خاصة على حد قوله أنها كثيراً ما قدمت له يد المساعدة. يا له من كذاب. كان لا شك يكذب خشية تهكماتي اللاذعة. والواقع أن رفيقي كان مولعاً بالكذب وقد سمعت إشاعة تقول عنه إنه لم يشغل منصب مؤذن قط

وإنما اخترع هذه الخرافة بغية التمظهر، فيظهر في دور من ذهب ضحية التعصب الديني فيتسنى له أن يشن حملات ضارية ضد رجال الدين بلا ندامة ولا وخز ضمير. أما الآن وهو يمارس مثل هذه الممارسات القذرة مع هذه المرأة المسكينة فإنه يبالغ متجاوزاً حدود اللامعقول، خاصة وأن المومس كانت أشبه ما تكون بأنثى ضخمة نال العمر من جسمها وأتت عليها الشحمة والتورم والتضخم فكانت وهي تضحك تهز الجو هزاً وتزعزع المائدة التي كنا متحلقين حولها تزعزعاً فيما كان العازفون العميان لا يفتأون يكررون أغانيهم الحزينة. بيد أنني فهمت للوهلة الأولى أن صاحبي ما دخل في متاهة الغدر والمكر وفي تمثيل هذا الدور أمام العجوز إلا لاختلاسه جواهرها الرنانة المخشخشة. ولعله راح يقوم بعملية تقييم ثمنها. هل أحس بأنني كنت على علم بما كان يخالجه؟ فمما لا شك فيه أنه انصرف يرسل بغمزاته نحوي بكلتا عينيه وكأنه يود بعمله هذا إشراكي في الجريمة فأساعده على استفتان القحبة القليلة فيما استمر في مقارعة الخمر فكست مسامسه مسحة من الحزن الأبدي والعزلة العتيدة التي لا يمكن سكرة ولا إدمان أياً ما كان من محوها. لقد كان المسكين يهوى بسرعة فائقة في بوتقة الانتحار المعنوي وكأنه مهلوس بفكرة التدمير الذاتي التي ما كانت لتفارقه قط. كان يبغي الركون وسط السكر واللاوعي لما بلغ من تجاوز واختراق كل حدود اليأس والقنوط ومن عبور نحو المحيط الآخر

للامحدود. فلا فائدة إذن من تذكيره بأننا مفلسان وأننا لا نملك ولا سنتيماً واحداً أو من الاقتراح عليه حلاً يمكننا من دفع ثمن القوارير التي كان يتجرعها ويجرعها في الوقت نفسه وفي آن واحد، فإنه سيشتمني وينزل بي بوابل من الإهانات متهماً إياي بالجبن والخس. وقد كان الرجل منذ أن وطأنا الماخور هذا لا يتوقف عن التهكم ساخراً من الأسباب التي حملتني على الإتيان إليها وعلى إمساكي عن الشرب ومقارعة الخمر، فيؤول به الأمر إلى فضحي أمام المومس تلك التي كان يضرب على أكتافها فيحاول إدخالها في مؤامرة سعى لحياكتها ضدي، فهو يأبى أن يراني هكذا ممتنعاً عن الشرب ولو قطرة من الخمر لا لشيء إلا لغرام كنت قد سقطت فيه، ولإفشالي في ما بذلت من محاولات للاقتراب من الحبيبة. كان يتبجح ويتنافخ، صارماً في أحكامه، واثقاً من نفسه. وقد حرت في أمري فلا أعرف بالتدقيق ما الدافع الذي قادني إلى هنا. هل هو رغبتي في مقابلة سامية؟ أهو استرجاع انطباعاتي وذكرياتي اللذيذة القديمة التي بعثرتها في قسنطينة؟ علماً بأنني كثيراً ما كنت أتردد في إحساسي إزاء سامية.. هل أنا أحببتها حقاً؟ أم كنت أسعى لاستفزاز القبيلة وتحديها، تلك التي كانت تنتمي إليها وتسهر عليها فتحرسها وتفزع عليها من شطحات شخص عرف عنه أنه من حثالة القوم والمشوشين السياسيين الخطرين ومن محركي الضمائر وبائعي الغمة والحصرة وذلك في هذه الفترة من تاريخ البلاد وقد كان الفلاحون

الفقراء يجهلون الفلسفة كل الجهل، وكانوا بحاجة ماسة إلى ثورة اقتصادية وسياسية، أكثر منه إلى أي شيء آخر، توزع فيها الأراضي عليهم فيكون لهم دور ويكتسبون قيمة ووعياً يمكنهم من رد كل خبيث تسول له نفسه أن يحاول استغلالهم مثلما تستغل البيادق والأقزام والعرائس المتحركة والدمى الصامتة.

كانت العجوز معجبة بنفسها وقد خلبها رفيقي في وابل من الأقوال والمجاملات والتملق، ولذا ولهذا السبب فقط تسمح له بأن يعبث ويتلمس باحثاً بين طيات جسمها الهش الفاتر الدبق وتجاعيده، فتصرح له بأنها سقطت في حبه وأنه أصبح هو خطيبها ابتداء من هذا اليوم المشهود المبين. وإذا بالمرأة تفقد هي أيضاً بدورها توازنها ووعيها وتأخذ في مهاجمتي: «يا له من إنسان حزين صديقك هذا.. فسد علينا الجو. منين جبتو؟ جبنا النحس ووجه وجه صائم... هذا راح يولينا مفتي باش يغلط الشعب ويشربلو دمو.. صبه ينصرف يا عزيزي، يا خطيبي». ثم تأخذ في التحاس وجهه بلسانها القذر بدون التوقف عن مضغ علكة اللبان الأمريكي، فتنتفخ فيه من حين إلى آخر تتركه يتفرقع بين أسنانها بطريقة سوقية سفلية. إلا أنني رحت أواجهه بعنف قائلاً: «أغلق فمك يا حمار.. صبني أفكر في أمور السياسة والدولة.. وعمار بو ليس بالمحتال فهو نموذج رائع للوصولية التي ضربت أطنابها في هذه الأصقاع المسكينة.. أسكت يا ملعون». فبهتت المومس

وكفت عن الضحك وإذا بها فجأة تغني: «آه يا عمار بو الحيلة». وتصفق وتترنح. وسرعان ما تحلقت المومسات حولنا وأخذن يغنين بدورهن، فتضخمت المجموعة الصوتية وتعالت الأغنية: «آه يا عمار بو.. آه يا بو الحيلة..» وكان رفيقي يقود الجوقة بعدما راح العازفون يعزفون على وقع المجموعة. فتمكن النذل من خلق جو الفرح والمرح في مكان تعيس كهذا، خاصة وقد أصبح الآن رفيقي واثقاً من أنه سيتمكن من اختلاس إحدى جواهر المومس الهرمة فراح يزيد في السكر والتملق، فكاد يتقيأ من كثرة ما سطى عليه الغثيان والسأم والحزن ولا ينفك يمرر يديه مستمراً في عجن لحمة المرأة المتفايضة وتقبيل شفتيها المدهونتين بالأحمر المتراكم عليهما طبقات طبقات إلى حد أن أسنانها المسكينة قد تلطخت بمعجون الشفاه الأحمر.

لكن ما أن يتصاعد الضجيج ويصل إلى أوجه حتى تتدخل المعلمة متضرعة إلى رفيقي راجية منه أن يخفت صوته فيقلل ولو نتفاً من الصخب والضوضاء والفوضى. فيطيعها الخبيث الماكر بحيث يبرهن بطاقته على إرضاخ الجماعة لأوامره فيبدون وكأنهم رهن إشارته ومن ثم يعيد الكرة ويأخذ في إرواء حكاية عمار بو بتفاصيلها وما وقع له من أحداث غريبة وكيف بلغت شهرته إلى ذروتها وقد أصبح مضرباً للمثل ويعرفه الناس صغاراً وكباراً في جميع أنحاء البلاد فتجاوزت شهرته حدود هذه الأصقاع. وكنت أنا على علم بأن جحا وهو أبي المزعوم كان له دور في

اللعبة فساعد على انتشار هذه الحدوثة الجزائرية وهي أسطورة محضة وذلك بغية التشويش السياسي وإدخال البلبلة في رؤوس الساسة والطبقات الغنية وبغية استثارة الأمة أيضاً فتهزأ بمن يقودون البلاد ويدبرون أمورها. وما أن يأخذ في تكرار قصة عمار بو حتى تستأنف العجوز شهقاتها من فرط ما كانت تضحك مقهقهة فتشنشن جواهرها الثمينة تشنشناً.

(كان عمار بو قد احترف الحرف كلها مخفقاً في كل أعماله. كان أشقر الشعر والبشرة، مربع الجسم، هادىء الأعصاب إلى حد بعيد، فلا يرفع صوته قط ولا يعرف للغضب معنى: كان مسالماً أخونا. فلا يدمن على الشرب ولا على الخمور والنبيذ وعلى تعاطي المخدرات وإن هو أدمن على شيء فعلى مضغ التبغ ليس إلا، بشكل معتدل وبدون ما إفراط أو سرف. حاول القيام بمساعٍ عديدة ففشل في كل مساعيه ومطامعه وطموحاته. وكان منذ صغره يصبو إلى أن يصبح في يوم من الأيام ملاكماً شهيراً ولكنه أخفق فما كان لديه من الكفاءة والشكاسة والفظاظة ما يؤهله إلى الفوز فخسر كل ما أجرى من مناورات ولم يحصل إلا على غضبة الجمهور فيه فينزل وابلاً من الشتائم ويلوح بقبضته اغتياظاً ويهينه بشفاه مصفّراً، إضافة إلى أن أنصاره كانوا يشكون بنزاهته ظناً منهم أنه يرتشي على أن يسقط في الحلبة بالوقت المناسب. لقد أبى الشعب أن يمثله عمار بو معتبراً إياه دمية بين أيدي المستغلين، بل هم الشعب كل همه مقتصر على مطالبته ببطل تتمثل فيه القضية الوطنية

فيقبل على تحدي أكبر ملاكمي فرنسا الذين يرى الشعب فيهم أناساً يفتقرون فيما يفتقرون إلى الشجاعة والبطش والإقدام. أما الحقيقة فهي أن الملاكمة في أصقاعنا كانت تجتاز في تلك الفترة أزمة كبيرة إذ آثر خيرة هذه الرياضة الهجرة إلى أوروبا فيسيطرون على الوضع هناك ويتحصلون على أنواع من ألقاب البطولة، على ما كان المستعمر عليه من طغي وسلطة قاهرة. ولم يكن عمار بو ليملك أية براعة أو قدرة في هذا المجال فكان ينهزم أمام أي قزم من أية قرية من القرى المجاورة. وما لبث أن فهم الرجل بأنه ليس له أي حظ في أن ينجح على الرغم مما أبدى المناضلون الوطنيون تجاهه من تشجيعات ومساندة وكانوا قد وضعوا فيه كل ثقتهم في بادىء الأمر. وإذا بسوقه كملاكم يكسد فما كان منه أن انتقل إلى قرية أخرى فزاول التمثيل وانخرط كممثل في إحدى فرق للهواة مقابل السماح له بالنوم في المكان الذي كانت الفرقة تتدرب فيه. وكانت فرقة «النجاح»، وقد سميت بهذا الاسم تطيراً وشعوذة، كانت تفتقر بصورة ماسة إلى ممثلات، مما اضطر الشبان إلى أن يقوموا بالأدوار النسائية، فقد كانوا يتنكرون بلباس النساء لتأدية دورهم. فانتهى الأمر بعمار بو إلى أنه عيل صبره من قيامه بأدوار النساء فاستغل شهرته كملاكم قديم وأنفه الأفطس وشعره الناري وراح يتردد على المواخير بغية إغراء بعض المومسات فيحملهن على الانخراط في فرقة «النجاح» هذه. فما كان منه أن عاد إلى القرية في يوم من

الأيام بصحبة ثلاث نساء نافرات محجوبات فأدخلن الهلع والاضطراب في صفوف أفراد الفرقة المسالمين. وإذا بعمار بو يكتسب سلطة ونفوذاً كبيرين فعين بالإجماع مديراً للفرقة خاصة وأن عدد المتفرجين تضاعف وتضخم تضخماً لمجرد مثول الفتيات الثلاث على خشبة المسرح. فكان النجاح حليف الفرقة منذ ذلك اليوم على أنهن ما لبثن أن تركن الواحدة تلو الأخرى المجموعة المسرحية بعد أن سقطن في شراك أحد الفلاحين الأغنياء فآثرن الالتحاق به عوضاً عن أن يمتن جوعاً وفاقة في سبيل الفن والإبداع والتمثيل. وهكذا فقد فشل مشروع عمار بو مرة أخرى فلم يسانده الحظ مما أدى إلى تشتت الفرقة المسرحية بضع سنوات فقط قبل اندلاع حرب التحرير. فيقرر البطل الأسطوري فتح حانوت يبيع فيه الفحم فساعدته شهرته كملاكم وممثل ومدير للفرقة التمثيلية الآنف ذكرها على جلب أغلبية الشبيبة البطالة التائهة لتعاطيه قراءة الكتب الفلسفية والصحف السياسية فكان رأيه مسموعاً واسمه محترماً على ما كان عليه من فقر مدقع وطاقة نسلية كبرى (كان له ولما يبلغ الخامسة والثلاثين من العمر عائلة كبيرة تتألف من عشرة أولاد يتضورون جوعاً وامرأة شرسة تلاحقه باللوم منددة بماضيه كملاكم وممثل فاشل)، وتذبذبه كشخص يتعاطى السياسة على الطريقة العصامية. وإن كان يبيع القليل من الفحم فقد كان يتقن إذاعة الشائعات وتوزيع الجرائد الآتية من العاصمة، ويهزأ بمرارة بكل الأمور على اختلاف

أنواعها. أما نكساته الثلاث (الملاكمة والمسرح والزواج) فلم تؤثر فيه كثيراً ولم تحمض مزاجه إطلاقاً. بل كان وفياً لنظريته الفلسفية وقوامها القصور الذاتي وعدم القيام بأي حركة فيبدو وكأنه يترقب حدوث شيء ما لا محالة آت من شأنه أن يغير حياته تغييراً جذرياً، فما كان يتكلم عن هذا الموضوع إلا القليل، فيكون له بمثابة رجاء ينيره في القلب ويسدي على وجهه مسحة من التصوف رائعة. أما عن سمعته فقد كانت رديئة كل الرداءة، فلا يوجد هنالك زبون واحد يدخل حانوته المعتم ليشتري الفحم من عنده لما كانت تغص من حثالة المتواجدين هناك وقد استقروا في هذا المكان معتبرينه مسكناً لهم إذ كانوا على جانب من الفقر لا يسمح لهم بامتلاك حتى بعض الفلوس تمكنهم من قضاء لياليهم في الحمامات. فقد كان الفحام يتعاطف مع الناس جميعاً: فهناك المناضل الذي أطلق سراحه من السجن لفترة قصيرة من الزمن فيستضيفه مزوداً إياه بالنصائح مردداً عليه كم هو يكره العنف طالباً منه العودة إلى سبيل المسالمة والهداية إلى السلام، وهناك الشرطي والواشي فيلح عليهما معاملة المناضلين الذين يتولون حراستهم بكل لطف ووداعة وتفهم. يا للقلب الطيب قلب عمار بو.. هذا.

أما رفيقي المتعربد فقد كان يرفض ما يقوم به عمار بو من تصرفات فكان يردد: ولماذا احتفظ هذا الغبي بأبنائه العشرة؟ يا له من أبله. كان عليه بتسليمهم إلى دار من

الدور الخيرية أو إلى أحد الأغنياء الذين يشكون من العقم.. ولا غرو فقد كان رفيقي الخبيث قد طلق زوجته وسلم أولاده إلى مؤسسة خيرية عامة وقرر اللجوء إلى كوخ أمه الحقير. وكانت المومس تطأطىء رأسها وهو يتبجح بمثل هذه الأقاويل السيئة فتغرق في القهقهة والضحكة العريضة. فكانت من حين إلى آخر تنصرف مع أحد الزبائن ولكنها سرعان ما تعود تجالسنا حتى إذا ما غابت فلم يسمح رفيقي لأحد بالتبوء على كرسي المرأة العجوز. ولولا تدخلي لكاد أحد الزبائن يسحقه سحقاً على ما كان عليه هذا المجنون من هزالة في جسمه وسل في صدره فقد كان يهصهص ويضغط على قبضته العظميتين فبدا وكأنه جرو يود التهام فهد. وما أن تعود المومس حتى يواصل إرواء حكاية أسطورة عمار بو ناسياً أنه وعدني أن يقصها علي بمفردي شريطة أن أصطحبه إلى هذا المكان الدنيء. وها هو الآن يتملق ويتغابى ويتحلى ويتغنج وقد أدهشته روعة جواهر المرأة المسكينة مصرحاً لها أنه لم ير قط في حياته أجمل من معصميها الرشيقين الرهيفين كمالاً، علماً بأنه كان يتقزز في الحقيقة من جسمها المترهل السمين فلا رغبة له إلا في الابتعاد عنها بأسرع ما يمكن إلى ذلك سبيلاً. وإذا بها تتدلل بدورها وتتسايل لعاباً وعرقاً من شدة ما تشعر به من فرح ولذة ونشوة، وهي على هذه الحالة فقد كانت تحمل في أصابعها عشرات الخواتم وتتغايض في فساتينها القبيحة المتعددة المتنوعة ذات اللون الوردي

والمخمل الحريري. تسمع ما يروي صديقي من خرافات فتغرق في الضحك مقهقهة أكثر من المومسات الأخريات وإذا بصديقي يطلق العنان إلى خياله خاصة وأنه واثق الآن بأنه سوف ينهي ليلته هنا في مقارعة الخمر والعربدة دون أن يدفع درهماً مقابل الخدمات التي قدمت له، إذ راحت العجوز تقسم أنها سوف لن تتركه يدفع ولو فلساً واحداً للمعلمة، معلنة أنه نزل عليها ضيفاً وأنها على علم بحالته المادية وما يعاني منه من بطالة وأحوال متردية. الأمر الذي يحمله على المزيد من العنجهية فيقسم هو أيضاً بدوره أنه لا يمكنه قط القبول بهذا السخاء وأن شرفه هو أرفع من أن يسمح له بأن تستضيفه امرأة قط. معلناً أنه لو تركها تفعل ما تنوي فعله ولو قبل هو بدعوتها لأصبح موضوع استهزاء المدينة كلها ومهزلة لها. لا شك أن الرجل قد جن الآن ففقد ما تبقى له من العقل وأوغل في المغالاة. على أنه وإن فعل فقد كان واثقاً من نفسه. فلا رغبة له في الواقع سوى حملها على أن تدس في يده خلسة ورقة مالية ذات قيمة، فيتمكن من التظاهر أمام الآخرين بأنه دفع الثمن وسدد الفاتورة محتفظاً بما تبقى من المال فيتمكن من تناول الخمر في حانة أخرى من الحوانيت في الغد. وكأنها فطنت ما وراء الكلام فرضخت إليه. وجعل هو يزيد فيبالغ ويغالي، طارحاً شروطه، مقسماً بتجريعها الخمرة حتى تثمل، ضارباً على ظهرها، معتبراً إياها مهرة جموحة أو بقرة حلوباً. وما لبث أن تطرق إلى حياتي فاضحاً

أسراري، معلناً على الملأ بأنني أمارس الكتابة (يا صاحب القلم! يا كتباني!) وهذا سر أخذت أمارسه بعد أن سئمت تعليم الفلسفة. فما كان من المومس أن غيرت موقفها مني لتوها فتجردت عن عداوتها وراحت تلاطفني. فلاحظت إذاك أنها كانت تسترق النظر إلي، فما عتم أن مدت يدها طارحة إياها على الطاولة راجية أن أقرأ لها ما توحي خطوط يدها به، ظناً منها أنني عراف أو ضارب رمل أو عالم فلك. وكالمعتاد فإن من مميزات الفلسفة أن تؤدي بصاحبها إلى كل المصائب. فأبيت رافضاً مما جعلها تؤنبني موبخة: «وماذا تفعل بفلسفتك هذه لاش تصلحلك إذا ما تعرف تقرأ الغيب والمستقبل؟ أحسن أن تنتحر أو تستقيل. يا لك من دجال». وأخذت تتفرس فيّ بغطرسة واحتقار مترفعة ساحقة إياي بضخامتها، فيقل نفسها وتتحمض نكهتها.. وإذا بي أفقد رباطة جأشي ولم أعد أعرف كيف أتصرف. فيستغلها رفيقي فرصة ليطلق العنان إلى فرحته: «تستاهل. اشه فيك.. واش حسبْ روحك؟ حسبتا بق يزغد وإلا كيفاش.. خلينا يا راجل من شهائدك وغرامياتك وثورتك وعقلك اللي أنسى كل شيء اللي جرى في هاذ المدينة وقت ما كنا صغار، نمشيو ونجيو ونلعب ونضحك.. كاش حاجة من درنهاش؟ خليك يا راجل: لا تشرب، ولا تسكر، لا تشخر.. وعاشق سيدي. علا بالكم يا جماعة.. الراجل عاشق.. ما ألقى ما يعشق غير بنت صغير، بنت حسب ونسب.. هيا براكة ما تخز.. اقرأ

الغايب على يدين السيدة المحترمة.. كسرتنا روسنا ودوختنا..». ولا ينفك وهو يهصهص هازئاً بي من التأشير إليّ خلسة غامزاً لامساً قدمي تحت المائدة غامزاً بعينه اليسرى، فلم أعد بإمكاني معرفة ما صنع بالعين اليمنى وقد عرفته عفريتاً ومنجماً قادراً على الإقبال على الخوارق والمعجزات، وها هو الآن قد نسي أنني به التقيت في محطة القطار مكرراً سأمه وسويداءه وأنا في طريقي إلى المدينة فأحل بها دونما سابق إنذار وقد كان يحسبني ميتاً قد استشهدت في حرب السبع سنوات أو تحصلت على منصب وزير أو مدير ديوان وزاري ما، فلا يصدق نفسه وهو يراني نازلاً من القطار في حين كان يحسبني لا أسافر إلا ممتطياً طائرتي الخاصة أو طائرة عامودية نظير الأطر العليا جميعاً، الإدارية منها والسياسية إذا ما جاءت في زيارة رسمية إلى المدينة بغية حل مشاكل الشعب والتقصي في أحواله على جناح السرعة، لا هم لها سوى العودة مسرعة إلى العاصمة، وكلهم يتظاهرون بتكاثر الأعمال المتراكمة والرزح تحت أعبائها شاكين من الأعياء من فرط ما يقضون من الوقت والسهر على الملفات والدراسات، فيتقمصون بأزياء وهيهات أن يتمكن المرء من الاستعاضة عنهم فلا نظير لهم ولا من يضارعهم. وإذا بي أصل وكأنني من السماء عليه نازل فأعيره من المال ما لا ينتظر وأنقذه من العطش الأزلي بما إليه يفتقر وأقص عليه ـ باحتشام ـ أنني لم أكن إلا مجرد أستاذ بسيط يعمر

ويحاضر في إحدى ثانويات للبنات بالعاصمة، وبعيداً عن الدوائر الحكومية، أستقر بعيداً بعد الأرض عن السماء والقبة الزرقاء. فيهش مرحباً بي رفيق الطفولة متأهلاً مهللاً مثنياً على ما في لقائنا هذا المفاجئ من نزاهة وبراءة وإخلاص. فيغتاظ لعدم نجاحي في الدرجات الاجتماعية وعدم تسلقي سلم الترقي المهني في جمهوريتنا الديمقراطية تلك، مطرقاً إلى الأرض تحت وطأة الشمس المحرقة، واقفاً على حافة الطريق والشارع الكبير حيث به تبدأ محطة القطار وتنتهي به المدينة المشهورة بوهدها العميق رافضاً تصديق عينيه مفركاً أجفانه مسائلاً نفسه. وإني لا أفهم الآن كيف يسمح لنفسه بأن يستفزني متحدياً أحاسيسي، وما ذلك إلا مجاملة لمومس في آخر عهدها أكل الدهر عليها وشرب، عليها مرت عربة الزمن، فتظهر منقرصة العضلات والأطراف، مقروحة الساقين وقد تآكلتهما الدوالي التي تخفيها تحت فساتينها العريضة الطويلة. وما أن يستفيق رفيقي هذا الداهية من غفوته الجنونية، يفهم كم أنه تمادى في الكلام وما سبب لي من إهانة وإذلال ومخادعة فجعلني غائصاً في بحر من الحيرة مندهشاً، حتى يبدأ الندم بالدبدبة إلى ضميره شيئاً فشيئاً، مما دفعه إلى الوشوشة في أذني هامساً فيصارحني بأن ذلك جزء من المؤامرة التي يحيكها ضد العجوز فيستولي على حليها وجواهرها، محاولاً ما باستطاعته إلى إرضائي سبيلاً. فيعود إلى سرد حكاية عمار بو الفحام ذي العشرة أولاد بالتمام، وكيف صعد أوج

المجد وقمة الجاه في الرأي العام، متسلقاً سلم الشهرة بسرعة يصعب تصديقها في سيره قدماً نحو الأمام. يقص ويحكي، وعلى طريقة المداحين يروي، أولئك الذين عن اسم الخرافة قبل البدء بها يعلنون وبهذا، عدداً كبيراً من المستمعين لهم يجذبون فيأتون يتفرجون وإلى دجال أو ساحر أو مقلع أسنان أو بائع حشائش يستمعون.

(كان عمار بو هذا لا يتوانى عن استقبال كل الناس في حانوته فيقدم لهم الشاي المنعنع، وأبى أن يرفض أحداً أو يعارض في شيء أو يتصدى لأمر. وقد اقتصر همه كله في تقديم النصائح وفسح المجال أمام الناس يفعلون ما يشاؤون. فيسمح بالتالي للمناضلين بالاجتماع في دكانه معاً والعمل على تخطيط المؤامرات وتحرير المنشورات والخطابات الموجهة للشعب، ولطالما كان الشعب ينتظر مترقباً انطلاق الثورة المسلحة واندلاع نارها المؤججة. كما كان يسمح للشرطيين والواشين على السواء من ممارسة تجسسهم المذل الدنيء على الناس وقيامهم بقمع الانتفاضات، ويا له من عمل شنيع بذيء. وقد كان هو يردد باستمرار على مسامع الناس بأنه هو صديق كل الناس. أما المواطنون الوطنيون فقد كانوا يقفون منه متحذرين وعلى أهبة التخلص منه ذبحاً أو رمياً بالرصاص. وإذا بشهرة عمار بو شيئاً فشيئاً تتجاوز دوائر الفقراء والبطالين فتصل إلى مسامع أبناء الأغنياء المثريين فجاؤوا يقتحمون دكانه بغية التسفل ومعاشرة الأوباش وإعلان

تضامنهم معهم، يتكتلون جميعاً لمناوأة السلطات الاستعمارية التي كانت تضاعف من حساسيتها فتزيد إفراطاً كلما اقتربت بداية الثورة العارمة. فينخرط القليل من أولئك الشبان الأثرياء في صفوف المناضلين، ينضمون إلى الخلايا السرية ويعتصمون في دكان الفحام حيث كانوا يرتعون في أمان بعيدين عن ضرر الشرطة التي جعلت من هذا المكان مقر تجسسها المفضل على صعيد القرية، فتغافلت عنه وتركت الأمور على ما هي عليه، فيتمكن وشاتها من القيام بمهامهم فيكونون على إلمام بما ينشر من أخبار وما يحاك من أسرار. أما عائلة الملاكم القديم فقد ازداد فقرها: فكانت لا تنفك شاكية من البؤس والحرمان. فراح عمار بو يشكو من كساد التجارة ورداءة الأحوال الاقتصادية فحاول التحصل على تعويضات ذات قيمة من السلطات الاستعمارية بحجة أن دكانه صار ملجأ للجميع، العساكر منهم والشرطيين والواشيين، وعبثاً حاول. فقد كانت السلطات الغاشمة نفسها تشك فيه معتبرة إياه رئيس إحدى الخلايا العسكرية متقنعاً بقناع السذاجة والمسالمة البريئة. وقد كانت في ذلك على خطأ، الأمر الذي حدا بعمار بو أن يغضب معلناً اغتياظه من مثل نكران الجميل هذا الفادح. وعندما صمم على الانتقام من الأجانب فراح يسائل نفسه في إمكانية الانخراط في صفوف الثورة عارضاً خدماته على المناضلين على أن هؤلاء لم يرتاحوا إليه بل هزأوا به ساخرين منه مستهزئين. فاستقر رأيه على اتخاذ موقف

محايد. وراح إذاك يسبح في المياه العكرة. مما جعل جميع الأطراف يرفضون المعاملة معه بجدية، واحتقره أغلبية القوم الذين كانوا في دكانه مدكوكين حيث كانوا يلجأون بغية قراءة الجرائد والصحف مجاناً وكتابة الرسائل للأميين وتدبيج جوابات الغرّام من قبل التلاميذ المطرودين من المدارس لأسباب عديدة منها السياسية ومنها التقاعس عن الدرس والهروب منه. وما كانت الحركة داخل الدكان لتخف بل كانت حركة دائمة ليلاً نهاراً حتى أن شهرة عمار بو الفحام الشحام ازدادت انتشاراً فتجاوزت حدود القرية الضيقة فعمت القرى المجاورة الموزعة ما بين سطيف وسوق أهراس..).

وكان الشعب كله على علم بأسطورة عمار بو وقد تمكن الرجل من اجتذاب عاطفة الجماهير التي أعجبها دهاؤه وأضحكتها سذاجته معاً، وقد كان الناسك الأكبر يتضايق من هذه الحكاية فيرفض للمداحين أن يعملوا على استغلالها وقد راحوا يقصونها ويحرفونها مضخمين تفاصيلها بعض الشيء، لا لشيء إلا لتجنب غضب أعضاء العصابة السريين وعواقبها (أ.ع.س.) أولئك الذين قيل عنهم على حد قول جحا الملقب بسليمان الحيلة (هل هو أبي أم لا؟) إنهم كانوا متواجدين داخل حلقات المداحين يتنكرون بأقنعة المتسولين العميان والمتفرجين الحفيان وحتى المداحين أنفسهم: «اسمعوا وعوا، يا سادة يا كرام، يا أطيب خلق الله. هذه حكاية ارتقاء عمار بو بسرعة هائلة لا يمكن

المرء تصديقها.. فمن فحام بسيط أصبح مقلة من مقلات الجمهورية الديمقراطية العظيمة، لما كان عليه من حيلة واسعة وتفاؤل وآمال عالية مما انتهى به الأمر إلى محاولة قلب النظام هو الأحمق للاستيلاء على السلطة والتربع على عرش النفوذ والمال والجاه. وقد ساعده على ذلك بعض الشركاء المجرمين الموهومين.. اسمعوا يا قوم وعوا. كان يا ما كان في هذا الزمان، راجل اسمه عمار بو في الدكان، يكره بالأخص جحا وصديق ابنه السكير الشهير، ابن الكافر العاهر، اللي كان في قديم الزمان يؤذن.. اسمعوا يا سادة يا كرام، الله يحفظكم طال بقاؤكم ومن البلية يحفظنا أجمعين، آمين اسمعوا ما أصرا وأطرا لعمار بو..».

وكانت جمهرة المتفرجين حول المداح تتزاحم وقد هيمن السكوت على الجميع لما كان في الأمر من صبغة مدهشة وفي القضية من صيغة مذهلة، يتزاحم الناس بغية الاستماع إلى الحكاية والتعرف على تفاصيل المؤامرة التي حاكها عمار بو للأخذ بزمام الأمور والسطوة على الحكم بقوة السلاح. وكيف فعل؟ وإذا بالصمت يسود السامعين. فيماطل المداح إذاك وفي سرده الأمور لا يتسرع فيزيد من أساليب التشويق والقوم على أحر من الجمر واقفون، فيقرع على الطبل طيلة دقائق تبدو طويلة طويلة لا نهاية لها، وأحد لا يجرؤ على الاحتجاج. وإذا به يتطاوس، فيبدو ثابت الأعصاب، والطبلة بين يديه تدور بمهارة مذهلة:

فيظن الناس أنه على وشك البداية في قص أسطورة عمار بو وإذا بالشيخ يغوص في مدح المتفرجين وما هم عليه من كرم أخلاق وسخاء يد، فيطالب الجميع وضع فلسهم في شاشية الولد المكلف بهذه المهمة. ويعود المداح إلى سرد عنوان الحكاية للمرة الألف: «اسمعوا وعوا، يا أطيب ما خلق الله، يا ناس. إذا كان كذبت الله ينحيلي الضو من العنين وإذا كان زدت الله يعطيني الكلب والجرب الأجل والأجل. هاذي حكاية عمار بو وكيفاش وصل إلى قمة الحكم يا بو، بعدما كان فحاماً بسيطاً وهذا بذكائه وحيلته ودهاء عظيم، فحب يعمل انقلاب على رئيس الجمهورية الديمقراطية الجديدة عمار بو، وبعد يفرق الدراهم والمناصب للصحابو وابنين عمو، عمار بو..».

وكان في إمكان المداح أن يستمر في اللف والدوران وكان بارعاً في التكرار والتعداد وإعادة القصة طيلة الصبيحة كلها، وقد عمل على سلب الشعب المسكين من آخر فلسه الفقير، قبل البدء في سرد القصة بكثير. فمن المستحيل أن يغير موقفه، فهو يكرر ويكرر المدخل المعهود وقد مله الناس بعد أن سمعه تكراراً ومدراراً: «اسمعوا وعوا، يا من حظيتم بأكرم المرسلين يا مسلمين. ما تقولوش هاذ المداح حب يسرقنا فلوسنا والقروش، لكن المسألة خطيرة وراكم رايحين تدخلوا في الحظيرة في أسرار الدولة في الآخرة والأولى وعظماء هذا البلد الميمون من قبل الرب والرسول يا مؤمنين. إذا شفتو بلي حكايتي ما تسواش

المال اللي صدقتوه علي أنتم، أنا مستعد إرجاعه كله لكم، لكن بشرط ما تبقاوش في الحلقة وتذهبوا من وجهي وتخليو الاتساع». ولم يكن الشيخ يخشى أن يتجرأ أحد على استرجاع ماله، فالقوم كانوا متطيرين، يخافون من لعنة المداحين. كما كان يصعب على المرء أن يعدل عن استماع واقعة عمار بو، بالإضافة إلى أن هذا المداح كان أمهر المداحين جميعاً، فيملك من الكلام ما فيه من الفصاحة والغزارة والفظاظة الخارقة. إذن أحد لم يتحرك، كما لم يتحرك أولئك المتسكعون الكافرون الذين جلسوا في الحلقة لمجرد عرقلة المداح وطرح الأسئلة الخبيثة عليه وإرباكه وجعله يتلعثم ويرتبك فيدخلون إذاك الاضطراب في ذاكرته ويذهبون إلى التهكم عليه علنية وفي وجه هذا الجمع الغفير من المنصتين بشراهة ولهفة والميالين إلى مثل هذه القصص الممتعة اللذيذة. إذن لم يجرؤ أحد على مطالبة المداح باسترجاع قروشه. ولا حتى أعضاء (الأ.ع.س.) الذين هم على أهبة الاستعداد للتدخل لمجرد أتفه وأبسط التلويح بالحالة السياسية السائدة في الأصقاع. ولا أحد غيرهم يقدر على مضايقة الشيخ، فالحكاية هي على جانب كبير من التشويق. فبدأت شهرة عمار بو تفوق شهرة جحا نفسه وهو أب ذاك العلامة المعتوه الذي جاء إلى المدينة للالتحاق بتلميذة جميلة فيلاحقها بتوسلاته وتصريحاته الغرامية. والبنت هي من عائلة شريفة وعمها من وجهاء المدينة. فقد رأى الناس ذلك المعتوه متجولاً ماسحاً

الشوارع طولاً وعرضاً، مرهق الجسم، محموم الرأس ساقطاً في ثرثرة لا نهاية لها تارة وفي صمت عميق طوراً، فلا يفارق صاحبه السكير ذاك الذي كان قد شغل منصب. . .

(وكان عمار بو أثناء حرب السبع سنوات يتحيل بغية الحصول على رخصة المرور من كلا الطرفين المتقاتلين. كان الثوار على علم بأنه لا يشكل أي خطر على أمنهم، فيما ظن الجيش الأجنبي أنه قد يكون في يوم من الأيام مفاوضاً شرعياً. فكان هو يحتال على كل الناس فيغش الجميع معتصماً بحياده. وانتهى به الأمر إلى القيام ببعض الأعمال التجارية فربح من المال ما يكفي سد رمقه لا أكثر ولا أقل. فقد كان يخاف من أن يشوش المال الكثير راحة باله فينغص عليه حياته المتكاسلة. وإن تحسنت حالته المادية فلم يوقعه ذلك في الغرور، إلا أن زوجته مالت إلى التباهي بذاتها فغالت وولدت توأمين دفعة واحدة، وعاودت الكرة في السنة التالية. وكانت تقول لجارتها متبجحة: «لقد أصبح عمار بو الآن غنياً، ولذا لا بد من التمتع بهذا المن فيتمتع به أكثر ما أمكن من الأولاد. .». أما زوجها فما كان يتدخل في شؤونها بل يتركها تتصرف كما تشاء فلا يطالبها إلا بتجنب الصراخ، ولذا كان يتغافل عن خصوبتها الجنونية هذه. فالأصقاع في حاجة ماسة إلى أطفال وقد أخذت الجيوش الأجنبية تقوم بعمليات الإبادة والتذبيح والتعذيب وهي تنتشر على سفح الجبال، تمشط كل بقعة

وغابة، وكل سهل ومرتفع، فتحاول العثور على أصدقاء عمار بو وما كان هذا يعيرهم كثير اهتمام بل أصبحوا الآن ثواراً بسلاء ومحافظين سياسيين أكفاء. لكن بائع الفحم والشحم القديم قد أصبح اليوم أباً لأربعة عشر ابناً، ولم يجرؤ على مواجهة زوجته في موضوع التوأمين، على أن امرأته كانت تشجعه على الإثراء أكثر فأكثر وعلى التعامل مع كلا الطرفين، وهكذا وبالرغم من نفوره الطبيعي من الحركة المفرطة؛ ومن الإفراط في العمل انتهى به الأمر إلى شراء ضيع الملاكين الكبار الذين لاذوا بالفرار فالتجأوا إلى تونس، بعد أن تغير مزاجه تماماً).

«اسمعوا وعوا، يا صالحين يا عشاق السلام الله يلعن الشيطان والقبطان. ما تضحكوش يا سادة يا كرام، حكاية عمار بو ومغامراته الشنيعة ما هيش حاجة تفيهة... الراجل ولا وزير وهدد البلاد بانقلاب وإصعاد الزير من البير. ما تكسروش روسكم وحلو عنيكم وافتحوا وذنيكم وخليوها وين زرعها رب العالمين.. ما تخافون.. ما ادخوش. ما تستعجلوش. النهار ما زال طويل والمدفع اللي يعلن على الإفطار ما زال ما يضربش.. واشفقوا على صايم شاح ريقو وراح عقيقو ويبس شويقو من حر الشمس.. عاونوني على هم الزمان وعر المكان ووضعوا دريهمات أخرى في شاشية هاذ اليتيم.. نظفوا جيوبكم من الدراهم! طهروا نفوسكم يا عباد الله وتوبوا، أنا مداح ومنيش مرتاح وولادي كالدجاج.. واتبرعوا علي برزق ربي.. وفيما بعد

نحكيلكم كيفاش اعمل عمار بو باش وصل للقمرة وعاد ما يخالط غير المقلة وأصبح مستشار عند سيدنا الناسك الأكبر المدرار، الله يطول حكمو وينجي الكرام من الحرام..».
لكن الجمهور بدأ يسأم هذا التكرار وبخل المداح وتهافته على المال. هلا يغضب الجمهور فيمزقه إرباً إرباً؟ لا، لم يكن ذلك إلا بعد نهاية الحكاية. كان الولد المكلف بجمع الصدقات يقطب الجبين ويعبس في وجه المتمردين الذين لا يتبرعون ببعض القطع من النقود فيوشي بهم إلى المداح. فيغضب هذا عليهم ويطردهم مهدداً إياهم بعصاه الغليظة غير آبه بفقرهم وبحالة البطالة التي يئنون تحتها. وبالرغم من إفراغ جيوبهم وقلب قلنسوات برانسهم للبرهنة عن عدم وجود أي قرش لهم فما كان ليرضى معهم علاوة على أن المتفرجين الآخرين كانوا يضجرون من تضييع هذا الوقت الثمين فينهالون عليهم بالشتائم ينهرونهم ولا يعود المداح إلى قصته إلا بعد انعتاقه من المتسكعين الفقراء البطالين. فيمضون هاربين والأطفال من ورائهم راكضين يرجمونهم بالحجارة مطاردين إياهم إلى حدود المدينة الجديدة.

وقد كان صديقي غارقاً في الشرب مستمراً في مقارعة الخمر. لقد كان هو سابقاً ممن كانوا يترددون على دكان عمار بو حيث كان يتسنى لكل شخص أياً كان أن يقضي فيه ليلته ويقرأ مجاناً جميع الصحف الواصلة من العاصمة على متن قطار الثانية عشرة. كان إذن مدمناً على الشرب في ذلك الماخور التعيس، بيد أن الكآبة التي كان يخفيها

في طيات قلبه وتلافيف مخه ها هي ذا قد بزغت الآن فطفت على سطح عينيه الصافيتين البريئتين. وها هو يجهش في البكاء واضعاً رأسه في حضن العاهر العجوز وهي تحاول ما بوسعها للتخفيف من كآبته ومن وطأتها عليه: «لا تطلب أمك فأنا أعوضها..» إلا أنه راح يشهق غارقاً في البكاء مصعداً عويله فلا يكف عن طلب المزيد من الخمر. وما كان له من القدرة على تناول الكأس من فرط ما كانت يداه ترتعش، فجعلت العجوز تصب له في فمه الخمر مباشرة من فم الزجاجة، يختلط النبيذ بالدموع والعرق والريق. وكان وهو على هذه الحال لا يفتأ يطلب المغفرة ويعتذر لكل الأشخاص الحاضرين. وسرعان ما استولى علي الذعر ففزعت عليه أن ينتهي به الأمر إلى الاعتراف بنواياه السيئة وبما صمم عليه في اختلاس الجواهر وهي جل ما تملكه فتتمكن من أن تؤمن بها العيش إذا ما طردت من هذه الدار حيث تتدفق عليها الصبايا اللائي لما يصلن بعد إلى سن البلوغ لما آل إليه النزوح الريفي الرهيب إلى المدينة، مما يجعل وضعها هي العجوز يتفاقم يوماً بعد يوم. وما عاد يضاجعها إلا بعض الزبائن القلائل المصابين بشتى أنواع الشذوذ فلا يمارسون الجنس ولا يتمتعون به إلا مع أقبح مخلوقات الله وأبشعهم.

«اسمعوا وعوا، يا أطيب خلق الله. لقد أوشك المؤذن على إعلان ساعة الإفطار. فلا تنصرفوا قبل أن تسمعوا باقي الحكاية وكيف فشلت محاولة الانقلاب التي دبرها

عمار بو. وقبل أن أنهي أطلب منكم أن تصلوا على النبي ﷺ وأن تضعوا قرشاً يتيماً هزيلاً نحيفاً لا يصلح لشيء في شاشية هذا اليتيم، وذلك للمرة الأخيرة شهد الله.. لا تخيبوا بالي يا كرام يا من جعل منكم الله أمة مميزة من بين كل الأمم وأنتم خير أمة أخرجت للناس، فقضى أن يسكنكم جناته». ولم يحتج أحد هذه المرة أيضاً وقد أخذ التعب منهم مأخذه وبرز الصيام على وجوههم المكفهرة التي تبدو وكأنها دروع رهينة عدوانية. أحد منهم لا يريد عصيان الله ولا أن تفوتهم نهاية القصة، ألم يدفعوا عدة قروش للمداح الداهية العبقري الذي عرف كيف يتفوق ببراعته وحذاقته على سائر المداحين أجمعين وقد اشتهر ببخله وحبه للمال، يا للأسف. «وبعد أن عد عمار بو العدة وتقابل جيشه بجيش الدولة، أمر الناسك الأكبر بضرب الأعداء واللجوء إلى الطيران فهزم عمار بو وفشلت عملية الانقلاب هذه التي كان قد دبرها. لكن عدد الضحايا كان كبيراً في صفوف الطرفين. كما أن أحد جنرالات عمار بو قد انتحر وألقى القبض على الفحام القديم. اسمعوا وعوا، يا أطيب خلق الله. هل تعلمون ما حصل لعمار بو؟ لقد أطلق سراحه بعد سنة واحدة فقط واستقبل من قبل الناسك الأكبر بحفاوة بالغة وبأبهة شبه رسمية، وقلده الأمان وغفر له استعصاءه بحضور كل أعيان البلاد ووجهاء الديوان ومفتي البلاد. وعلى الرغم من كل هذا الهينمان فلم يقبل عمار بو طلب السماح، غير أن رئيسنا المعظم قد

تكرم عليه بمبلغ مائة ألف دينار وتركه ينصرف بكل ثقة وأمان. واستعمل عمار بو هذا المبلغ لشراء مغازة كبيرة لبيع أثاث المنزل في العاصمة حيث عدد الزواجات يعادل الطلاقات... اسمعوا يا إخوان. ما تنساوش باللي جحا رجل خبيث ولا تصدقوه وهو يبث أكاذيبه ودعاياته ضد الناسك الأكبر فجعل يتهمه بأنه يزج في السجن ويعذب كل أرهاط الشيوعيين المتزندقين الكفار... إنه لكذب ونفاق، فالناسك الأكبر رجل سخاء وعطاء وتسامح وتمارح.. فهو دائب على إطلاق سراح المساجين السياسيين وتزويدهم بمنحة قدرها مائة ألف دينار يتيح لهم التمكن من العودة إلى الطريق المستقيم وأن يصبحوا مواطنين صالحين وتجاراً ماهرين وعلى دفع التجارة الخارجية إلى الأمام وإلى أحسن ما يرام قادرين».

وإذا بالجوق يعود إلى العزف من جديد: «آه يا عمار بو. آه يا عمار بو الحيلة». فيما راح صديقي يمضغ أحلاماً قديمة عارمة. وقد راح الفجر يبسط على الأوجه لوناً مخضوضراً. وهكذا فقد صاحبي رونقه وما كان عليه من جمال فراح يشخر واضعاً رأسه على بطن المومس المتناومة وقد استقلت عرض الحائط مشمرة فستانها على فخذيها المبرومين المعصبين شاهرة فرجها الأضخم، وهو عبارة عن انتفاخ رمادي اللون، أمرد الجلدة محبحب الشكل يبدو وكأنه قشرة فيل هرم، وسيطر النوم على العجوز فراحت تزيل على ربطة عنق صديقي تلك التي استعارها لشخص

أقل منه فقراً، تتريل نوعاً من السائل المشبوه فيه وقد جف بقعاً بقعاً من هنا وهناك. وما كان من العازفين أن انصرفوا فبدا الماخور عابقاً بالكآبة مثله مثل منظر الممثل العجوز بعد مسح وجهه من مساحيق التجميل، كما أن الجو العام فيه راح يفوه رائحة الكحول الفاترة وأعقاب السجائر العفنة. أما أنا فكنت محاصراً من قبل صبيتين كانتا راغبتين في ممارسة الجنس معي مقابل مبلغ معين، فجعلتا تتخاصمان متشاجرتين فلا زبون غيري في الماخور يمكن استغلاله سواي. فحرت في أمري لا أعرف ما أفعل وقد أصبحت أتردد الآن بين الغثيان والغضب فخشيت إزعاج الصبيتين فأدخل فيهما الذعر والهذيان والكآبة ولم يكن الذنب ذنبهما بل كانتا ضحيتين مسكينتين لمجتمع لم يعرف الحفاظ عليهما، وقد عاث فيهما الرجال الفساد واستلبوا منهما جمالهما وشوهوا براءتهما، رجال يتصرفون كالضفادع أمثالي فيحاولون إغراء النساء ثم يلقونهن جانباً كسلعة كسدت سوقها أو مشاية قديمة ما عادت تروق في نظرهم؛ مشاية مثل تلك التي رمتها الحبيبة على رأسي في بداية إقامتي فلا تستثير شبهات عمها فلجأت إلى منزله فراراً من الحراسة الشرسة التي كان يمارسها نحوها أبوها. وكان هذا قد فطن أنها سقطت في غرام أحد الأنذال فأبعدها عن العاصمة مرسلاً إياها إلى دار أخيه هناك إلى قسنطينة حيث قضيت مراهقتي فيها وقد كنت آنذاك رافضاً كافراً متمرداً لا يرحم ولا يشفق ولا يندم، وها إني الآن في صحبة رفيقي

هذا الملعون الذي انبطح على أرض الماخور مستلقياً بكل أطرافه على الحضيض، واضعاً رأسه على بطن المسكينة وقد أنهكها السكر وآلمها النقرس الذي شوه جسدها بسبب ذلك الخبيث ومما لا شك فيه أن المومس هذه كانت تذوب حباً به سراً وكتماناً فلا تجرؤ على مصارحته في الأمر علناً خوفاً من مراشقته إياها بالسخرية اللاذعة ومن مواجهة رد فعله البغيض. لقد تركتها الشهقة الآن وهي نائمة ملء جفنيها، حرة المعصمين بعد أن استلبها صاحبها أساورها. لقد أبيت فضحه، فليس في الأمر ما يجدي نفعاً..

فلا هم لي الآن سوى الانفلات من هذا الجحيم وأنا في حاجة ماسة إلى الذهاب إلى الحمام فأطهر جسمي ونفسي قبل امتطاء القطار عائداً إلى العاصمة، إذ أنني قررت الآن العودة فعلاً إليها، أريد الذهاب بلا إياب، بعيداً عن هذه المدينة حيث دخلت في لعبة آلت بي إلى الفشل فغمرتني حزناً ومهزلة وكآبة، إذ أنني ما تمكنت من التحصيل على أي شيء يذكر، فلا حبيبتي اتصلت بها وقد أغلقت عليها الأبواب موصدة، ولا رفيقي تمكنت من منعه من الاستيلاء على أساور المومس العجوز، فشل بفشل بفشل..

ولماذا قبلت بمرافقته إلى هذا المبغى الحقير؟ كنت أعرف قصة (أسطورة؟) عمار بو عن كثب ومنذ زمن بعيد، كنت ملماً بقصة ارتقائه إلى قمم الأوج والسلطة والجاه

بسرعة فائقة يستحيل تصديقها. كما كنت أعلم علم اليقين ما هو ماضيه الغريب وكيف اشتغل ملاكماً محترفاً في أول الأمر وممثلاً هاوياً من بعدها، وبائع فحم وشحم بسيطاً ثالثة ومن ثم مستشاراً عالياً وخاصاً لدى الناسك الأكبر وأخيراً تاجراً كبيراً يملك عدة مغازات يبيع فيها الأثاث والأدوات المنزلية بعد أن فشل فشلاً ذريعاً في محاولته قلب النظام القائم في البلاد..

لقد احتفظت من زيارتي المدينة التي قضيت فيها طفولتي ومراهقتي نصفيهما بانطباعات رائعة. فلم يعد بإمكاني رمي تلك الذكريات في سلة المهملات مع تكدسات الذكريات الأخرى والتي انقضى على انطفائها زمن طويل فما عاد لها طعم ولا لون قط. كان رفيقي السكير المسلول قد أعادني إلى سكة ذاك الماضي الغابر بعد جهد جهيد ومشقة شاقة حيث ما كنت أتذكر فيه ولو يوماً واحداً يحمل طابعاً أساسياً وحياتياً، وإذا بدقات الجرس تتراكم آنذاك في رأسي متضاربة متصارعة فتزعزعني زعزعة أخرجتني من سباتي وتيهي بغتة. أما عن الانطباعات التي رسمتها المدينة الهائلة، فلا شيء يذكر ما عدا حطام بعض البنى المعمارية الضبابية المعقدة الغامضة راحت تخز دماغي خزاً مولدة في رأسي صداعاً أليماً يتورم تورمات متتالية متتابعة. فأي فائدة تنشد إذن من ستف الأحلام في طيات أصبحي وصبيحاتي إذا ما راحت الكوابيس المرهقة تتزاحم

مزدحمة على باب تلك المنطقة المعتمة الرهيفة فيما بين تلافيف المخ المشدوه فتكسو زجاجه صفيحة من البخار نظير زجاج النوافذ إذا تساقط الرذاذ عليه فسال في تشابك وريدي وردي من الماء (أم الدم؟). أما هذا المستشفى فما غادرته قط. أقضي الأيام فيه حياة راغدة راضية مرضية. فهذه نادية قد خفت من ضغطها علي فتتركني وشأني وما عادت تزعجني قط إذ هي غضبت علي بشكل نهائي هذه المرة فلا سبيل للهم ولحمل الغم في هذا الشأن. لقد استعدت هدوئي وأصبح بإمكاني قضاء أوقاتي في الخربشة على أوراق الكارثة والتمزيق كما استرجعت علاقاتي مع جحا فأجالسه وأثرثر الساعات الطوال دون كلل ولا ملل. حياة هنيئة راغدة بسيطة: أقشر برتقالة تارة وطوراً أحدق في المصباح الأزرق فأطيل فيه التحديق، وهكذا أصبحت قادراً على عد كل ونيمات الذباب المرقوشة عليه دون التحرك من مكاني وبمجرد التواء عنقي التواءً ليناً مرناً، بدون أن يستقطب ذلك انتباه المرضى الآخرين. حتى إذا ما انقضت السويداء علي انقضاضاً عالجتها بالغناء فأترنم بأغنية قديمة كثيراً ما كانت منتشرة مشهورة عند المساجين: «يما والسور عالي...» فيلتحق بي أصدقائي ونأخذ في الترنح على وقع الأنشودة الحزينة. لولا أن هذه الذكريات كانت تأسن ذلك الجو الذي طالما سعيت لتطهيره مستعيناً إلى ذلك سبيلاً بالرشوة والنفاق والتواطؤ والتنازلات. كنت أسرح على الرغم مني في تجوال وتلفاف وكأنني باحث في قعر روحي

عن استيهاماتي وتهويماتي التي كانت تسيطر عليها فكرة الخوف من الدم، فكنت وأنا ماضٍ في هذا السبيل أدرك أني أتيح للظروف فرصة بل وأخلقها لها خلقاً لتكديس الانطباعات انطباعاً فوق انطباع إلى حد الخلط فيما بين الأمور كلها فيختلط الحابل بالنابل. كيف يمكن والحالة هذه إذن من تفادي التلعثم والتلثلث؟ كانت الكتابة الكامنة في أحشائي هي الطريقة الوحيدة لمساعدتي على الفرز بين الغث والسمين فأطفو من جديد على سطح الواقع متجنباً إرهاق نفسي بتجنب كل حركة فوضوية صاخبة، فلا أفعل ما فعل الذباب الذي كنت أضع فوقه الكؤوس الفارغة فأحصره بين جوانب الآنية البلورية فيأخذ يتلاطم في جوفها لثوانٍ معدودة إلى حد الإخفاق والتباطؤ والتثاقل على مثال المتسرنمين المساكين إلى أن ينتهي به الأمر إلى شفير الموت وإذا بي أرفع فجأة تلك الكأس مما يجعل الذباب مشدوهاً مترجرجاً بضع ثوانٍ من فرط ما يشعر بالانهيار والتردد وكأنه فقد حس البصر فأصيب بالعمى الأسود. فما كنت أنوي قتله بمقدار ما نويت على تخديره ليس إلا فلا أتجاوز حد الدوران، حتى إذا ما فعل انطلق بصعوبة في البداية وأخذ بالطيران تدريجياً إلى أن يسترجع وتيرته المعتادة فيستعيد جرأته ويجعل من جديد يتحلق حول يدي المبسوطة على مائدة الفطور بل ويحتك بها وقد كنت أتقزز من رائحة الحليب المغلي الطائر الذي كانت تصبه أمي في صحيفتي. . . كان عليَّ أن أكتب وأكتب مخافة أن يداهمني

الموت كذباب صبيحات طفولتي الباردة، أو أن ينتهي بي الأمر إلى الانتحار بقطع شراييني بشفرة الحلاقة إذا ما ارتفع التعصب إلى أوجه، إلى ذلك الحد الأقصى الذي كان يهددني لوقت طويل مضى. ولكن فيما أكتب؟ ولا شيء لديّ أكتب سوى الذكريات؟ على أنني لم أتذكر مسار القطار الدقيق المضيء البراق، هذا الذي حملني ليلاً من المدينة التي كانت تقيم فيها سامية إلى العاصمة التي كنت قاصدها. ماذا استقيت عن تلك الرحلة؟ لا شيء أو شبه لا شيء...

كان عليّ بالعودة مهما اقتضى ذلك من تمزق وآلام. ولكم استأت من تصرفات رفيقي تلك البشعة، وإن أذكر ما أذكر فلا أفهم كيف سمح له ضميره بسرقة حلي مومس عجوز قضت كل حياتها تتحمل بين فخذيها تلك القرقرة العنيفة التي تسببها فيها حركة آلاف القضبان المستعرة المتهيجة، تحملتها فاشترت على أثرها تلك الجواهر. والمدينة هي أيضاً خيبت آماليْ. على الرغم من جسرها الهوائي المعلق فوق الهاوية العميقة الذي يبدو وكأنه انبجس من العدم فتعلق في حبال الهواء قائماً على طرفي الصخرة من هنا وهناك... كان عليَّ بالضرورة أن أعود حتماً. ذلك أن الأخبار التي وصلتني عن حالة أمي كانت سيئة جداً. لقد بلغت عتبة الخطر إلى باب الاحتضار ولكنها ترفض عبوره وتبقى في حالة قنوط وكأنها تخاف من الهبوط في الفراغ، فكانت تمكث هكذا مترددة بين قطبين اثنين.

لقد كان الاختيار محدوداً في واقع الأمر بين الألم والعدم. فكيف يمكن الاختيار إذن؟ كانت أمي ترفض أن تأخذ القرار الحاسم، فيدلني موقفها هذا على تحريها الأمور وحكمتها الفطرية. هل طالبت بمشاهدتي وهي على فراش الموت؟ لم يكن في وسع خالتي أن تجيب عن مثل هذا السؤال. كانت تلجأ إلى أسلوب المجاز قائلة أن الفوضى والتشويش كانا قد تغلغلا في ذهن أختها، رغم ما ذبح قرباناً لله من ديوك سود ودجاجات بيضاء... دونما جدوى.

وما أن دخلت إلى الدار حيث كانت أمي على وشك مفارقة الحياة حتى اصطدمت بما سيطر عليها من تهاون وإهمال بالغين. أما سي عمر فما قد عاد بعد من سفرته الطويلة وقد استمر في إرسال بطاقات بريدية مصورة ملونة لماعة، تمثل شوارع وساحات وجبالاً وبحيرات وشواطىء شتى من جميع البلدان في العالم. كان يخربش على قفا كل واحدة منها بعض العبارات التافهة منها والعادية أو الغامضة الملتبسة منها التباساً بحيث كان يمكن تأويلها تأويلات شتى، ولعلها ما كانت تحمل أي معنى، بل أحملها أنا من المعاني بهتاناً مما يمليه علي هذياني. ولا يأتي فيها على ذكر اسم سالمة قط بل كان بإمكان من يقرأ هذه البطاقات أن يتكشف من خلال المفردات الظاهرة وحتى المشطبة والممحاة منها أو من نقاط الوقوف أيضاً يكتشف أن الرجل إنما هو واقع في حيرة وخوف ولعله فقد

صبره لكثرة ما ترقب موت أمي فيعود بعد جنازتها من رحلة طويلة علماً بأن أعماله التجارية المتراكمة كانت تنتظر عودته، فعم كان يسعى بالضبط؟ كنت واثقاً من أنه سوف لا يعود قبل وفاة أمي حتى ولا قبل جنازتها. (مرسيليا 12/ 10/ 1950. عمر).

كان الصمت المخيم على الدار رهيباً لا يطاق، خاصة وأن تلك الدار كانت دائماً صاخبة وذات حركة دائمة. أما الآن فقد كان كل شيء هادئاً وحتى الأصوات الخارجية كانت تصلنا بطريقة غريبة وكأنها آتية من وراء الموت والقبور: صوت المؤذن المرتعش وكأن هواء صومعته الشامخة السابحة بين السماء والسحاب قد أنهكه وأضعف قواه، توسلات الشحاذين المتسولين المرتلين وطلباتهم الملحة ودعواتهم المتصاعدة عبر الأزقة الضيقة التي كانت تضخم صداها فتضاعف في انتفاخها وتزيد في تلحاحهم إلحاحاً، رنات ناي الشيخ المقعد الأكتع الحزينة، وكان قد استلقى على ظهره شاهراً جذعيه اللذين يبدوان وكأنهما عارضتان مبعجتان أقفلتا الأفق وسدتا الطريق فتشكلان عائقاً أمام المارة والمتنزهين، نوبات سعال تطلقها حناجر العجائز المسلولات وكأنها خارجة من أعماق كهف الأزقة الحجرية إلخ.. أما روائح الحمام فكانت تسدي على فطائر الصباح الإسفنجية المتقاطرة زيتاً مذاقاً شبيهاً بمذاق الشعر إذا ما تعفن، خاصة عند أطلال الفجر الحليبي البارد على القرية وقد راحت السوق الكبيرة تفتح أبوابها وتغدق على

المدينة خيراتها المتراكمة المتكاثرة، وأخذت الحركة تتقوى والازدحام يتضاعف والهيجان يتفاقم ويذهب الناس في ذهاب وإياب، وأخذ ورد، ومد وجزر لا منفعة فيهما البتة بل وهما على جانب كبير من الخطر. أما في المنزل فقد كان كل فرد من أفراد العائلة قابعاً في غرفته، منطوياً على ذاته ما عدا خالتي مليكة التي راحت تصول وتجول في تموج وتزحلق متواصلين عبر الفيناء تبدو وكأنها فقدت حس الاتجاه والتوازن. وكلما تفاقمت حالة أمي استنجدت بي فنحاول سوية فهم هذيانها وقد أصبح مفعماً بالتهديد وعلى جانب من الخطورة إذ راحت تكرر ولا تنفك أنها عازمة على ذبح سي عمر فتسألني فيما إذا كانت استرجعت الأمواس القاطعة من عند السنان، تلك التي كنا نستعملها خصيصاً لتهريس جماجم أكباش العيد وتكسيرها. وكانت تدعي أمي أنها سلمتني تلك القطاعة لي شخصياً لتشحيد شفرتها. وما الحيلة وقد كانت تهذي وتخرف؟ والأفضل عدم معارضتها. كنا نقبل بما تقول ونتظاهر بفهم ما تتمتم إلى أن سقطت في ما يشبه النعاس والغيبوبة. فكانت ترقد الساعات الطوال تسبح في حموضة عرقها الذي راح يتزايد لشدة مرضها واتساع استيهاماتها، وقد كانت تتألم لشعورها بالذنب ذاك الذي كانت قد نسجته على مر الأيام في جو من السرية والعزلة التامتين وذلك منذ أن اغتصبها سي عمر ذلك الأب الذي لن يقر بأبوته لي ولإخوتي وأخواتي. فكانت تحترق تحت سعير هذا الشعور بالذنب فتذوب به

ذوباناً، فيما راح المسؤول الحقيقي عن هذه الجريمة يتجول سيراً على أرصفة الشوارع العريضة في العواصم الضخمة حيث الشمس فيها شحيحة وتشعل أضواء النيون بدءاً من الرابعة ظهراً فيزيد شحبها ما في وجوه الناس من شحب التعب والإرهاق هناك، وتعمق ما في تهجيجات الأشخاص والمارة من اسوداد فيذهبون ملهوفين مهرولين مسرعين حتى إذا ما أقدم سي عمر على مصافحتهم فلا يخرجون أيديهم من قفازاتهم الجلدية الصفراء إلا ببالغ التحفظ والتباطؤ (لندن 12/ 5/ 51. عمر). وقد كانت أمي تهرع من الجحيم فتتمرد من حين إلى آخر وكأنها تعي من حين إلى آخر أي فظاعة كانت تلك التي راحت ضحيتها ولم تبلغ آنذاك سن السادسة عشرة ولم يكن هناك من يساعدها للخروج من هذه المتاهة الرهيبة. وكانت في هذيانها تطالب بتسليمها الجاني فتهم بقطع رأسه تقطيعاً وتهشمه تهشيماً فلا تساوره نفسه من بعدها بإيذاء النساء الأخريات. وكانت من خلال ضحكاتها الهستيرية تصرح لنا أن سي عمر بعد قتله على يدها سوف لن يسافر إلى المدن الأجنبية بحجة تنظيم أشغاله وترتيبها فيها، فتتحدث بإسهاب عن تلك العواصم التي لم تزرها قط كما أنها تصرح بأنه بعد ذبحه سوف يكف عن التطفل على البنات والتملق بهن. وقد كانت بعض الأحيان توشوش في أذني هامسة بصوت خافت فلا تسمعها أختها بأنها دبرت خطتها المدروسة فتتخلص بها من سي عمر عند عودته من السفر (نيويورك 12/ 1/ 94. عمر). على أنها

كانت تقر بأنها نسيت ما في خطتها من تفاصيل دقيقة، بيد أنها لن تعير الأمر كثير هم إذ هي قررت بأنني سوف أساعدها على تنفيذ حكم الإعدام به والانتقام لها من هذا الإقطاعي الخبيث. بيد أنها لم تعترف لي قط بأنه هو أبي الأصلي، وأنه هو من اغتصبها غدراً، ظناً منها أنني جاهل هذه الأمور كل الجهل فتشرح خالتي هذا الموقف قائلة إن أمي احتفظت بحيائها بالرغم مما كانت عليه من اختلال في العقل كبير.

وما كان لي أي سبيل للخروج من هذه الورطة وتجنب هذا التعفن الذي أخذ يزحف على الأشخاص والأشياء (من يقدر على إقناعي بأن الخضار المخزونة في المطبخ ما تعفنت؟ وقد اكتست حبات البطاطس صوفاً متعطناً فراحت عروقها وجذورها تفرخ وتنمو مسدية على حبات الجزر تلك الألوان المزرورقة الفاترة فتلتف بسبخ العفونة، وتطغى الحرارة الصيفية على حبات البندورة فتتفجر ويسيل عصيرها الخاثر على غشوتها المتجعدة الخانزة فتذر بزراتها المستديرة الصفراء وترقش كل ما حولها..) إذن لا سبيل للخروج إلا الإغراق في النوم إلى أقصى ما أستطيع إلى ذلك سبيلاً، أستيقظ فأبقى مطروح الفراش الصباح بكامله فأدير وجهي نحو النافذة التي كان مصراعها يجعد جسمي فيبقعه بخطوط اختلط فيها النور والظل معاً فيبقع وجهي ويدي وأطرافي بدوائر بنية اللون متداخلة الشكل، تفقد شيئاً فشيئاً من غضارتها كلما راحت تضعف حدة الشمس ويهف

التهاب الحريق وراء الزجاج. أبقى إذن على هذا الوضع لا أتحرك بل أحاول فرز الأصوات المختلفة التي كانت تصلني وتحديد نوعيتها واستدراك درجاتها الدقيقة في الفضاء، أبقى متيقظ الأحاسيس مستقطباً أدنى همسة لأمي أو أنة لها. أصوات كانت تصلني خافتة رهيفة تارة ومفرقعة وميضة طوراً وذلك تمشياً مع رطوبة الطقس أو جفافه وحسب إشعاع الشمس أو غيابها حتى إذا ما كان الطقس جميلاً حدست أن الشمس راحت تدغدغ سيقان النسوة القليلات في الشوارع ممن لا يحملن اللثام، أما إذا كان الطقس ممطراً حدست أن قطرات الماء راحت تبلل برانس المارة ذات الصوف الخام فتفوح رائحتها المميزة وهي عبارة عن مزيج من التعطن والفتور. كنت بالأخص أرغب في رؤية وجوه النساء الشاحبة الكئيبة الواجمة وقد فقدن عنجهية مشيتهن المتطاوسة لمشيهن في المنزل حافيات الأرجل على بلاط الأرض البارد. كنت أفضل البقاء في الفراش والأعصاب متوترة والبشرة متلبقة أدخن السيجارة تلو الأخرى فيما الترامفاي الكهربائي جعل يبرز في الخارج ماراً أمام المنزل يخرق طبقات الفضاء الفسيحة متجهاً نحو الشاطىء، ولا زال الجو صافياً نقياً ولما تلوثه بعد جمهرة الناس بروائحها وضجيجها وصخبها. ولعل هذه الانطباعات كلها ما كانت لتصل إلى مسامعي وأنا فايق أتململ من ذاك الخوف الذي كان يولده في احتضار سالمة، (وما شعرت في حياتي قط أنها هي أمي لصغر سنها فلم أسميها إلا

باسم سالمة)، بل كانت تلك الانطباعات تنزلق في مزالق نومي فتتأصل فيه حتى أستيقظ، وعندها فما كنت أعلم بدقة هل كنت أشعر بها بشيء من الإبهام والغموض فور خروجي من النوم فأحاول فك ذلك الضغط الممزوج عياءً ونعاساً وقد طوق رأسي تطويقاً، أم بعد تلك الفترة الاستيقاظية بكثير، أي بعد استرجاعي كل وعيي فأفتح عيني على مصراعيها فأحلق في تشقيقات السقف لدقائق طويلة، فأبدأ في تدخين أول سيجارة. ولا ضير فقد كنت مستلقياً على فراشي ساعات طوالاً منتفخ الأجفان، فتورد لونها لشدة شفافية الضوء المبهر وقد انبجس فجأة في الحجرة بدون ما تمهيد فيقلب وضع المكان وبنيته وهيكلته الهندسية فتأخذ الأشياء (من كراس وموائد وكتب...) تنتصب وقد اصطبغت بصبغة متصلبة كئيبة فتعمل على جلف حقل إدراكي الحسي المضبب بعض الشيء لما كان في الصداع الذي اكتسح رأسي من حدة فتتضاعف آنذاك شدة الغيظ الذي كان قد اجتاح صدري وأنا أرى الأمور تنفلت من يدي فلا أقدر على القيام بأي شيء قط أو اتخاذ أية مبادرة أنقذ بها أمي من هذا التميع البغيض الذي راح يفرغها من حياتها قطرة قطرة.

كانت أمي على دراية واضحة بتدهور حالتها الصحية وهي لا تفتأ تتلوى تحت وطأة الألم فتشكو منه وتعاركه تحت سطوة التمرد ذي الاتساع الضيق فيتسلط عليها أحياناً نوع من اللهفة إلى تشتيت كل شيء من جراء رؤيتها

المبعجة لما يحيط بها ومن جراء ذاكرتها التي استرخت تحت هدير الهذيان والتهاب الجو المحرق أبداً، خاصة وأن سقف حجرتها كان يبدو لها بمناورة وكأنه طعنة نجلاء برتقالية اللون متفجرة الشكل إذا ما قورنت ببياض الغرفة المطلية بالكلس المحبحب؛ وقد كانت سالمة على يقين الآن من أنها سوف تلفظ ـ لا محالة ـ نفسها الأخير في هذه الحجرة عينها. وبعد الانفجار كانت تغتنم فرصة الهدوء الذي كان يسايرها برهة من الزمن في حالة وسطية بين بين، أي بين الانهيار الكامل والشفاء القصير الأمد وذي الحدة الضعيفة والعنيفة فتتسلق إذاك بعنهجية سلم الكراهية والحقد حتى قمتها تجاه المولى الذي أخذ يستأنف إرسال البطاقات البريدية (شيراز 12/ 5/ 53. عمر). وكأنه أراد بذلك نكايتها أو تحدي ذهنها المرتبك وجسدها المهزوم واستيهاماتها الضبابية وإذا بها تتمكن من فرض نفسها وإرادتها بين الفينة والفينة. لقد كانت مصممة على اغتياله. وكنت أنا لا أرى في ذلك أي مانع، وقد كنت على يقين من أنها غير قادرة على مواجهته إذا ما مثل أمامها بل وحتى على رفع عينيها نحوه هو الذي عرف كيف يجعلها ترضخ إليه رضوخاً نهائياً. حتى إذا ما صارحتها في الأمر فألومها على هذا الجو الرهيب الذي فرضته علينا وعلى نفسها أخذ الغضب منها مأخذاً ما عرفت لها مثله من ذي قبل. فلا يتسنى لي أمام هذا الفوران إلا التراجع فآخذ كلما استرجعت وعيها في إضرام نار البغضاء والفتنة في

صدرها على أبي الحقيقي فلا تجد مندوحة من القدح في كل الرجال متهمة إياهم بأنهم كلهم من سلالة الشياطين منحدرون فلا تستثني أحداً بما فيهم جحا نفسه الذي كان في نظرها بمثابة شريك خائن. فكنت أتجنب الدفاع عنه أو محاولة تبرير موقفه، إذ كان الرجل سليمان ـ الحيلة يستحق غضبها وحقدها. كانت تغلي غلياناً وأني أنا لا ألومها على ذلك قط، بالعكس. ولا تلبث أن تسقط في الوجوم اللاهث فتحاول ترك فراشها والخروج إلى الفيناء خاصة في تلك الساعات من سويعات العصر حيث كان صوت المؤذن يصلنا حاملاً نبرة خاصة تنذر بتغيير في الجو آتٍ سوف يكون لا محالة بارداً، وبعض الأحيان كانت شفة سالمة السفلى ترتخي لشدة شجونها فيتهدل شعرها الأسود فتبدو إذاك وسط الفيناء كالزوبعة، وتظهر بشرتها وكأنها تنش نشاً من فرط ما كانت تعاني من وخز الآلام التي ما بعدها آلام ومن عذابها وما ينتابها من رغبات مكبوتة في الانتقام لا تقاس. إلى أين وصلت في تخريبها وتدميرها؟ لقد كانت أعجز من أن تجيبني عن سؤالي فتتركني هكذا غارقاً في الحيرة غاطساً متوحلاً في التردد مما كان ينال من أعصابي كل منال ويحطمها تحطيماً. كنت أحاول ما باستطاعتي إلى ذلك سبيلاً إفراغها من جملها المتقيحة فأتركها تتلعثم وتتعثر وتتداوخ وتتهودج بعض الوقت فلا تلبث أن تعود إلى سباتها الرهيب، سبات امرأة مجنونة قد لقحتها ورشمتها بصفة أبدية خطوط البرق البنفسجية، وصعقها رعد العنف

صعقاً ولما تكن لتبلغ إذاك السادسة عشرة، فتحملت كل ما تحملت مدة عشرين عاماً، رغم ذلك العجاج المتمايل ما بين البرتقالي والصلصالي الذي كان يبرق أحياناً بين عينيها في مضيق حيرتها العارمة النهائية. وما العمل إذن؟ كانت في مأزق بين رضوخها الأبدي للواقع وتمردها البركاني عليه فما كانت تجد لذلك حلاً إلا في ترك الموت يقتحمها من خلال الوهن الذي راح يتسرب في جسمها جاعلاً من عقلها تلك الصحراء القاحلة القاحطة فلا ينبض إذا ما نبض إلا نبضات متقطعة. هياجة. ثوارة. بركانية. فقد كانت أثناء الأيام التي سبقت وفاتها تسترسل في الثرثرة والهيجان على وتيرة متقطعة متمهلة فتحمل عن غير وعي كل القطط والسلاحف على الالتفاف وتأخذ في تغذيتها لحماً نيئاً لذيذاً.

وقد كان وجهها طيلة احتضارها ينتفخ وشعرها ينتفش فلا تفقد شيئاً من روعة جمالها الأسطوري بل كانت عيناها تتسعان وثدياها يتضخمان كأنهما كانا يمتصان كل دمها على وقع تنهداتها، ذاك الدم الذي كانت تحلم بأن تسكبه على تربة الأصقاع كلها. لكن هل كان في إمكانها قلب نظام الوضع السائد المتجمد لقرون وقرون مضت؟ كانت تظن ذلك وقد نسيت أنها ليست إلا امرأة تعيش في مجتمع تهمين عليه سطوة الرجال والقضاة والفحول وهي أعجز من أن تستطيع القيام مؤقتاً بأي حركة في وجه الواقع. كانت شاحبة اللون لا تكف عن مراقبتنا من تحت جفنيها

المنتفخين بل وتهددنا أحياناً وتنزل علينا بوابل من السخرية ناسية أن النكسة تهددها هي فتسقط إذاك من جديد في هذا السبات شبه الغيبوبي الذي كان على طرفي نقيض من الفيضانات اللغوية التي كانت تدفعها في أرق رهيب لا يفسح لها في المجال أن تنام طوال أيام متتالية مستلقية على الفراش وقد غطت ساقيها بغطاء رائع مخملي ذي الألوان المزخرفة والتطريز تطريزات ورسمات هوائية رهيفة فيما كان أعلى الجسم معرضاً بطريقة إلى برودة الليل التي راحت تتزايد مع تعاقب الساعات المتتالية. ومرة في غرة كانت تكتشف في صيحة خانقة حقيقة الواقع فتحس وتدركه وتلامسه فتستعر جوارحها وتهتز سعادة فتلقي صيحة استيهامها الأخير المتشقق، بقطع النظر عن تساؤلاتها عن حالتي أنا وحالة أخواتي اللائي تركن الدار منذ مدة طويلة فانتقلن إلى أطراف البلاد حيث أقمن هناك نهائياً. وكان رأسها مملوءاً صخباً واضطراباً وتعتمة. وإذا بها تقص علينا قصة النسر الرضيع الذي حلق فوقها ولما تناهز السادسة عشرة، فداعب فخذيها بريشه الناعم فيما كانت هي منحنية على حافة البئر تهم في استخراج سطل من الماء الزلال، تشد حبلاً راشاً مبلولاً وكانت تدعي أن النسر كان صغيراً فرخاً وكان يحاول الاندساس تحت جلابيبها فكان يدغدغ عانتها كل مرة وهو كلما اقتحم عانتها تطرده ثم يعيد الكرة. ثم استطردت قائلة أن الطائر الفرخ المتذبذب ولد لها نوبة من الضحك لم تقو على كبتها فكادت تسقط في

الجب من شدة ما ضحكت. لكن النسير تمكن في نهاية الأمر من اللجوء تحت جلبابها فأخذ يضطرب وفوجئ بالعتمة المسيطرة على المكان فتهوج وراح ينقر بشرتها الهفهافة وجعل يتحرك بصفة عشوائية عاضاً فخذيها فيدحرجها ويسيل دمها من شدة ما استولى عليه الذعر فارتبك إلى حد الخفقان. فكفت للحال عن الضحك وإذا بالذعر يستولي عليها هي بدورها لكنها أشفقت على اضطراب الطائر وفقدانه حس الاتجاه بعد أن أخذ الانزعاج منه مأخذه، وأردفت ـ وقد غرقت في التفكير ـ بأن شيئاً من الدم قد سال على ساقيها وأنها في آخر المطاف قد تمكنت من القبض على النسير، فوضعته في قفص وحاولت ترويضه. على أنها ما احتفظت به طويلاً فقد كان يسبب الضجة خاصة إذا ما سقط الليل مما أدى بسي عمر إلى إرغامها على التخلص منه وإطلاق سراحه بحجة أن الله لا يحب سجن الطيور في الأقفاص ولو كانت من ذهب شافعاً قوله، متطيراً بأن النسور إنما هي رمز الشؤم والتعاسة، فحرر هكذا النسير وانصرف هذا للحال.

أما خالتي مليكة فقد زعمت أن خرافة النسير هذه إنما جاءت نتيجة البلبلة التي توغلت في عقل أختها فراحت تتنهد الصعداء مرات عديدة قبل أن تلجأ إلى مسبحتها آخذة في التسبيح وقد كان عمر أهداها إياها بعد عودته من إحدى حجاته العديدة (مكة المكرمة 12/ 5/ 53. عمر الجزائري)، لسنة أو لثلاث سنوات مضت. ثم تبقى هكذا

واجمة الوجه، متصلبة الهندام، لا حركة لها ولا رعشة. فينتهي سباتها هذا إلى توليد الضجر فيّ إلى أقصى حده. إلا أنني لم آسف على شيء فقد اطلعت الآن على كل شيء وعلى كل شاردة وواردة. فخالتي وإن لم تغضب على أختها فقد كانت تكن لها شعوراً فيه ما فيه من الالتباس والاختلاط. (وفي المدينة ما كان الرجال يكفون عن التجوال وتجديف الأسنان بعد غداء يوم الجمعة الوليمي وصلوات التراويح بعد العشاء. كانوا يعبرون وعليهم روائح الياسمين تحذيراً منهم من المصابين بنوبات السعال السلي وتخوفات المصابين بسرطان الرئتين وقد كانوا يخافون من عواقب دخان السجاير الوخيمة والدوران والغثيان. لكن البخار الذي كان يكسو بلور كؤوس الشاي الحار المزبد واستكاناته كان يفرج عنهم ويجعل قلوبهم تخفق فرحاً ومناخيرهم تتذاوب لذة...) «كلهم من طينة واحدة...» هذا ما كانت تردده خالتي. فكنت أشعر أنها كانت تموه بتصرفاتي وتصرفات جحا الملقب بسليمان ـ الحيلة، ذاك الذي كانت تغره نفسه من حين إلى آخر، فإذا به يتحمس لقضية النساء وما يعانين من مشاكل فيأخذ بالتصفيق والخطابة في هذا الموضوع الأساسي محرضاً على التمرد وإعلان الثورة على الأوضاع. وإذا ما فاجأته قائلاً أن مثل هذا الكلام لم يكن في محله، وأن مثل هذا التصرف والافراط فيه إنما هو أقرب إلى الديماغوجية منه إلى أي شيء آخر، تصنع الاستغراب وعدم فهم ما أقول.

وكانت سالمة تتمتم بصوت مرهق مرهق مرددة على نفس الوتيرة: «علينا أن نحتذر من كل شيء وأن نتخذ الاحتياط منهم وأن نبقى على أهبة الاستعداد للدفاع عن أنفسنا والذود عن حرمتنا. آه من تلك النزعة التي تجعل قلوبنا تصدق أي رائحة من عبق الياسمين، وتصفق للعواطف والعطف والحنان التي نكنها لكل سلحفاة ولكل نسير نزعم أننا قادرون على ترويضه. وهناك الصور أيضاً وهذا أخطر ما وجد في الدنيا بالنسبة لدينا...». كانت الاستيهامات تتوغل فيها وتتفاقم يوماً بعد يوم وتذهب بما تبقى لها من قوة. كانت تشكو من ألم يوجع ثدييها فتقرر أن هذا رمز وإشارة لما سيحل بنا من نكبات ولما سوف يطرق باب جسدها بعد قليل... (غداً يكون الشارع غاصاً بالإشارات على اختلاف أنواعها حيث يبرز البني والأزرق فيثقبان أعين المارة جاعلان فيهما فواهات وقد راحوا يستريحون الآن بعد ما بذلوا من مشقات شاقة فجددوا سماتهم ورفلوا في ملابسهم التي غسلت في الغداة. وكان نفس الشيء تشعر به أعين أمي إذا ما راحت تراقب حركات المارة من وراء مصراع الشباك فتمر سحابة أمامها كما لو غارت غيرة على سعادتهم هذه المزيفة التافهة، سعادة تلك الجمهرة المتراصة التي لا شكل لها ولا متانة). وتأخذ عيناها تزداد اسوداداً كلما راحت تعاود آلامها وشجونها فلا يتسنى لي إلا أن أتخيل مدية المطبخ وهي تعمل في عنق أبي الحقيقي داخلة خارجة وهو يرفل في

جبته الحريرية ذات الألوان الزاهية تغطي تخمته وأطرافه المتورمة المشحمة كالإسفنجة المتشبعة شحماً ودماً وماءً وهي أشبه ما تكون بالإسفنج الذي كنا نأكله كل صباح على رصيف الميناء في العاصمة قبل عودة أصدقائي صيادي جراد البحر. أجل لا يتسنى لي إلا أن أمضي على جناح الخيال وقد أخذ الصقيع مني مأخذه فأتصور تلك المذبحة التي قد يذهب ضحيتها أبي المحتال، فينفرذ دمه وبوله وغائطه فتكون مجرى من السائل المتمازج المتخالط بحيث أن القطط نفسها أبت لحسه لفرط ما تفوح رائحة كريهة. ولعلها تكتفي بالاقتراب من تلك المجاري فتشممها وتتبختر حولها بدون ما رغبة في لعقها وولغها، ثم تنصرف بعنجهية واشمئزاز رافعة أنوفها الوردية، متطاوسة في مشيتها. كما أنني أتخيل رعب أبي وهو يفاجأ بسكين تشهره سالمة في وجهه فيصل جنونه إلى أقصى ما يستطيع بلوغه... وهل في ذلك ما يربكه أو يذعره؟ لست أدري. فالرجل معروف بشجاعته وتعصبه للدين وتيقنه من حقوقه المشروعة ومن شريعة الله المباركة... ولعله يسقط في نوبة من الضحك فيقهقه بصوته الجهير ويهتز من جرائه بطنه المتشحم المخمل المتورم المتخم.

لماذا أخذت سالمة تشكو من البرد وكان قد توغل في نهديها مرددة أن هذه الظاهرة لا ترمز إلا للحلول الملمة التي لا تلبث أن تقرع باب جسمها؟ دقة واحدة ليس إلا: طق! هل هي تعتقد ذلك؟ كانت تؤمن بالخرافات. ومن

يتجرأ فيصرح لها بأنها تهذي وتخرف وأنها غير قادرة على قتل ذبابة هزيلة فكم بالأحرى جمجمة رجل، وجمجمة الرجل ليس كجمجمة كبش العيد يمكن تحطيمها بساطور حاد بغية استخراج المخ الهش الطريّ الوردي جعدته خطوط زرقاء فترفعه على الملأ، لتهديه الأطفال بعد طهيه فيضاعف من حدة ذكائهم ويصبحون مالكي دهاء سي عمر وذكائه وهو لا يزال يتطاوس متنقلاً من عاصمة إلى عاصمة في العالم (دمشق 12/ 4/ 39. عمر الجزائري). طعنة الموسى في رخوة البطن الممتلىء دماً خبيثاً خاثراً. الرهبة ذلك الذهاب والإياب داخل الحنجرة المشحونة بسذاجتها الإنسانية السخيفة، خاصة وأن باب الخزانة (حيث كنت أضع وأنا طفل علب معجون الطماطم الفارغة والمملوءة بحشرات ضخمة مصطفة اصطفافاً عسكرياً، باذلاً ما في وسعي في فصل الشتاء لترويضها. أما في الخريف فكنت أضع فيها علباً خشبية بعد أن أكون قد رصعت غطاءها بثقوب صغيرة كثيرة. فأملأها بدود القز وأبقى أمامها ساعات وأياماً طوالاً ناظراً إليها وهي تقضم ورق التوت وهي تكبر وتتضخم وتنسج بكل صبر وتؤدة شرانقها التي سوف تنغلق على ذاتها فيها) المفتوح عن غير قصد هكذا عرضاً (وليس من السهل إغلاق باب هذه الخزانة العتيقة).
لا يفتأ يصرر صريره ويتدحرج على مصراعه ذهاباً وإياباً وبلا هوادة.. حتى إذا ما أخذت في مشاهدة مجرى الأحداث على مرآة الخزانة شعرت لا محالة بحركة سرمدية

فسيحة منتظمة.. فيما يتساءل سي عمر عن هذا الذهاب والإياب المضجر عوضاً عن أن يرتاب أمام الموت الذي كان يهدده. ولعل الصور التي اعتادت سالمة على اختزانها في هذا الأثاث سوف تتساقط من الدرج فتتبعثر وتندثر: صور الأسلاف على حد زعم أمي، وهناك صور أخرى تمثل قططاً وكلاباً وسلاحف كانت قد روضتها سالمة. أما أنا فلا أثر لصورة واحدة لي وقد كنت أكره الصور منذ طفولتي كما كنت أرفض أن يقوم أحد بتصويري بما فيهم سالمة نفسها وذلك لأنني كنت أشعر دائماً بالغصة والمضايقة وضيق الفضاء، فكأنني إذا ما صورت حكم علي نهائياً بالانغلاق داخل الفضاء وعلى مدى الزمن، وبالتجمد والتقلص إلى الأبد، كما كنت أعتقد أنني منذ ذلك اليوم إذا ما تم التصوير سوف لن أشيخ ولن أخرج من ذلك الإطار الذي به صورت (شارع أو دار أو حديقة) ولن تتغير ملامحي على الإطلاق.. مثلي مثل تلك الحشرة المصروعة تحت تأثير الدواء المسمم، فتبقى في مكانها ميتة مصلوبة على الجدار الأملس الأبيض المحبحب حيث كانت للحظات مضت تتراكض، وإذا بها الآن جامدة بقوائمها المتعوجة المشتتة في شتى الاتجاهات وجثتها المتقلصة المسحوقة والمنطوية على نفسها المتكمشة، تاركة وراءها خطاً دموياً منحوتاً على الجدار كأنه ظلها وشبحها وليمها.. لقد أحرقت كل صور طفولتي إذ كنت أجد نفسي قبيح الوجه، سمين الجسم، أحمق النظرة مما كان يسبب

هلع سالمة ويملأها حزناً وغضباً. . كما أحرقت أيضاً صورها هي ذاتها وكانت تكاد تفاجئها عدسة المصور دائماً وأبداً في وضعية مضحكة، فيما تذهب هي في ثني عينيها أو عض شفتيها أو تخبئة سلعتها. كانت تقتحمني عادة نوبة من الضحك كلما جعلت أتفرج على هذه الصور ليس لكونها تبعث على الكآبة والسخرية بل لأن أمي كانت تظهر بمظهر ذاك الذي هو على أهبة الإغفاء والإغراق في النوم أو التنويم المغناطيسي تسببه لها عدسة آلة التصوير.

يا لها من فكرة مضحكة تلك التي عزمت عليها سالمة فترغب مصرة على اغتيال سي عمر، في وقت لم يبق لها إلا عظمها على جلدها. . كنت أتركها وشأنها تخرف. . كما لو كانت قادرة على وضع حد نهائي لرضوخ النسوة المتدايم منذ آلاف السنين إلى الرجال، وذلك بمجرد طعنة واحدة تقضي بها على حياة الإقطاعي المتعربد الماجن والذي ضرب في النفاق الديني أشواطاً بعيدة. كانت غير قادرة لا بل عاجزة عن إلحاق أي ضرر بأي شخص أياً من كان، وها هي تفكر في أمور كهذه وتدبر الخطط وتنظم: إنما كان كل ذلك من باب الترفه عنها وتفريغ همومها ووساوسها. فكنت لا أعارضها ولا أعترض على مشاريعها هذه بل كنت أتركها تشرح لي كيف ستتصرف، رغم البرد الذي بدأ يدب في رجلي. ثم إذا ما حان وقت النوم بقيت أحتفظ في طيات صدري المكتظ، بأحاسيس حامضة طازجة وبانطباعات مملوءة طلالاً صقيعية وأماكن ضيقة

وأبواب قصيرة قصيرة، وإن كانت مطلية بأزرق الميتيلين.
ثم أنطلق بغتة من الكابوس الرهيب المتكرر فأنبطح منغرساً في شرائح النوم فأحلم أنني أسلخ كل قطط الحي سلخاً لما كنت عليه من شك في كونها بلغت فترة الودقان والاسترحام كما كنت أحلم في نفس الليلة بأنني أخرج أجساد السلاحف من هياكلها رامياً بها إلى نسير فرخ يلتهمها لتوه ثاقباً لحمها المتجمد بمنقاره ثقباً ثقباً، وهو في حالة هيجان واستثارة بالغة.

كان هذا آخر مقام لي قضيته في دارنا قبل إصابتي بالرعن الذي ذهب بعقلي فاختاله وخبل ذهني، بعد ذلك اليوم الذي زج بي في المستشفى العقلاني حيث علمت مباشرة من فم أبي المزعوم، جحا الملقب بسليمان ـ الحيلة، وفاة أمي تلك التي كنت وأنا صبي أمزق صورها وكل الصور التي تمثلها.

تظاهرت نادية بالإشفاق على مصيري التعيس وحاولت القيام بمناورة مشتبه بها للاقتراب مني من جديد فتستغل ما كنت عليه من قنوط وأسى فترغمني على التفاوض معها وتبتلعني من جديد نظير حية أخذت في القرق بعد تجرعها فرخاً مسكيناً. كانت تستغل حالتي الصحية الرديئة بعد إصابتي بذلك الرعن المخيف هناك على ذاك الشاطىء الذي كان الزنجي قد اتخذه له ولقطه المدلل عريناً لهما. بلغني خبر وفاة أمي ولم أحضر جنازتها، تفادياً للعراقيل ومواجهة أصحاب الطوابع والرخص والإمضاءات في سبيل رخصة خروج مؤقتة. وقد اختارت نادية ذلك الحديث للعودة إلي واللف والدوران حولي عاملة بالتدرج على تضييق حلقة نفوذها علي فأصبح مرة أخرى سجين نمرياتها ودهائها، فتصدع رأسي وتلتهمني فجأة وتعض شفتيها لاستثارتي حتى ينتهي بنا الأمر إلى ذلك المصران الضيق، مقر المكانس والعقاقير وأدوات التنظيف، وقد أصبح مكانها المفضل

لحل مشاكل شهواتها وتلافيف فرجها البارد. كانت كالغولة التي ترقب فريستها فتنقض عليها، ولا تخشى أن تبرز على محياها علامات الفرح والزينة والانتصار وتشهر تلك البرطمة الخبيثة فتبدو وكأنها أبت التبرع لي بأية هدنة أو استراحة، فتتظاهر بالحزن والكآبة وما كان ذلك إلا مجرد قناع جعلته على وجهها لإغرائي. أجل فقد ماتت أمي حقاً. وكانت المشرفة على الممرضات قد أشاعت الخبر بحيث بدا وكأنني ربحت الجائزة الكبرى في الرهان أو اليانصيب الوطني. وإذا برفاقي يأتون يعزونني وكأني بهم يأتون بعد عبورهم صفائح كثيفة من الضباب. فأرغم قسراً على معانقتهم فيما هم راحوا يبالغون في الضغط علي ومعانقتي وتسليتي كما أخذ بعضهم في النحيب والشهيق علماً بأنني أنا ابن المرحومة ما ذرفت دمعة وما بكيت قط. فأهدىء من لوعتهم وقد كنت وجهاً لوجه مع الجدار الأبيض الأملس (ذاك الذي كنت أخلط بينه وبين جدار آخر أبيض مثله وأملساً وملتهباً من شدة حرارة شهر جويلية، جدار مثل تلك الجدران التي ترسخت في ذاكرة بعض الناس أمثال الذين لا يعرفون كيف يتصرفون حتى يبلغون سن الرشد فيغادرون سن الطفولة. وعلى هذا الحائط الذي طالماساير طفولتي كنت أراقب عظاية تزحف على الشقاقات المتقشرة والمنبجسة من الحائط القديم العتيق وقد برش كلسه من شدة الحر وحدة الشمس وأيضاً ـ وذلك من باب الافتراض فقط ـ من كثرة أزيز الزيز وذبذبة الذباب

العازف (ازززز..) الملحق بشيء من التهاون وكأنه لا يطير سوى بجناح واحد فتبتلعه العظاية خلسة وبأقل من سرعة البرق، فتأخذ في تحريك ذيلها مقلصة عينيها من فرط ما كانت تشعر من لذة واستمتاع بالغين، وإذا بجسد هذه العظاية يتطاول ويتحرك ويقفز ويستلقي ويدور على نفسه على وتيرة حلقات متمركزة منسجمة منتظمة إلى حد الملل، ثم تتوقف فجأة وتأخذ موقفاً مؤلماً. وإذا بالشيخ ينام ملء جفنيه وراء الستار التولي وقد وضع ذراعيه بشكل صليب فراح يشخر مفتوح الشفتين فاغراً فاهه) هذه الحديقة المغطاة بالأزهار والنباتات على اختلاف أنواعها فتبعث الفخر والاعتزاز في صدر المدير. أما أنا فلا تؤثر فيّ أيما تأثير. لكن الغولة الرهيبة كانت تترقب مثلها مثل العقرب الأعور، فتشرئب رقبتها مثلما تفعل البعاضة كي تتجسس علينا أنا وأصدقائي الذين جاؤوا معزين بكل نزاهة وإخلاص، لكن المريضة المجنونة ما كانت تعلم مدى الخطر الذي كان يهددها وهي تتدخل في أمورنا الخاصة؛ الآن وقد ماتت أمي، وفشلت في محاولتها لإسقاطي في شراك غرامها فشلاً ذريعاً، علماً بأنني حاولت جهدي فدخلت حوضها ولعبتها ورحت أدمر بقضيبي ذلك الخرم الغريب وهو عبارة عن عين أخضر ـ مزرق ـ محمر ـ متورم ـ من خلال ـ شرجه ـ الخاص ـ المتشرب بالسكر (مما يجرح الحلق ويجعل من يتشممه يسعل ويسعل) فكان عليَّ أن أفتح طياته كجلدة متراخية قادرة على التقلص

والانغلاق على القضيب الوالج في الفرج، فأموت موتاً مقذعاً، علاوة على أنني قبل التوصل إلى هذه الشرائح المتراكمة المتجعدة كان علي أن أضع أصابعي في ذلك الخليط من الشعر الفاتر المتكشرد. وبما أن الغولة لم تتوصل إلى المتعة بعد، تحتم عليَّ أن ألجها أكثر فأكثر فأغرق في عرينها وأقوم بعملية الذهاب والإياب كالمنشار، وهي تحاول جهدها فتتحرك وتتململ بشكل عشوائي وكأنها تريد تدفئة جسدها المصراد أو التخلص من الصيبان أو الإسهال لكثرة ما تحدبت آخذة وضعية غريبة، اللهم ما لم يكن الخطأ خطئي فقد كان الجهد قد أرهقني وكدت أتساقط وأنا جالس القرفصاء وبدأت ركابي ترتعد، فلا أجد سبيلاً إلا في التلمس عبر لحمتها المتورمة المجعدة ذات خطوط مستطيلة حمراء (آثار خزف المرحاض) فيما هي راحت ـ وقد دحرجت رأسها نحو فرجها واضعة إياه بين فخذيها بغية مشاهدة الولوج وحركة الذهاب والإياب ـ تقدم إلى اختلالي المتطفل الملتهم كونية آلامها وبرودتها الجنسية. ولم تكفها هذه الهزيمة وهذا العار. وها هي تعود إليّ تلاحقني بمجاملاتها وتطفلها من خلال جمهرة أصدقائي الذين جاؤوا معزين. فتسترسل في الثرثرة وتقديمها لي النصائح، محرضة إياي على طلب الرخصة التي تتيح لي الذهاب لحضور الجنازة ثم العودة مسرعاً لعبادتها. يا لك من عزلاء! فهكذا كنت أنزل بها شتماً وتهديداً. بيد أنها لم تبدي أي انزعاج أو فورأن غضب بل كانت تنظر إلي بنظرة

كلها شفقة وخنوع وكأنني بها تريد التعبير بهذه الطريقة عن تفهمها لوضعي بعد أن تلقيت خبر وفاة أمي لفترة قصيرة مضت، عن طريق برقية، وفي الحقيقة لم تكن هي الوحيدة التي كانت تشجعني على الذهاب عن أن أحداً ما كان ليثق في جحا وباستطاعته أن يعيث البلبلة والفوضى في الجنازة، وتحريف الآيات القرآنية نكاية عن الدين والمشايخ وإزعاج الحاضرين بنتونة أرجله القذرة. كما كان باستطاعته أن يقوم بإحدى شطحاته تعبيراً منه عن تضامنه مع تلك المرأة التي ما كانت لتكون زوجته الحقيقية والتي ما سقط في حبها إلا سراً وكتماناً قاضياً أيامه إذا ما استدعاه سي عمر إلى المنزل وهو يحملق حولها ويسترق النظر إليها وقد تشعب الفضاء بحبال الغسيل التي كانت ترسم ظلالاً متشابكة على وجهها الرائع وبشرتها الرهيفة فتحزه حزاً فيما راحت السماء تتجمد كالجليد تحت وطأة الصيف وغليانه.

أما أصدقائي المرضى فاستمروا في المجيء إلى سريري مقدمين التعازي وقد اصفرت وجوههم وابيضت وتدحرجت ذاكرتهم في تلافيف أمخاخهم وارتهفت أشباحهم الهزيلة بعد مرورهم من ضوء البستان الساطع إلى ظل القاعة الفاتر، فيصلون إلى جانبي مرتبكين، في ثياب رثة، محتشمين. فكانوا يلحون علي، مصرين على أن أذهب فأحضر المأتم وأحمل نعش أمي على كتفي، ولكن كيف يمكنني إقناعهم من أنني لست قادراً على كشف وجهها بعد أن عبث الموت فيه وارتخت بشرته وذهلت

عيناها، وتعفن جسدها لكثرة ما اشتدت الحرارة في شهر جويلية، فبدأ جسمها يستزلق تحت تأثير الطراوة والندى فيما راحت امرأة عجوز تجلس إلى جانب كفنها الأخضر قاضية وقتها في إغلاق عينيها بعد أن فقد جفناها من مرونتهما؟ كيف يمكنني إقناعهم بأن وجه أمي قد تغير ولم أعد أتذكره الآن وقد حته الجذام وتآكله وضخمه وشمعه بحيث لا أستطيع معرفته: فهذه شفتاها قد انتفختا واخضرت أطرافهما من فرط ما عانت غصة واحتضاراً، وهذه أياديها فقد أصبحتا شفافة ذات بياض فاقع لا مثيل له قط. لا، لا، إنني أرفض مشاهدة بطنها الرخو، ومشاهدة عينيها اليسرى منهما واليمنى واللتين لا تكفان عن الإنغلاق والانفتاح رغم ما كانت تبذله الغسالة من جهود، وقد أضجرها ـ شاعرة بذلك سراً وفي الخفية ـ هذا التعنت من قبل جثة فيأخذها الشك ويتوغل فيها التطير فترى في ذلك العناد رمزاً إليها إن هو دل على شيء فعلى غضب الإله ولعنته (فقد كانت القرية كلها على علم بكون سالمة عشيقة سي عمر) فتعتبر نفسها هي القادرة وحدها على فك هذا اللغز، فتزيد في التسبيح ودق المسبحة بطريقة عصبية بدلاً من أن تعدد حبات السبحة بهدوء وإيمان لشدة ما كانت ترتعش خوفاً وذعراً أمام هذه الميتة التي ارتكبت في حياتها أبشع المعاصي وأرهب المحرمات، علاوة على أن جثمانها بدأ يفوح رائحة خميرية حامضة كريهة. ولم الذهاب لمشاهدة هذه الطقوس الغريبة وقد راحت الغسالة في تبخير

البخور على جسم الأم التي حقدت عليها حقداً مبرماً لعجزها عن إغلاق فمها، حتى إذا ما استولى الضجر عليها قررت لثامها بمنديل بدون أن تفارقها الابتسامة المفعمة خنوعاً ونفاقاً، فتشد بالتالي على الشدقين وكأنها أرادت فرض الصمت على أمي نهائياً هي التي قضت أكثر من عشرين عاماً ساكتة صامتة ما فشت بسرها المذيب إلى أحد. لا، لن أذهب إلى الجنازة، فلا علاقة لي بالنادبات والباكيات المحترفات اللائي لا يرهقهن الندب والعياط والعويل والصرخات الحازة التي تتساقط على الحاضرين فتخز أجسامهم كالأبراق الحديدية. لا علاقة لي بالنادبات اللواتي يذهبن إلى التمادي في التفاعل فيتمزق من شدة التألم وقد راح الصيف يهرس المدينة فيمزقها وتبدو وكأنها تتسرنم في حركات مترنحة وميضية متقطعة على وتيرة الأناشيد الدينية التي ستصب صباً على جثمان الفقيدة دونما احترام.. فيوم جاءني جحا زائراً قدم لي صورة صوتية عما حدث أثناء المأتم الصاخب. فقد جاءني على جناح السرعة فيخبرني عما حدث أثناء الجنازة وبعدها. فراح يتبجح مبالغاً في وصفه أبهة المأتم ـ معلقاً ـ هو الخبيث ـ على أن الموت زاد سالمة جمالاً على جمالها الأسطوري. كما لو كان بوسع كل هذا أن يخفف من ألمي وعزلتي وعذابي. يا للداهية الدهياء! وها هو يتصرف الآن وكأنه انعتق من الكبت الذي كان يعاني منه بمجرد سرد ما شاهده في المأتم. وما لبث أن راح موبخاً بكل صراحة قائلاً أنني

لم أقم بواجبي وقد كان علي أن أحضر الجنازة، فذهب إلى شتمي: «يا لك من جبان». مضيفاً أنني ما تمارضت إلا تهرباً من الحضور ومشاركتي المأتم والجنازة، سعياً وراء رغد العيش في هذا المستشفى هروباً من المسؤوليات والمشاكل. وإذا بي أرد عليه بعنف مركزاً على أنه هو أجبن ما عرفت في حياتي وأنني لست على استعداد للاستماع إلى دروسه خاصة وأن الأموات لا يهمني أمرهم البتة، فليكن له علم بذلك؛ وأن علاقة الأحياء بالموتى ترتكز بالأساس على خوفهم من الموت وأن كل تظاهرات الحزن والتمزق ليست موجهة لمن لقي حتفه وإنما تهم بالدرجة الأولى الأحياء أنفسهم الذين يخافون من الموت الذي سيكون لا محالة نصيبهم يوماً. ثم إني عاتبته على مشاركته في الجريمة التي اقترفها سي عمر ولو أدى به ذلك إلى الدخول في السجن مؤقتاً ـ على الرغم من خوفه من العناكب التي كان يرتعب منها ـ وقد كان عليه أن يفضح هذا الملاك المغتصب على ما هو عليه من معارف وعلاقات وثيقة بالسلطات الاستعمارية. «إنك أنت شريك في الجريمة يا جحا!». وإذا به يتقهقهر مرتعداً راجياً أن أخفت صوتي فلا ينكشف أمره أمام الجميع. وراح يبرر موقفه قال: «حتى سالمة نفسها كانت ترفض أن يشهر بالفضيحة لشدة ما كانت تخشى الناس وتأويلاتهم وتحريفاتهم ودعايتهم، خاصة وأن القرية التي كانت تحت سطوة سي عمر لم تتورع ثانية من إدانة سالمة وتبرئة سي

عمر..». وعلى علمي بأنه كان على حق بما يقول فأبيت التهاون معه فينقلب بسهولة هذه المرة أيضاً فلا يمضي متبجحاً مثرثراً في أنحاء المدينة معلناً أن أمي تحصلت على أروع جنازة عرفها العالم بعد جنازة زبيدة زوجة هارون الرشيد وأمير المؤمنين في الدولة العباسية في القرن الثاني... لا، لن أفسح له المجال ليذهب مرتاح الضمير مطمئناً.

ومهما يكن فقد أرهقني توافد الناس علي يلومون موقفي وتصرفي بحيث رحت أشك من نفسي متسائلاً فيما إذا كنت أحب أمي حقاً. أما جحا فراح يستمر في الحديث مسترسلاً مهوهداً بصوته الهادىء قائلاً: «فما أن غسلت الجثة وعطرت بالمسك والكافور حتى انتظم الموكب تحت إشراف وقيادة سي عمر الذي هرول راجعاً عند سماعه بوفاة سالمة. ولطالما انتظر هذه البشرى لشدة ما كان يخشى أن تغتاله المسكينة وهو في نومه غارق. ولكن مليكة لم تتوان عن إخبار النساء بما اقترف سي عمر من شناعة وفسق ومجون تجاه المرحومة، فإذا بهن يقررن أخذهن بزمام الأمور، فيصرحن للرجال أنهن يستغنين عن مساعدتهم، فيرتبك سي عمر ويشعر بالإهانة تنقض عليه انقضاضاً لم يعرف لمثلها بمثيل. وإذا بالقضاة والمشايخ وحفاظ القرآن يغتاضون معارضين هذه الثورة النسائية فيذكرونهن بما حرمه الله عليهن بعدم توليهن الجنازات؛ فما عرف الإسلام في تاريخه تصرفاً مثل هذا، فيهددونهن بمقاطعتهن الجنازة إذا

ما صممت النساء على موقفهن. وعلى الرغم من هذه التخاويف ومن تدخل ضابط الشرطة في الأمر، فلم يقو أحد على زعزعتهن فيما اتخذنه من قرار. وما كان من الشعب أن هش فرحاً محتاراً بين الدهشة والسرور. ويا له من مشهد جنائزي رائع! لا قاضٍ ولا حافظ قرآن. وإذا بالنساء يرتدين ألحفة الحداد ويخرجن صفاً صفاً متراصاً واجمات، صامتات وقورات هادئات غير آبهات بتهكم المتفرجين وشتائمهم، فيغتنم فقراء القوم الفرصة ويقتربون منهن بغية شم رائحتهن النسائية عن كثب وهن يمشين والحزن على محياهن، ثائرات غاضبات على سي عمر وموقفه البذيء..». وهل كان جحا أبي يبالغ إذا هو راح يروي أن ضابط الشرطة يتتبع الموكب الجنائزي من بعيد، ممتطياً سيارة رسمية فبدا وكأنه شريف الأفلام الأمريكية يطارد آثار قبيلة السيوكس؟ وكان سليمان ـ الحيلة يقسم بأن الحقيقة تطابق قوله لا بل تتعداه إذ حدا الأمر بالبوليس أن يتنكر بلباس دجال اتقاء الشعب واستهزائه به وقد راح يسلل في صفوف الموكب عناصر من (الأ.ع.س.) الذي تقمصوا بلباس نسائي وقد دججهم بالأسلحة الخفيفة والثقيلة، فبدوا متوتري الأعصاب على استعداد لإطلاق النار لأتفه سبب أو تظاهرة. ولم يخف المسؤولون خشيتهم من ردة فعل رجالية عنيفة لعدم تحمل الرجال أكثر من ذلك هذه المسخرة والبدعة الخطيرة التي قاومت فيها النساء حق الرجال عليهن وهم القوامون عليهن ولم يسبق لهذا مثيل قط، وخاصة فيما

يتعلق بطقوس دينية وما قاله الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم. ويستطرد جحا قائلاً متضاحكاً ولم أر في الأمر ما يدعو إلى الضحك: «الحق يقال كان الموكب مضحكاً صراحة. فالنساء لم يملكن التجربة اللازمة للتصرف في مثل هذه الظروف الدقيقة.. فكنا يتعثرن وراء النعش فلا يعرفن كيف يحملنه.. فتنظيم الجنازات هو فن من أروع الفنون في الدنيا. تصور قاضياً وقوراً يقود جنازة. إنه ماهر في مثل هذه الأمور وخبير فيها. يعرف كيف يمشي برشاقة وخفة على ما هو عليه من تخمة ومن تثاقل في أجفانه المتناومة، وراء النعش. إنها مهنته. وإن هو عاش فلمثل هذه المناسبات. فبدون جنازات لم يعد له أي مبرر ولم يعد يصلح لشيء قط. وإذا ما احترمه الناس ويبدون نحوه كل وقار فلأنهم يرون فيه ممثل الموت حياً. لا أكثر ولا أقل. أما النساء ـ والحق يقال ـ أما صديقات سالمة فقد كن دون المستوى، دون المستوى بما لا يقاس!».

والآن وقد استذوق تمثيله هذا فقد راح يقوم بحركات إيمائية يمثل حركات النساء في الموكب، فيقهقه القهقهة العريضة وقد نسي أن أمي قد قضت نحبها وأنه لم ينقض على وفاتها إلا أسبوع واحد لا غير وأنني كنت محاطاً بما في رفاقي من تشككات واتهامات وقد حرضتهم نادية ضدي إذ أنني لم أفسح لها في المجال لاستغنام الفرصة وهذه المصيبة التي ألمت بي فانقضت على رأسي لمعاودة تبادل علائم الحب، فتعانقني وتلاطفني وتعزيني فتمحو هكذا

بشطبة قلم كل ما نشأ بيننا من خلافات وتوكعات أفسدت علاقاتنا فآلت بها إلى التدهور والتردي النهائي، خاصة بعد تلك الصدمة التي اصطدمت بها، أي صدمة المناديل الحيضية: (سيدتي، إن ترباكس..) على أنني لم أشعر بأي ذنب إزاءها ولا يخفى علي ما لها منذ البداية من يد في عمليات (الأ.ع.س.) ونشاطاتهم، ومن يعلم فلعلهم هم الذين عملوا على ترقيتها إلى منصبها هذا كمسؤولة ورئيسة على الممرضات عامة، فلا تتوقف عن التبجح بهذه الرتبة الفخفاخة فلا تنفك تنطق بها فتفرقعها تفرقعاً بين أسنانها القذرة. كما لم يخف عليَّ أن حقدها نحوي قد بلغ درجة خطيرة بحيث إذا سمحت لها الظروف فلن ترحمني قط. يا لك من غولة يا نادية، ولكم كنت أشتمها على تمثيلها السلطة القمعية في المستشفى. علماً بأن كل الناس بمن فيهم الأطباء أنفسهم يهابونها وخاصة ذاك الذي يحمل نظارات شمسية لماعة متخنثة. تلك النظارات التي كنت أستغل بريقها فأعتبرها مرآة تنعكس فيها صورتي فآخذ بالتطاوس والتجامل والتصائي والتبلهن فأستثير ذلك الأحمق الذي يقضي أوقاته في تصفح كتب الطب الضخمة حيث دون العلم كله حبراً على ورق فيكفي قراءتها على ما يظن صاحبنا لفهم كل الأمراض وعلاجها.. كان الكل يهابها لعلمهم بما هي عليه من ارتباط مع أولئك المشتبه بهم الذين يحدث أن يهجموا علينا ويتحررون ويفتشون أمتعتنا ويبحثون ما في الزوايا، شاهرين مسدساتهم الضخمة لإثارة

إعجابنا أكثر منه لتخويفنا. «رائع مسدسك هذا! ما نوعه؟ وما عياره؟ متى صنع؟ عظيم، عظيم..». كان من السهل ملاطفتهم وإغراؤهم واختلاس أسلحتهم المخيفة التي تمدهم شجاعة وعنفواناً وثقة بالنفس كثيراً ما يفتقرون إليها عادة فلا يملكونها أبداً لولا ذخيرتهم هذه. ما كنت لأبالي بهذه المسائل والتفاهات والتظاهرات الصبيانية، فلا (الأ.ع.س.) يشغلون بالي ولا نادية وحتى جحا نفسه لا يشغلني. كلهم في الدهاء سواء. إنما الأساس لمن يكن هنا بل في أمور أخرى أهم منها بكثير. لقد فقدت أمي نهائياً واستولى القلق علي من جراء التفكير بالوحدة التي ستنقض علي، أنا الشجرة المحطمة في فوضى هذياني وخضم الأرق، أنا الممزق بين مشادة الرغبات المتباينة المختلفة المتناقضة والتي قد أبدعتها إبداعاً فكنتها في نفسي لأبرز أمام نفسي استمراري في الحياة، أنا من حكم عليه أن ينتظر شيئاً من سامية فيبقى قيد إشارتها، أن ينتظر رسالة منها، زيارة لها: زيارتي في المستشفى تطمئنني على أنها ما زالت على قيد الحياة، وأنها لم تذهب ضحية رقيات الزنجي السحرية المؤذية هناك على شاطىء البحر، وأنها لم تحاول تجنبي أو تجاهلي في قسنطينة حيث كان الموعد ليتم اللقاء، وأنها لم تجبر على الزواج قهراً من قبل عصابة ملاكي أشجار البرتقال التي يرأسها أبوها فيتزعمها بلا منازع، وأنها لم تتلوث من نزعتي الهيجانية التي تدفعني إلى تلمس بشرات الأنثوات بحثاً عن بصيص من النور من شأنه

أن ينقذني من الفناء والانتحار.. لم أكن على دراية بما أنا فاعله فلا يسعني إلا البقاء مستلقياً على فراشي، قابعاً في الغرفة، محاولاً ما باستطاعتي للتخفيف من لوعة من كانوا يتوافدون يبكون على وفاة أمي. كنت ريشة في مهب الرياح لا أدري متى وكيف كان علي أن أضع لهذه المهزلة حداً. فإذا بي أنهال على زملائي شتماً إلى حد البح. فما كنت يوماً مجرماً رغم ما تذهب إليه نادية وإدعاءاتها المغرضة. لا لست بمجرم بل أنا إنسان يشكو من العزلة، وقد أنهكته شراسة الآخرين، لا يجد له الحل سبيلاً سوى الغوص في الهذيان لعله يعثر على شيء من السذاجة الأولى وصفائها بانتظار توفر الأسباب الموضوعية لاندلاع الثورة العارمة. على أني ورغم كل المجهودات كان يسود بين طيات قلبي وضميري شعور بالغربة واللاواقع وقد راحت الشمس الساطعة المشعة في النوافذ تكسو الأمور والأشياء والأشخاص مسحة من الخمول والركود وكأن كل شيء يدور ويطوف في دائرة الحلم المفرغة. وإذا بهذا الإحساس المليء بالوهن والعياء والممزوج بنكهة بهلوانية يزداد قوة إذا ما تراكمت البنى المتراكبة الواحدة على الأخرى ملتصقة بشبكية عيني الملتهبة. وها هي صيحات رئيسة الممرضات ترتفع. وها هي أحلام جحا تبرز خارج نومه واستيهاماته اللذيذة. وها هم أصدقائي يذرفون الدموع ناعين أمي وكأني بهم كانوا ينتظرون منذ ولادتهم هذه الفرصة السانحة لتبليل بلاط المستشفى الرخامي بدموعهم الساخنة (وقد كان هذا

المرسطان سابقاً قصراً عربياً رائعاً ذا أصالة بينة بني إلى جانبه جناح حديث على أسلوب الباروكي المتموج على نمط الهندسة الاستعمارية الرائجة في القرن التاسع عشر فأصبح المجموع المعماري أشبه ما يكون بديكور قصر أسباني ـ كوبي كما يتوفر ذلك بكثرة في الأفلام الأمريكية الرديئة). وكان زملائي قد اختزنوا في أجسامهم الهزيلة اليابسة كل هذه الدموع المدرارة. ولم يبق أحد وحتى العملاق المجرم المصاب بالشلل الرعاشي السفلسي والذي اعتاد البكاء على أطلال الحبيب إلا وراح ينوح وينتحب ويبكي ويتباكى بإجهاش وعنف واجتهاد لا مثيل لها قط.

لقد دام هذا المسرح البهلواني بضعة أسابيع إلى أن داهمنا (الأ.ع.س.) فجأة وأخذوا يستنطقونني معذبينني ولما أكن بعد قد أفرغت جسمي من لوعتي التي اكتظت فيه بعد وفاة أمي. وما كانوا ليقروا بنواياهم الخبيثة وعلاقاتهم مع نادية التي لم تتوان عن إرشادهم وإخبارهم عن كل ما كان يدور في المستشفى. أوجه لهم السؤال فيجيبون بأن طرح الأسئلة ليست من اختصاص أحد غيرهم. كنت على علم بأنهم ملتزمون بالسر المهني وأنهم لا يتعدون كونهم قراقوزات فيهم من البلاهة بحيث يسهل توريطهم في أفخاخ بسيطة بدون كبير عناء. وإذا بي أتذكر نصائح جحا ـ سليمان ـ الحيلة وأوغل في مدحهم والثناء عليهم والتملق بهم جاهداً ما باستطاعتي إلى ذلك سبيلاً. فيبتسمون طرباً ويطلقون العنان لقرائحهم فيقرون ببعض الأسرار (ششت،

حذار من أن تفشي بالسر. . . Top secret)، وقد حرف نطقهم مضغة العلكة الأمريكية. وما أن أشعر بالاسترخاء يدب فيهم حتى أشهر أمامهم المسبحة السماوية الرائعة التي أعارني إياها أبي جحا على ما في هذه العلاقة من إبهام. «الله أكبر يا جماعة، الله أكبر!» فأجبرهم بالتالي على ترتيل القرآن ليبرهنوا للملأ أنهم ليسوا جهالة. وكنت أصحح ما يقترفون من أخطاء، مشجعاً تارة، معاتباً طوراً: «إن الله ليس مع المحرفين. نار جهنم ستلتهمكم يا إخواني». فرتسم علائم الدهشة على محياهم فيتعثرون لا يعرفون ما يفعلون فيرتبكون وتداخلهم الحيرة على مرأى من أصدقائي الذين جعلوا يتحلقون حولهم، فيمتنع أولئك عن طرح الأسئلة ويتراجعون القهقهرى. وما يبقى عليهم إلا مسح أسلحتهم الخفية المخفية متحسسينها فيسترجعون بالتالي شيئاً من ثقتهم بأنفسهم. على أنهم لا يدركون شيئاً خاصاً إذا ما رأوني وأنا غارق في التسبيح وترديد الذكر أباغتهم بوضع سبحة عنبرية بين أيديهم آمراً إياهم بصوت جاهر أن يسبح كل منهم ألف تسبيحة، كفارة عن أعمالهم الشنيعة وذنوبهم الرديئة. فلا يتسنى لهم إلا ترديد التسبيحات مشدوهين وقد أخطأوا فيما احتسبوا. كانوا من البلاهة وعدم الفطنة مما يتجاوز كل ما يتصوره عقل إنسان. وحفاظاً منهم على ماء الوجه يذهبون إلى التصنع في الضحك وإذا بنا نباغتهم فنقتلع لحيهم وأقنعتهم ويظهرون على حقيقتهم؛ وعندها يخرجون مسدساتهم ويطلقون النار في الهواء لتغطية هروبهم

فنغرق في نوبات من الضحك الهستيري تهتز له الأرض. وإذاك ننسى نعي أمي وننسى حدادنا والدموع كانت تذرف كل صباح تعبيراً من رفاقي عن تكتلنا وتضامننا وتعاطفنا وقد كانوا يكنون لي حباً نزيهاً أنا صاحب القلم ومدبج الرسائل التي يزمعون إرسالها إلى عائلاتهم (يمكنك إضافة ما تريد فالمهم أن يطول المكتوب... تكلم بإسهاب ما شئت وعما شئت... لنا في مهارتك الثقة كل الثقة... والمهم إدهاشهم) لإدهاش تلك العائلات التي قد تفقد بهذه الطريقة ما تحمل من الحقد نحوهم.

وما أن يهرع (الأ.ع.س.) حتى تعاودني مخاوفي وهلعي. إذ أن الصحف شرعت تتحدث عن اختفاء فتاة تحاكي أوصافها إلى حد بعيد ما تتصف به سامية. كم من الوقت سأتمكن من المقاومة وتحاشي مخاليبها؟ كنت على يقين من أنهم سوف يفقدون صبرهم فيتهمونني باغتيال سامية. خاصة وأن الممرضة كانت متيقنة الآن من هذا الأمر وقد أصبحت بمثابة المرشد لرجال التحري وحليفتهم. كانت تستغل الرعن الذي أصابني وقواي المنهوكة والصدمة التي انتابتني لوفاة أمي والعزلة التي وجمت فيها، لتأتيني فتطرح أسئلتها المختالة. كنت أحاول إغراءها جنسياً فألقي عليها قصائد غزلية للعصر الذهبي، قصائد أبي نواس وبشار بن برد، وعبثاً حاولت. حتى حيلة المسبحة ما كانت لتجدي نفعاً. فقد كانت منتبهة لما كنت عليه من مراوغات وتحيلات، فأتركها تذهب حائرة مرتبكة.

وكان أن رغبت في خنقها لا بل شنقها لكونها راحت تهددني، متصرفة معي كما لو كنت أنا المجرم الذي اغتال سامية... لا، فلن أتركها تفعل ما تشاء. ومن يدري؟ لعلها ترضى باقتراحاتي إذا ما طلبت منها أن تمارس الجنس في المرحاض المخصص للأطباء وهو على جانب كبير من النظافة! علماً بأنني سأتجنب الوقوع على ذلك الوعاء المخصص لخرق الطمث (Madame TRIPAX a pensé à vous)، فأتحاشى بالتالي خطر الغثيان والاشمئزاز. ولعل المتعة ستنير وجهها الكريه وتحرك شهوتها الميتة. آه. آه. انظري إلى لساني. سوف أضعه أينما تريدين... أين أردت.. فكري قليلاً.. تصوري.. سوف ننجح هذه المرة.. يمكنك تعرية نهديك... سأقوى على الصمود أمام هذا الفارق الرهيب (لن أقول لأحد... لن أفشي السر). سأكون رجلاً سأكون فحلاً هذه المرة سترين... هيا تعالي... بدون مماطلة.. (تتردد بعض الشيء) سوف أتجرع ريقك المسموم وقد سممه كبدك المريض ومعدتك المريضة وكان الغضب يكشط رأسي كأنني حامل في جمجمتي قطعة حديد محبحب مبرد... سوف ألامس بطنك الرخو... رائحة البول تقتحمني (صورة ذهنية تعود إلى عهد الطفولة: حمار ينتفخ قضيبه فيتفجر سيلاناً بولياً رهيباً يكاد يثقب إسفلت الطريق، مكشكشاً متزبداً..) رائحة الملح... رائحة إبطيك يا واشية. بطنك المجعد المترهل كرخوية وردية مخططة بتجاعيد بيضاء كنت أطاردها تحت

حوض غسيل المطبخ بعد غياب الشمس. دقات قلبك. كيف يمكن ذلك وقد وشيت بي للشرطة؟ كيف تريدين مضاجعتي وتطالبينني بلحس فرجك وغض الطرف عن عالة نهديك؟ وهكذا كنت أحاول إغراءها.. أبذل ما بجهدي.. إنقاذاً لحياتي.. أفعل ما تشائين... سوف أهزك هزاً فتحسبين الله قضيباً صلباً يابساً طويلاً. أتركيني أتصرف... فالأمر له علاقة بحياتك وحياتي. لنسرع قبل عودة (الأ.ع.س.) إنك لتحملين بين ضلوعك سيلاناً دفاقاً يتدفق لذة واستمتاعاً... دعيه يسيل... على أنها أبت الانصياع بل رفضت رفضاً قاطعاً. وإذا بها تتطاوس وتتعالى مصرحة أن كلامي المعسول هذا إنما هو مجرد كلام إغراء فأسقطها في الفخ مثلما سبق وفعلت، معترفة بأنني لست بفحل، فخوفي من الدم قد ذهب برجولتي. «تنكت!». لقد فشلت فشلاً ذريعاً ولم أعد أقدر على زعزعتها. كانت الكلبة تحلم بأن تراني معلقاً على رأس مشنقة. هكذا! تريد أن أعلق مشنوقاً في الساحة العامة، معلقاً أمام الملأ وبحضور فرقة موسيقية. (يا لك من معذبتي، ولكنك لا تملكين سوى ذاك البظر المتدلي وسط هذا الجرح المتعفن المتعطن: أعني فرجك البارد المشلول الذي لم يعد قادراً على الاستمتاع وتقدمة المتعة. لا شيء. أنت واشية وستبقين واشية... مرشدة تتعامل والشرطة).

بين موت أمي واستعصاء نادية فما كنت لأعرف كيف أسيطر على الواقع. إن أيامي لمعدودة. هذا يقيني كما أن

يقيني أنهم سوف يسلخون جلدي فالأمر واقع وآت عما قريب. على أني سوف لن أتركهم. لن أتركهم يفعلون ذلك. سوف أتفجر بين أيديهم. سوف أنتحر. سيعودون ولن يجدوا شيئاً. لا شيء يجدون قط. هباء. والسلام عليكم! لست أنا من قتل سامية. إنهم يعلمون ذلك كل العلم. لا هم لهم سوى تشويه سمعتي السياسية. سوف أنصرف. سأغادر الحياة قبل عودتهم. وفي الوقت الذي لا يعلمون. فششت... زهور من الدم. سوف أبهرهم بميتتي الخارقة. انفجار، انفجار دماء صاعدة في الفلا. وها هي الضجة تنتشر شيئاً فشيئاً. انتشاراً عامودياً صلباً. (صفيحة حديد أو ورقة زنك؟) ترتج في الفضاء الذي اقلولب اقليلاباً نهائياً تحت وطأة الحرارة التي راحت تقلص تقليصاً غريباً الفسحة حوالي. أنا محاصر. من كل جهة محاصر. إلى أين اللجوء؟ إلى أين الذهاب، وأين الاختفاء إذا أصبحت المرسطانات غير قابلة لذلك؟ وما عادت ملاجىء آمنة؟ ما العمل يا ترى؟ لو عادت سامية لحلت المشكلة أصلاً. لعادت سامية لو لم يسكرها الزنجي المجنون بذاك الدم الفظيع. يا ليتها تظهر سامية من جديد. لو ظهرت لأطلقوا سراحي وعدلوا عن تعذيبي... ولماذا كل هذه التحركات؟ لقضية لا تتعدى فض بكارة فتاة كانت تعشقني وقد صادقت على ذلك بملء حريتها. ولماذا اختفت سامية؟ والشمس نفسها، حتى هي، أصبحت عامل ضغط مؤلم فجعلت تحرق أجسادنا فتجلفها وتصليها. وما شراييني

إلا عبارة عن أوتار وأوتاد مشدودة بين الخوف والمرح.
اختلاط الكلمات، تشابك العبارات، تمازج الأصوات، جلاجل الماعز، نواقيص الفياقات الآلية، رنة أجراس الحكام، جلاجل الماعز الأسود الذي راح يعيث فساداً في الشاطىء اللعين فيما كنت أذوب حباً وغراماً وشبقاً وارتعاشاً من الدم. وفي الخارج شمس فشمس دائماً وأبداً. وفي الخارج كوابل الترامفاي والرافعات والملفافات واهتزاز الضوء... وفي الداخل شمس فشمس دائماً وأبداً. في الداخل سقف بمنوره المتشابك. والماء. الخدامات يغسلن البلاط وأنا ممدود على السرير طريح الفراش، غاطساً في المرارة والتعاسة، تعاسة حياتي المريرة. أمي ماتت. لقد ماتت أمي. الماء ماء أخضر. ماء أزرق. أينما التفت، ما أخاف. أرتعد. روائح كريهة. زبد البحر. أشنان الشاطىء. مكعب الضريح حيث يحشر الزنجي أموره القذرة. رائحة (ماذا؟) جفنين منتفخين على كل عين من عيني وهناك الآخرون، هناك أصدقائي المرضى يزقزقون يثرثرون. يا ويلي! ولكم أتمنى أن أقضي بنعومة، بعذوبة. (نعم... إنها عادة السن. صعدت الدرج الهرم. ذاك الذي نخرته قشعة في الأعماق بحثاً عن النشارة. ورحت أدور في أروقة دبقة ذات الزوايا الحادة تتصدى لي فجأة بدون ما إنذار. سكنت غرفاً منتنة. نفخت على فوانيس طليت بازرياق الميتيلين. أضفت لهيبها على العشيقة المطروحة بالقرب مني، درجات تلوين وردية وأخرى كامدة رغم

سحنتها الكدراء. الفسق. خدود جوفاء منفغرة كجروح لا تندمل... نعم؟ ماذا تثرثر؟ فالمكان حفر حياً، وآلة العود المخبأة تحت كتب الرياضيات. لا نينوفر لحبيبتي، لا ثغرة في فرجها ولا ثقب فيه، لا شيء قط. قد سددت كل شيء بيدي المرتعشتين برداً وصقيعاً رغم سيلان الدماء المتفجرة ورغم آلام الفلاحين. صمتاً أيها الكتاب! ولتحطم المطرقة الآلية، لتحطم غيظك تحطيماً. لم يعد للأشجار ولظل الأشجار أي أثر قط. أجل يا صاحب القلم! فالشعب يدور في الأزقة وليس لديه أفكار مسبقة تساوره وقد انتابه السعال وداهمه الموت ولا يفتأ بالإبهام يمضي إمضاءه. فلا قيمة له البتة فهو غير ذي بال.. الرصاصة التي تقص الشريان القديم العتيق، الشريان بين العينين ذاك الذي يطرق في صدغي طرقة المطرقة القديمة القديمة على سندان جميل جميل.. الصمت الصمت.. وأنت أيضاً.. صمتاً يا صاحب القلم..! ولا تنبس ببنت شفة. إنك تلتهم فرجاً بعد فرج بالثواني، مثلك مثل السمكة الهرمة اللوطية، أو مثل عنكبوت شائب يجرجر كرشه المنتفخ، يهيم بين أحفاده الدبقين دبق لعاب الضفدع أو دبق نزل الجعل الممدد بغطرسة المتقوقع على ذاته بانتظار صرخة تفقع كالسوط في الأجواء وتنقض على رأسه فتثير أزيزه في صخب الظهر.. قل لي.. يا ليت القدرة.. ولكن الفلاحين الجالسين القرفصاء يحدقون بالصيف وهو يحرق شرايينهم: إنهم على يقين مما في كلمة الصمت من

معنى.. ولكن الشبابيك المعجة لا تعرف للابتسامة من معنى.. وجرذون يصطاد فراشة بأجنحتها المتحففة فيعكف على شفتيه يلحسهما.. ليت شعري.. وما المنفعة من لساني؟ فهيهات أن تبنى المساكن الشعبية لعمال المناجم في «الكويف» بحفوف اللعاب! لا وليس بالخطب الرنانة! حشود متقاطعة في الأسواق وقد لطفتها الشمس. تقطعات في وجوه النساء وفي ثغورهن الصابرة.. تأمل، لقد رحت أعدو وراءها من دكان إلى دكان فيما أخذ سحر ساقيها العاريين الطيعين مني مأخذه.. أين كان لقائي بها؟ كانت تشتري من هنا وهناك زهور قريدس وكرزاً من «مليانا».. وقد كان في فمي طعم حديدي كما لو كان الأثير مزرداً بالجو وقد نال بغتة مزيداً من المطاطية.. رائحة صوف يحترق. والتجار الذين يحركون ألسنتهم في أفواههم بعناد بغية الانتصار على كآبة الزبائن الكاسدة. هذا خير صنف. ناهيك عن السواحين الذين يقتحمون مدينة فاس اقتحاماً وناهيك عن جحا وقد راح يبيع حماره لشراء رشاشة ستين عيار سبعة من صنع.. تقعير.. الدائرة الجهنمية. تمشي هي في الأمام وأنا وراءها أعدو. صغيرتي.. ما الحيلة لأقول لك: كلا لست أنا بدب قط.. وإن خشيت أن أكون أقرب ما أكون إلى القرد شبهاً، هذا عار يمكن إزالته بضروب من الحلوى.. هي تمشي في الأمام وأنا وراءها أعدو.. وليس في تصادم الجمل المتلاطمة التي تصفع وجهي حيث بنيت سداً من الحقد الأزرق ليس فيه ما يثير

الاستغراب.. بل الغريب في الأمر أنني وقد ذهبت أتوهج وراء حبيبتي الفتية آل بي الأمر في قسنطينة إلى أنني حززت شفتي من شدة اكتزازي.. والشرايين فقد صارت من الضخامة بحيث تحولت إلى أكبال ضخمة قد أمكنها إن هي الحبيبة شاءت من أن تسير عليها بدون أن تهوى وأن تقوم بدور البهلوانية.. أنا لن أقول شيئاً).

(رؤية غامضة ملؤها ذرات من الغبار تتراقص آلياً في شمس الحادية عشرة والربع.. وقد كانت تمضي سمرائي من هنا وهناك ممشوقة شكسة مناوئة لكل مسعى للاقتراب منها. كنت وراءها.. أعدو وشيء لا يفصلني عنك فيما سوى ظلك وقط أو قطين شدتهما إليك رائحة الحليب التي كنت تجرينها رغم ما عليه من مظاهر العذراء الأصلية فعلاً من عندنا. حصن منيع! أما أنا فقد أرهقني الأعياء والحرارة أرهقتني. نخرني اليأس والشكاسة نخرتني. كنت أواصل عدوي وراءها أمسح المدينة مسحاً ولم أجد رعاية الموسى في ذقني. أمضي مهمل الثياب بين يقظ ونائم حتى إذا ما بلغت إلى كهفها وجدت الغول قابعاً يصوب إلى ساعته نظرة كلها انتفاخ وشبهات. لقد خشي أن تكون الحشود قد ابتلعتها فغرقت تحت أذرع الرجال الشعرانية، أولئك الذين غصت المدينة بهم ليلاً نهاراً يطوفون حول سعادة الآخرين كما يحوم الذباب حول نقطة من القهوة مذاقها حلو حلو، ويتباكون لأتفه الأسباب. إنهم متعبون أكثر منه فاسقون. أصحاب الجيوب التي شوهتها كتب عمر

الخيام وافتتاحيات الخطب وذوو الآذان الطافحة بصوت أم كلثوم: تلك المطربة الإلهامية ومخدّرة الجماهير، والتي لا أخطر منها على كل حال بالنسبة إلى الشبيبة في المدن تلك التي تهرأت أحذيتها على أسفلت الشوارع ولا تنفك تنتقل من رصيف إلى رصيف لتتبعثر في النهاية في حوانيت القصبة الواطية ذات الروائح الممزوجة نشارة وسمكاً لذيذاً مقلياً يؤكل بالأصابع.. ويأكل الآكلون منه حتى التخمة إلى أن يشح الزلعوم فما يكون منهم إلّا أن يعاودوا الإرواء حتى الصبح فيتجرعون مقادير هائلة مما يلوي الأمعاء تلوية، وهو كناية عن شراب من ثمرة الصبار، وذلك في صخب صدف الحلزون وقوقعتها وأنغام المطربة الآلهة التي تصرخ شاكية من جرح الحب الذي يؤاكلها، تلقى كالعلف على أولئك السكيرين ضحايا الخلافات والسراب آتنين النفس، حاملين توشيحهم على وجه جلودهم، ذوي الأخوة الأليمة..

وأي منفعة من الدخول في المقاهي المشبوهة؟ والأجدر مص الحصى لإرواء العطش!).

(وفي المساء، عند عوتي إلى منزلي وقد أنهكتني الحرارة وأرهقني التعب كنت أخجل من ألمي في خصاي.. وقد راح هيجان الشمس يزعزع الفضاء وينقعه برقشات طرية تارة ويابسة طوراً ودوائر الظل تزيد من حلاكة الشيوخ الجالسين على عتبات العمارات في مواجهة الإعلانات لا يعرفون تهجيتها ولا قراءتها: (ACHETEZ

UN COFFRE-FORT DANS VOTRE BANQUE! VOUS ECONOMISEREZ PLUS...).

ولنفرض آنذاك أن السلاحف قادرة على رفع كومة الشمس على ظهورها عوضاً عن أن تحمل هيكلها المبقع القبيح، لا لشيء إلا لإبهار اليعاسيب وإرغامها على الدوران بسهولة ومرح فائقين).

إذن ماتت أمي وأصبحت نادية مركز المؤامرة وأساسها تلك التي أخلت بعقلي وعزيمتي، وغابت سامية أم زوجت قهراً وقسراً أم أغلقت عليها كل الأبواب فسجنت في دار أبيها، ففقدت بالتالي كل شيء وخرجت صفر اليدين.. ليس لها شيء، لا شيء على الاطلاق. ولم يبق لي سوى الانتظار حتى يحين الوقت وتنقض علي الأحداث فتهزني حسب إرادة جلادي. لا فائدة من التسرع. ومن التسابق. لا رغبة لي في شيء سوى مباغتتهم.

«لا لست أنا أباك! لا أبداً!» هكذا كان يردد جحا.

وقد أخذ الكيف يتلاعب بذهنه ويدجه بالخوارق. فيشهق الرجل ويبكي من فرط ما يتملكه الضحك الذي عجز عن كبته، فتسيل دموعه على وجهه الداكن وقد دبغت جلدته واحترقت لقوة الشمس، فجعلتها رخوة ممضوغة. ما عاد بمقدوره التوقف عن الضحك. يا لها من خرافة. فيتناسى أنه في مستشفى. ولم يجد شيئاً آخر يقوله فخرج بهذه الشطحة: «لست أباك.. إطلاقاً.. لا.. لا..». فكان يحرك سبابته بسرعة وتمظهر زادا في اغتياظي. لم أشأ إظهار استثارتي وقد كان هو باحثاً عن مبرر للتزايد في الإثارة بغية التمظهر والتبهلن والتفحش فيقوم بحركات تتنافى والأخلاق ويذهب إلى نزع سرواله معرياً قفاه، هازئاً بزملائي، مثيراً استغرابهم ودهشتهم. ولا غرو فقد كان محشواً حشيشاً وخمراً آخذاً في التطاوس طولاً وعرضاً باثاً رائحة السردين الكريهة في القاعة. فيما نادية كانت له

بالمرصاد، تراقبه وقد تقلص وجهها غضباً وشراسة، مما كان يثير قهقهة جحا ويزيد في إثارته خاصة وأن عينيها كانتا تدوران في قعريهما بسرعة مذهلة من شدة ما اعترتها الغمة والغصة. وماذا كان بإمكانها أن تفعل في هذه الحالة لمواجهة جحا وبهلوانياته وهو يتمطط هائجاً مائجاً؟ لا شيء سوى تفادي الفضيحة. هل كانت تأتي تتجسس علينا؟ في الحقيقة ما كانت تأتي إلا للتعرف إلى حالتي وجس نبضي (هل تخافين أن أهرب؟ لا يا عزيزتي.. سترين.. لدي مفاجأة خاصة بك أحتفظ بها في تلافيف عقلي.. ولا أحد يحيط بسري علماً.. حتى جحا نفسه لا يعرفه، وهو المهرج العبقري الذي كنت قد ظننت مدة طويلة من الزمن أنه أبي... الهروب من المستشفى؟ لا. لعل ذلك من أسهل الأمور. وإن فعلت أعرف أنك ستبعثين الشرطة في أعقابي تلاحقني فلديها من السيارات السريعة ما يتجاوز كل تقدير... ولديها طائرات وعموديات بإمكانها الهبوط على رقعة صغيرة من الأرض حيثما شاءت...). تأتي إذن للتطلع على تأثير الرعن الذي أصابني فنال من صحتي العقلية (على حد زعمها...) حالتك في تحسن مستمر... انخفضت الحمى... وزال الصداع في الرأس.. وإذا به ينبجس من الباب في حين ما كنت أنتظر مجيئه رافلاً في نوع من السلطة النفسية ومن الثقة في النفس لا عهد لي بهما، يأتي فيهزأ بالممرضات، ويحتقر نادية فلا يأبه بها ولا يبالي، بل يهددها جالباً انتباه المرضى الذين ما سبق

لهم أن رأوه على هذه الحال من الاضطراب والتهول. ولطالما عودهم الهدوء والمسالمة والوداعة والبشاشة. لقد ذهب ضحية المزيج بين الحشيش والنبيذ.. لا، لا يا عمي لقد بالغت... هذا سرف في الترف...

وما أن يملأ ذهنه بالمخدرات حتى يأتي فيعيد الكرة: «لست بأبيك يا رجل!». ولكم كان يضجرني بتوجيه سبابته الهزيلة المرتعشة الندية نحوي وبرمي نكهته الكحولية البغيضة على وجهي. لقد فاته أنني على علم بذلك لزمن طويل مضى... وقد كان قبل مجيئه هذا يدور لسانه في فمه عشرين مرة قبل التفوه بسرّه وقذفي بهذه الجملة: «لكن يمكنك الاستمرار في اعتباري أباً لك...». يا للمهرج الكئيب المتعالي. ولنفرض أنني لم أعد أعرف من هو أبي الحقيقي؟ ومن هو حقيقة؟ أهذا المهرج المضحك الهزيل الذي كنت أكن له تقديراً حقيقياً وإعجاباً كبيراً علاوة على أنني كنت أتعاطف وأفكاره الثورية المضادة للتقاليد البالية والعادات الرثة هو أبي أم سي عمر الذي أنجبني سراً وسهر على تربيتي وأرسلني إلى المدرسة؟ وإذا بي أراه وكأنه وقع في الفخ. وإذا كان على وشْك الخروج من غيبوته التخديرية الكحولية هذه واسترجاع وعيه وعقله والحد من هيجانه. رأيته متردداً، ولم أثق في خالتي وفيما قالته لي وقد كانت أمي تنازع في الغرفة المجاورة. ألا يحق لي اختيار أبي حسبما ترضى به ميولي ونزعتي الطبيعية؟ على كل، إني لا أطالب بأب قط. أي نعم، يا جحا. أنا

أرفض أن تكون لي أباً. أرى أعصابك تتجمد ووجهك يشحب.. كف الآن عن جنونك... كفاك مسخرة...
فيذهل الرجل وكأن الصاعقة انقضت على رأسه فأذهلته. فتذهب الأحلام وتتبدد، تذهب أدراج الرياح. وإذا به يفقد آخر وتد يمكنه التعلق به... لم يعد له شيء. لا شيء، العدم يا جحا... «انصرف اذهب من هنا، إليك عني واذهب وقص خزعبلاتك على آخر. نادية، أطردي هذا اللعين من هنا!»؛ فكنت قد استرجعت فجأة صوتي الجوهري. لم يبق لي ما أضيعه. وإذا بجحا يتوسل راجياً أن أسمح له بالبقاء واعداً بأنه سوف يغير مسلكه فيبقى هادئاً رصيناً وقوراً، فله ما يقوله لي. أدركت أنه انتابه القلق لكوني أرفض قبول خرافة أبوته هذه. لا، أحد لم يغتصب أمي.. وحتى سي عمر لم يغتصبها. وأفراد القرية بأجمعهم على استعداد للشهادة بأن سي عمر هو رجل تقي سخي طيب وأنه هو من بنى المسجد على حسابه الخاص. فلم تعاونه الدولة بشيء. من سيثق بما يذهب إليه جحا؟ فالناس كلهم على علم بأن الرجل هذا ذو حيلة ومكر ومداهن مختل، ولا يصلح لشيء إلا لإضحاك الناس وتسليتهم وبيعهم أحسن السمك في حي السماكين بالعاصمة. وقع أبي في مأزق ولا يعرف كيف يخرج من ورطته هذه. وفجأة تخرج نادية من الغرفة وتصفق الباب وراءها بعنف. فما عادت لتفهم شيئاً. فظن أن موقفي هذا إنما هو مجرد حيلة أحتالها لإرغام الممرضة على

الانصراف فإذا به يسترجع حيويته ومرحه السابقين. ولا يفتأ يغمز بكلتا عينيه: «يا لك من داهية.. أنت الذكاء والفطنة بعينيها، لم تدرس الفلسفة بهتاناً وعرضاً، يا ولدي، الفلسفة أساس كل شيء في العالم». وإذا به يمدحني محاولاً استعادة ثقتي به. ولعله كان يمتدح نفسه في قراءة ذاته أنه نجح هذه المرة فأنقذ حياته، متيقناً في نفس الوقت أنني سوف أنتقم منه ليس على هذه الخسة وهذه الخديعة والخيانة، وذلك مهما طال الزمن أو قصر.. كنت أرفض رفضاً باتاً أن أكون أنا ابن سي عمر ذاك الغني المثري المترف المنتفخ الوجه والجياب، المتكرش البطن والذي يقف متربصاً كل فرصة مهما كانت ليستغلها فيزيد من ثرائه، هو المنسجم مع الحكم القائم، المستعد لتوظيف أمواله في الصناعة الوطنية شريطة ألا تؤمم أراضيه وتجاراته وحافلاته ورخصة التسويق والاستيراد، وهو أبداً على أهبة الاستعداد مغتنماً كل وسيلة للانسجام مع الأوضاع الراهنة قادراً على استعمال نفس الخطاب السياسي الديماغوجي شريطة ألا توضع العراقيل بل يشجع على المضي قدماً في الاستثمار. والرجل هذا (أبي أنا؟) لن يتردد في توظيف أموال طائلة في الصناعة الغذائية، وبناء المساجد على نفقاته الخاصة، والتبرع بما تيسر له على الجمعيات الخيرية وترشحه على قوائم الحزب، شريطة أن.. ولكن لماذا اختار بائع السمك هذا النهار للإعلان عن كل هذه الأمور وقطع الرابط المتين والوحيد الذي ما زال يشدني إلى وطني، ذاك الذي يفوح

رائحة البصل عابقاً برائحة خبز الشعير ذي الطعم الحامض؟ هل جن جحا وهل ظن أنني سوف أقبل بهذه الأبوة الغامضة التي جاءني يقدمها لي على طبق من ذهب؟ لا شك أنه يشارك خالتي وهو شريكها حقاً وعميل لها، خالتي التي أذهلتني بإفشائها هذا السر الرهيب ذات أمسية رائعة بعد الأصيل وقد هيمنت العتمة على الغرفة فراحت تقص موشوشة تروي مأساتها المهولة (فيما راح الندى ينخر عظامي وقد كانت خالتي قد تركت النافذة مفتوحة مشرفة على البستان الذي أشبعه المطر رطوبة، ذاك الذي هطل قبل البارحة فتآكل الطحلب والحزار في البستان)؛ تقول خالتي إنها تعذبت عذاباً مراً منذ البداية بعد أن أرغمها زوجها على قبول أختها في فراشها الزوجي حيث كان يضاجعهما كلتيهما دون حرج أو مرج. فكنت أباغت سليمان ـ الحيلة وأصدمه مصرحاً له عن الحقيقة، كل الحقيقة مصرحاً عنها بحذافيرها وتفاصيلها كلها، وإذا به يخر منبطحاً يكاد يفقد وعيه من شدة الصدمة. وكنت أنا أفعل ما أفعل، كنت على يقين من أنه سوف يهول الأمر وسوف يذكرني في يوم من الأيام بقساوتي تجاهه ولعله راح يغالي ويبالغ فيتهمني باللجوء إلى العنف والقمع والتهديد لإسقاطه في آخر خندق مسالم حفره لنفسه، فلا يتورع من وصفي بالأفعى المحرشفة الزاحفة المتريلة المسمومة، ومثلها مثل الحيوان الأسطوري الذي لا هو تنين المياه ولا هو حرباء الرمال، أو من وصفي بالغول ذي العيون

المتقلصة لشدة ما فيها من كراهية والقوائم المغطاة بعلق رخوة لصاقة... كنت أتسلى مروحاً عن نفسي وأنا أشاهد دهشته وأشاهده دمية آلية قابلة لكل المناورات والاستدارات والارتدادات شريطة أن يخلّى سبيله فلا يتدخل أحد في أحلامه المسالمة مزوداً إياها بصورة مستمرة بالكميات الهائلة من الحشيش التي يبدأ باستهلاكها مع الفجر الباكر ساعة استيقاظه... وهو على هذه الحالة جاءني مملوء الرأس كيفاً وخمراً، يصول ويجول متطاوساً مصرحاً بأنني لست بابنه. كان عليَّ إذن بالانتقام من هذا القزم الدجال الذي كنت أكن له كل محبة وتقدير لا مثيل لهما والذي جاءني محاولاً استلابي آخر طاقة عاطفية، لا غنى لي عنها لتوازني العقلي. محاولاً قص الحبل السري لا لشيء إلا تهكماً وازدراءً، ولمجرد انعتاقه من هذا السر الشائع المعروف عند الجميع والذي كان ينغص ضميره على الرغم من كل شيء، وهو لا يعرف لكتمان السر سبيلاً، ولا يجد الاضطلاع بدوره الأبوي نحوي أنا المريض إليه سبيلاً، أنا من كنت طريح الفراش يشكو من صداع في الرأس منذ أن أصابتني تلك الضربة الشمسية على أحد الشواطىء وقد كنت مشغولاً بالبحث عن سامية التي غابت فجأة عن الأنظار بدون أن تترك أي أثر لها، لا أثر على الرمل ولا على الحوض الأحرش الذي كان من المحتمل أن تكون قد داسته تحت وطأة نوبة من نوبات الغضب الجنونية. وها هو جحا يتصرف مثل الآخرين فلا يصدقني ويشك في صحة

أقوالي وفي قضية الرعن الذين أصابني فانقض على رأسي الذي راح يغلي غلياناً، على أنه هو جحا الملقب بسليمان ـ الحيلة لا يجرؤ على تكذيبي بل يزيد في إسخاطي وفي تضجيري مسترقاً النظرة نحو معصمي المضمدين، يتنفس الصعداء، يتنهد، راجياً مني أن أرضى بالواقع فأعترف به فأقبل بالانقطاع المر عن الأدب الذي اعتدت عليه وكان موضع حناني وعطفي، وقد أصبح صديقي كله إصغاءً لأسراري وفي الفرح والمرح شريكي ولما أبغ بعد العاشرة، وقد كنت أتماوت سأماً وقنوطاً في دار سي عمر التي هيمن عليها جو صاخب من عراك النسوة فيما بينهن والقيلولات الإجبارية. كنت قد شعرت نحوه منذ اللحظة الأولى بشيء من التفاني والورع الذي يتسم به خاصة وقد كان صاحب حيل وحماقات وشطحات رائعة، فلا أثر للندامة عنده ولا تفوته فرصة تشويش مما بهرني ففسحت له في المجال أن يزرع في بذرة الجنون التي لا بد منها لبلوغ الإعلاء في الأشياء، بذرة كان يدعي أنه اشتراها لإحدى السحارات وضعت في قارورة من زجاج صغير زرقاء اللون، فحولها إلى حرز علقه في عنقه وما زال. أما الآن وقد راح يلح علي لتكسير الوتر الواصل بيننا فلن أتيح له منذ الآن فصاعداً أن يتدخل في أسراري. وما كان ليعلم هو ما كان يدور في خلدي مما يثير غيظه وتوتراً في أعصابه. لقد بدأ ينفذ من بخار المخدرات الممتع. يا للسكير، الحشاش، المتعربد، السحار. فإذا أراشقه بالشتائم ليس لأنني كنت

أكره فيه كل هذه الشواذات التي طالما اعتبرتها في الواقع صفات حميدة في بلاد راح نفاق التجار وتعصبهم الديني يتكاثران بوفرة، كما راجت فيها سوق المتاجرة بالسبحات، بل لأنني كنت أرفض هذه الخديعة أو بالأحرى لم أرضَ بتراجعه عن ميثاق كان يربط فيما بيننا وما فيه من قوانين وألغاز وأسرار، وذلك منذ أيام طفولتي؛ وقد كنت أنتظر زيارته لنا في الدار مرة في السنة فكان أشبه ما يكون بشهاب أحار في دقة انتظامه. وها هو الآن يخيب ظني عند الشدة فيتصرف تصرفاً فيه من الغباوة بحيث جعلني آخذ منه احتياطي فلا أطلعه على ما اتخذت في النهاية من قرار، مخافة أن يخبر المهرة الهزيلة المهزئة المتعفنة، أي نادية الممرضة التي كانت تراقبني من وراء زجاج الباب مستعدة إلى تسليمي (لأ.ع.س.) طمعاً بترقية في الإدارة أو بوسام فخري أبى أي مسؤول تعليقه على صدرها القبيح في عهد لم يؤمن فيه بعد أوان تشريف النسوة بالأوسمة.

وانتهى الأمر بجحا أن طرد من القاعة وقد تأبطه عملاقان يرتديان زياً أبيض وقلنسوة منشاة. هل سيتذكر يوماً ما حدث له؟ وكيف راح يتخبط محاولاً الانفلات من أيديهم كالغضنفر ولما يكن قد انفلت بعد من حبال الحشيش والخمر، وعبثاً حاول. أما الآن وقد انصرف فغضب في سيل من القلق. وجوده بالقرب مني وحده كان يمكنه من حملي على العدول عما اعتزمت. ولم يبق لي أي مجال للاختيار وللتراجع. فما علي الآن إلا تنفيذ ما

قررته فأحترم نفسي، ليس للتظاهر بالبطولة بل خوفاً مما سيحدث يوم يلقي القبض علي فأصبح أسيراً (الأ.ع.س.)، أي بعد تسليم الغولة إياي إليهم بعدما ذاقت مرارة الفشل فيما بذلت من جهود لاستفتاني والسطوة علي، فأسقط عندها في جب الذل والاحتقار والعزلة. إذن، لم الصمود حيث لا ينفع الصمود؟ فسوف لن يتركوني ما لم أعترف مقراً بأنني أنا من قمت باغتيال سامية خنقاً أو غرقاً في مياه البحر فأبقيتها برأسها تحت اليم إلى أن تجمد جسمها تجميداً. ولن يتاح لي إذاك أي فرصة لإنقاذ حياتي. وإذا بالجرائد تذرف الدموع وتصعد النواح باكية على مصير تلك ـ الفتاة ـ المنتبسة ـ إلى ـ عائلة ـ شريفة ـ فراحت ـ ضحية ـ ذباح ـ سفاك ـ أو ـ أستاذ ـ فلسفة ـ معتوه. ولن يحتاجوا إذاك للجوء إلى المطاردة، فنادية هنا ساهرة بالمرصاد، ساهرة على حراستي ليلاً نهاراً. ولن يحتاجوا إلى شنقي فيصقلون رأسي إذ يتم مجيئهم بعد فوات الأوان. وإذا بصوت يخرق السكوت المهيمن علينا: إنه صوت المهاجر ذاك الذي كان قد فقد لسانه ولغته، فراح يرتل آيات من القرآن في لغة أجداده. شفي المهاجر. وسيتاح له الخروج من المرسطان. لقد استرجع لغته من حيث لا يدري. وها هو الآن واجم، متربع على فراشه، يحدق في الأرض تحديقاً، يواصل ترنيم القرآن بصوت رخيم عذب جهوري.

وما أن انتهى المهاجر من انتفاضته مستعيداً ذاكرته

ولغته حتى ساد الجو صمت عميق. فلا أحد يقوم بحركة ولا أحد يبدي أي استغراب أمام ما شوهد من غرائب المعجزة. وكان الحر شديداً. والساعة ساعة القيلولة وما زالت القاعة غارقة في عبق رائحة الأطعمة التي تناولناها في الغداء. وكان الجو يسيل بشيء من الفتور أبى الزولان رغم النوافذ المفتوحة والمراوح الكهربائية التي راحت تحرك هواءً حاراً دبقاً وقد كانت عاجزة عن منع الحشرات من التحليق والزطيط والدوران. ففي مثل هذه الأوقات تهبط الذاكرة في هوة القلق فتسعى باحثة عن الانفلات منه سبيلاً. ولم يعد بإمكاني تحمل خفقات قلبي ولا دقات ساعتي تفرغ الزمن وتتفرغ نظير آلة جهنمية علقت في معصمي بحيث لم أجرؤ على النظر إليها مخافة أن تتفجر تفجيراً أو تتفرغ تفريغاً فتأتي بغتة بالمساء ومن ثم بالليل... لا سمح الله أن يمضي الزمن. ولا رغبة لي سوى الاستمتاع بالسكوت المهيمن ووجوم المرضى في القاعة، وهذه الغفلة التي على الرغم مما حدث فأخذ الماضي يتفقع فقعات فيتفرقع صوراً فوسفورية: فها هو جحا أسمعه يقول: «إن دمل جدي تنمو غزيرة ين فخذيه...»، وما كنت لأفهم هذا اللغز ما معناه إلى أن أجبرته يوماً بدافع تهجمي وتهكمي إلى فكه فأخبرني أن هذه العبارة لا تتعدى كلمة المرور كان يلجأ إليها لتغليط الشرطة ومعناها أن محصول الخشخاش الذي يخفى عادة تحت جلابيب المومسات كان جيداً. ولكن ما لي وجحا

ولم يعد يهمني أمره لا من قريب ولا من بعيد بعد خيانته لي؟ فقد كان علي أن أرميه في سلة المهملات وأنساه. ولكم وجدت من الصعوبة لإزالة صورة هذا المهرج المتصف بوعي وتمرد خارقين من ذهني. فليس بإمكان أحد سواه أن يضرم الحقد في صدر الشعب ضد أثرياء القوم المستغلين وأولئك المشايخ المتعصبين المنافقين الذين يكذبون على الجماهير ويخدعونهم. العصر راح يتسارع متراكضاً ونحن نيام.. لا، فما علي إلا أن أتركه وشأنه. غداً سيضحك ضحكة صفراء، غداً سيفهم ما هي طريقتي لاستيعاب نظرياته السياسية الشاعرية. ولا أستغربن إذا ما ذهب الرجل إلى إثارة الضحك عند شركائه وأحبائه على حسابي... ولم يتسن لي الآن سوى الغرق غاطساً في تخيلاتي بذهن مفعم بصورة سامية، بجسم سامية ذات البشرة المحروقة من شدة شعاع الشمس المحرقة (نظير بشرة جاكلين زوجة القبطان لوكوك التي كان يلتهمها تقبيلاً وتدليكاً أحد أبناء عمي بعد أن وقعت في عشقه فتتعرى بحضورنا ونحن كلنا خوف من أن يعود الزوج المخدوع من الحرب التي راح يشترك فيها في الهند الصينية. وإذا بالقبطان يعود في نهاية الأمر مثقلاً بالأوسمة مبتور إحدى الساقين فعوض عنه بساق من البلاستيك كان يجرجرها ولا يصعد الدرج إلا بمشقة شاقة لاهثاً فائحاً رائحة طازجة. كنا نشفق عليه فلا نهزأ به وقد كان أشبه ما يكون بالعازف الأقطع المبتور الذراع، ذاك الذي جعل يضرب على الطبلة

في حفلة الاختتان وهو ينتمي إلى التخت المحلي. فما دفعهما كلاهما إلى هناك وسط الأرزيات؟ وبالأخص ذاك الموسيقار الأكتع الذي غادر قريته ليحارب في سبيل قضية خاسرة وغير عادلة. فيراودني الشك هنيهة وأروح أتساءل فيما لم تكن هناك علاقة تربط فيما بين الرجلين. وأتذكر أنه كنت قد رأيتهما بعد الهزيمة الفرنسية يتخاويان ويلعبان لعبة الكرة الحديدية في ساحة القرية المركزية ويقهقهان ملء شدقيهما، فيأخذ العازف في التشمير عن كمامه مبرزاً جذعه الرهيب المتورم المخيط فتبدو بشرة الندبة أغمق من لون الجلد العادي فيما كان القبطان لوكوك يشمر عن سرواله مبرزاً ساقه الاصطناعية ذي اللون الشمعي (وردي؟ أصفر؟) مثنياً على القومية الفرنسية والوطن الأم... هل كان في الحقيقة يعرف كلاهما الواحد الآخر؟ لم يكن باستطاعتي التمييز الآن في ذهني بينهما، بل جل ما أذكره أنهما كانا يدخلان معاً إلى حانة القرية يلامسان الكلب الضخم المنتمي إلى سلاسة العسبور والمنبطح على عتبة الخمارة لاهثاً بارزاً لساناً أحمر طويلاً طويلاً من شدة ما كان يعاني من الحر، فيما كانت صاحبة المحل تقف وراء مصطبتها وقد خيم الظل على المكان مكتسحاً إياه، فيتصبب العرق على وجهها نازاً من تحت مسحوق التزيين الذي كانت تطليه طبقات طبقات على وجهها، فيتخلله العرق رغم ما تتخذ من احتياطات فيشققه رقاقات، رقاقات وقد كانت تكشف عن دوائر مبقعة عرقاً تحت الإبطين وبمحاذاة

الجانبين محولاً قميصها إلى نسيج شفاف. وما أن يصل الرجلان بعد شيء من المشقة إلى مستوى العارضة حتى يأخذ الرجلان في تبادل النكت الحمقاء مجاملة للسيدة السمينة المكلفة بخدمة الزبائن فترد عليهما بدعابة ولطف: «الله يا رجالة أبطال مثلكم... لا يجوز...» فتصافح يد القبطان الفرنسي متجاهلة الجزائري (من يدري... لعلهم ينقلون أمراضاً غريبة...). أما نحن فكنا في ذروة القيظ نتراهن (أشحال من نيكة؟) ونشدد الحراسة خوفاً من الزوج. فكانت جاكلين تأخذنا في سيارتها الحمراء... وتعبر ساحة القرية بسرعة خارقة بغية لفت نظر عشيقها الذي كان يقضي معظم أوقاته في مطالعة الجرائد والمجلات في قاعة الحلاقة الفريدة من نوعها متجلبباً في معارفه التي حصل عليها في الثانوية الفرنسية ـ الإسلامية بمدينة قسنطينة حيث كان تلميذاً في القسم السادس بضع سنوات قبيل اندلاع الثورة التي سرعان ما التحق بها. ذهب ولما يعد. لا شك أنه استشهد منذ بداية الحرب. كما كانت جاكلين تدفع ثمن لعبة الخيل الخشبية التي كنا نصعد عليها بلهف وشغف مقابل تيقظنا ساهرين، وهي تختلي وابن العم هذا. حتى إذا ما تمت الأمور على ما يرام غمرها الفرح والنشوة فكانت تقبلنا قبلات حارة فتضع قبلات رائعة طرية عابقة فائحة عطر الخزامى الخالص الصافي. فكنا ـ يا لنا من أشرار ـ نغتنمها فرصة فنسترق لمسة خاطفة ومسة سريعة عابرة على إليتها الضخمة. أي نعم يا مدام... حذار...

(OUI LÀ MADAME... ATTENTION CAPITAINE LUI TRES MECHANT).

وفي هذه الدقيقة بالضبط كنت أحس بعد تناول العشاء، إذا ما أسدل الليل سدوله الصيفي، أنهم آتون لا محالة وقد آن أوان مجيئهم. وسرت الشائعات تقول إنهم اكتشفوا جثة سامية التي بحثت عنها أياماً بأكملها بمساعدة الشيخ الزنجي بدون جدوى. فلم يعد يتوفر أمامي مدى طويل من الوقت. كنت آمل بزيارة أخيرة يقوم بها جحا إلى المرسطان لعلني إذا ما أتى أعدل عن قراري الذي اتخذته سراً. وإن لم يأتِ فزهر النرد يكون قد حكم علي وقضي الأمر. فما عاد أمامي أي مبرر ولا وسيلة للتهرب. لا شيء قط. أمامي حائط ومن ورائي جدار... لا شيء ولو ثانية واحدة للاستعطاف على نفسي وعلى مصيري. وكان الليل قد دخل في ازريراق مطرد. وقد كنت على علم بأنهم لا يقومون بعملياتهم قبل الثانية صباحاً. لقد طغت العادة عليهم طغياً فلا يغيرون شيئاً مما عهدوه: لا التوقيت يتغير ولا طرق العمل.. كنت واثقاً من أنهم منقضون عليَّ في الثانية بالضبط. وأنهم يلصقون بي تهمة الاغتيال. وكنت واثقاً من أن الزنجي قد يتدخل هو أيضاً في القضية شاهداً على ما كان في تصرفاتي من غرابة. علي إذن بالتسرع. ولكم كنت أود أن أطلع على رد فعل جحا الملقب بسليمان ـ الحيلة إذا ما سمع كيف تفجرت بين أيديهم بغتة... ششطراق... أثق في أنه بإمكانه ـ اللئيم ـ أن

يعزيهم فيسيلهم مصرحاً لهم (الأ.ع.س.) أنهم سوف يلقون القبض ـ مستقبلاً ـ على ضحية أخرى على جانب أكبر من الخطورة والشجاعة والأهمية... أعرف ذلك تماماً. أما هم بما هم عليه من سمنة وكآبة فقادرون لا شك على معاتبة نادية والحقد عليها (كيف الأحوال ـ اليوم ـ و ـ هذا الرعن ـ هل ـ خف ـ النبض ـ لا بأس ـ به ـ والحمى ـ معتدلة..) متهمين إياها بالتهاون والتغاضي عن حراستي والسهر علي سهراً دقيقاً. الرعن. لو كان الأمر منوطاً بأمي لعالجتني على الطريقة التقليدية: مادة من ورق التين منقعة في الخل والمحكوكة بالثوم. كم من مرة أصبت بهذا المرض. اللعب بكرة القدم في الأزقة.. التسلل وقت القيلولة الهياج.. ذكريات! طيران وتحليق الملايين من الزرازير... الرعن؟ أصياف من البرد، أصياف من القيظ والقحط والجفاف...

تفسح في الحديقة. حذار من رطوبة الطقس وصداقة أصحابي. رائحة شجر الجنبة الطازجة وقد تفتحت أوراقها تحت هيجان الشفق... أصوات دبقة فيها ما فيها من الأرق... جهنميات بنفسجية متكاثرة ذات الأوراق المتكاثرة المتكالبة الشفافة. لقد أخفيت كل ما أملكه وراء الأجمة فيرثها جحا: هذه كتبي الثلاثة (القرآن الكريم ورأس المال العظيم والرسالة المعرية) التي ما كانت تفارقني قط. تلك هي التركة ليس إلا. لقد فكرت في كل شيء بما فيه الموقع وإراثة المكان وتفاصيل أخرى لا تقل دقة وإن بدت

سطحية لا أهمية لها. وما بقي عليَّ الآن إلا الانصراف بطريقة سرية رغم ما أنا عليه من هلع من الدم ومن صمت سامية التي أبت إلا عدم الإجابة على رسائلي، ما عدا إذا. . .

كتب أخرى للمؤلف

من أجل إغلاق نوافذ الحلم، 1981، (شعر).

ألف وعام من الحنين، 1981، (رواية).

الإنكار، 1984، (رواية).

يوميات فلسطينية، (يوميات).

طبوغرافية مثالية .لاعتداء موصوف، 1983، (رواية).

الإراثة، 1983، (رواية).

الحلزون العنيد، 1984، (رواية).

ضربة جزاء، 1985، (رواية).

التفكك، (رواية).

المرث، 1984، (رواية).

لقاح، 1983، (شعر).

يوميات امرأة آرق، 1985، (رواية).

معركة الزقاق، 1986، (رواية).

فوضى الأشياء، 1990، (رواية).

حقد الـ FIS، (مراسلات).

تيميمون، 1994، (رواية).

رسائل من الجزائر (بيان).

الشرق في الفن التشكيلي، (دراسة).

واقعة اغتيال ياماها بعد فوز الـ CRB، (رواية).

الانبهار، (رواية).

■ صدرت هذه الكتب جميعها في طبعة جديدة عن المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار **(ANEP)** عام 2003.

رشيد بوجدرة

رجل محبوس في مكان ما، يحاول أن يمتلك معنى العالم الذي يضيع منه لأنه أراد التخلص من فخ العادات البدائية والاتفاقات الاجتماعية هذه المحاولة تجعله يحي التاريخ ويستحضر الطفولة مصدر كل كتابة تريد بلوغ أقصى ما لديها.

تعرف هذه الرواية انتشارا كبيراً بفضل كتابة فخمة تتمتع بروعة وعنف لا مثيل لهما.

Maquette Badia Maïdat

N° ISBN 9961-756-01-0
N° Dépôt légal: 817-2002